أبو بكر الصديق وبنوه

سجل فى العزة والعزم والشرف الرفيع

دكتور
محمود عبد الفتاح شرف الدين
أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد
بجامعة الأزهر

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا ـ القاهرة
ت : ٣٩٠٠٨٦٨ ـ ٣٩١٩٣٧٧

أبو بكر الصديق وبنوه

سجل في العزة والعزم والشرف الرفيع

دكتور
محمود عبد الفتاح شرف الدين
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بجامعة الأزهر

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا – القاهرة
ت : ٣٩٠٠٨٦٨ – ٣٩١٩٣٧٧

الرحيبة . يصدرون للإنسانية نفائس الخلق الرفيع والشجاعة النادرة وجلائل الأعمال فى السياسة والريادة والحضارة والسيادة والنصر للحق جليا . حتى ارتفعت راياته فى المشارق والمغارب وستظل باقية حتى تطوى دواوين العباد على تلك الأرض التى نعيش عليها .

إن سلسلة التواصل تبدأ مع الخالدين الراشدين من قطبهم المعلى أبى بكر رضوان الله عليه فهو المستحق والجدير بمكانه الأرفع لما له من سمات الفخار وجليل الصفات فضلاً عن المواهب والمكتسبات ، منها سابقته للإسلام وصداقته للرسول ﷺ جاهليةً وإسلاماً ، وقد شهد عموم الغزوات وهو الذى أعتق سبعة كلهم كانوا يعذبون على الإسلام وقد أنفق كل ماله البالغ أربعين ألفا فى سبيل الله وعلى رسول الله ﷺ مع ما كسب من التجارة . وقد كلمه أبوه - أبو قحافة - فى أمر عتقائه بما هو مبسوط بين أسطر التاريخ فقال له « يا بنى إنى أراك تعتق رقاباً ضعافا ، فلو أنك فعلت ما فعلت فأعتقت رجالاً جلدا يمنعونك ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر : إنى أريد ما أريد لله » فنزلت فى تلك الخصيصة من مقامها آيات من قول الله ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ إلى قوله تباركت أسماؤه ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ﴾ (سورة الليل) ، فعاش أبو بكر فى مطلع فجر الإسلام ولحقه من أذى أساطين الشرك ما جعله ينال ثواب الصابرين . وقد رفعه الله درجة عليا فى مشرق عظمة الدين . وما زال هذا الصدّيق يُفرِد للرسول مكاناً أسمى فى قلبه ونفسه وروحه . ولما قدّمه وأسهم به حاز الحظوة وفاز بحب جميع المسلمين . فهو أخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً وأخصهم على رسول الله ﷺ وأحدبهم على الإسلام . فكان أكثر الصحابة حكمة ومضاء وعزماً ، ولا عجب أن يكون هذا مقامه الأسنى . فقد روى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : « أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ

فسألته فى شئ ، فأمرها أن ترجع إليه . فقالت يا رسول الله أرأيتَ إن جئتُ فلم أجدك ؟ - تعنى الموت - فقال لها المصطفى ﷺ : إن لم تجدينى فأتى أبا بكر » يقول الإمام محمد بن إدريس الشافعى : فى هذا الحديث دليل على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر .

وكتابنا هذا محاولة على درب الاجتهاد لإبراز دور هذا الصحابى الجليل « أبى بكر الصديق » متبعاً بصورة صادقة للكرام الأبرار أبنائه الستة : عائشة وأسماء وعبد الرحمن وعبد الله ومحمد وأم كلثوم . كلٌ قد تفرد فى صفحاته بنفائس ما قدَّم من خدمة جليلة لدولة عظيمة ، فكوَّنوا مع أبيهم سجلاً حافلاً لمجد الإسلام التالد فى العزم والكرم والشرف الرفيع .

والفصل الأول احتوى على شطر هام من حياة أبى بكر مندرجاً من قبيل اهتدائه إلى الإسلام إلى أن طهر الله نفسه برحيق هذا الدين القويم . وقد غطى هذا الفصل تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الإسلام . فكان « الصديق » من مبدأ الدعوة قسيم النبى ﷺ فى جهاده وكفاحه لإظهار الدين والجهر بالرسالة السامية بين الناس . لا غرو أن يكون أبو بكر مع النبى يسهم فى حمل الرسالة ويتحمل مسئوليته بأمانة . فلم تضلل حجته ولم تضعف بصيرته مع الشدائد والمكائد والمحن وظل أبو بكر صامداً كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف .

ويجئ **الفصل الثانى** ليكشف لنا إطلالة مجد الإسلام فى مطلع إشراقه مع الهجرة المباركة ومواقف أبى بكر المجيدة فى ترتيب أمرها إلى أن وصلت إلى مداها المأمول من النجاح ، وفى السنوات التى شهدت نهضة الإسلام مع الأنصار ، والمنجزات الفائقة فى بناء دولة ملؤها الحياة والأمل . وقد شارك الصدِّيق فى كل خطوة شهدتها الجزيرة العربية سلماً أو حرباً وإصلاحاً وعملاً بسواعد القوة الجديدة - مهاجرين وأنصار - أشداء

شكلوا على الرمال ونحتوا بين الصخور أعظم صرح لأمة ميزها الله بأرفع الكمالات ومؤيدة بتعاليم السماء حتى انتقل الرسول الأكرم ﷺ إلى جوار ربه .

أما **الفصل الثالث** . فقد خصصتُه لخلافة أبي بكر ومنهجه السياسى الرائد ، فبينا ما أسفر عنه النقاش الطويل فى أحقية المهاجرين والأنصار فى خلافة رسول الله ﷺ وما انبثق عنه مؤتمر السقيفة حتى نال أبو بكر إجماع الأمة أو ما يشبه إجماعها . أما الرافضة ففى هذا الفصل إجابة حاسمة عن بيعة على بن أبى طالب لأبى بكر دون إبطاء . ولم يزل الخليفة الأول يجد من أبى السبطين - كرم الله وجهه - كل الحب والتقدير فى خلافته وبعدها ، ودليلى المعتمد فى هذا رواية « قيس بن سعد بن عبادة » قال « قال لى على بن أبى طالب إن رسول الله ﷺ مرض ليالى وأياماً ينادى بالصلاة فيقول : مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس . فلما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام وقوام الدين فرضينا لدنيانا من رضى رسول الله ﷺ لديننا ، فبايعنا أبا بكر » وفى رواية ابن عبد البر فى سفره القيم عن على قال « لا يفضِّلنى أحد على أبى بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى » وأعتقد أن فى النصين ما يئد كل فتنة ويقطع جهيزة كل مفتئت بباطل .

وقد وقفنا مع **الفصل الرابع** على تلك المصاعب الخطيرة التى أطلتْ برأسها فى بداية هذا العصر . والصراع العاتى الذى قاده مجموعة من مرضى الزعامات وأرباب الانتهازية فى قضية الزكاة وادعاء النبوة أو ما عرف « بحروب الردة » فبرزت شخصية الصديق تسفر عن معدنها الرفيع قوية لا تلين حازمة لا تستكين مع شجاعة وقوة يقين وإيمان بعظمة القضية التى يقاتل من أجلها حتى صفت الأجواء وانقشعت الغمّة بانتصاره بجميع المقاييس .

أما **الفصل الخامس** : فلا شك أن القارئ واجد فيه عظمة مشرق النور في مسراه على مثار نقع الجهاد في سبيل إعلاء كلمة اللّه في بقاع المعمورة حين استطاع هذا العهد - على الرغم من قصر مدته - أن يزلزل عرش الأكاسرة والقياصرة ويهدِّد وجودها ويعلن وبصوت جهير عن سياسة الإحلال الحضاري في العراق والشام وسيادة المنظور الروحي والمعنوي مع المكتسبات الحربية التي حققتها الجيوش الإسلامية التي خاضها قادة الفتح وزعماء العسكرية التي خطت في صفحات الوجود أنصع الدروس في الجلاد والثبات والصبر والبطولة والعبقرية . سجلتها في هذ االفصل وبكل إعزاز وتشريف وبصدق الحدث والمعايشة فكأننا مع الأبطال والسيوف والدروع والخيول شهود عيان .

ويأتي **الفصل السادس** فيعالج جزءاً مزدهراً من أهم إنجازات أبي بكر في مساجلات الأيام خاصة ما قام به من جهد مشكور في جمع القرآن العظيم خدمة للبشر مع توالي الحقب حيث هيأ هذا الأمر الجليل لمن جاء بعده عند استنساخ المصاحف لكل الأمصار الإسلامية في عهد الخليفة ذي النورين عثمان بن عفان . كما ألمحنا إلى جانباً من اجتهادات الصديق وتفرده ببعض الفتاوى التي لا يشق لها غبار ولا مجال في صحتها لأي متشكك . هذا فضلاً عن الضمانات الأساسية للسياج السياسي الركين الذي وضعه أبو بكر للدولة الإسلامية في عهده والتي أوصلت السفينة على متن العباب إلى برِّها المنشود من الكمال والتوفيق حتى أوصل المشعلَ الوهاج إلى رفيق الجهاد وربيب مدرسة محمد ﷺ الزاهرة : عمر بن الخطاب الذي كان - وبحق - للأمانة أهلاً وبتحملها جديراً .

أما **الفصل الأخير** فقد آليتُ أن أقدم فيه ركناً سياسياً لهذا السجل الحافل حيث أعطيتُ للقارئ نماذج شتى لروائع الأمجاد الساطعة لتلك الأسرة الأصيلة من أبناء أبي بكر الصديق الذين كان كل فرد فيها نجماً

فرداً فى بابه وقطباً معلى فى إسهامه . دلت هذه الشجرة الطيبة على نفاسة الجوهر وعراقة المنبت . بما تميزوا به من صدق اليقين وشجاعة وقوة جنان . وضوء ساطع يجتلى للأجيال مدداً متجدداً للعطاء والقوة لمن يريد أن يسير على الدرب . وهم جميعاً من البشر لهم ما لسائر البشر من الحسنات وما أكثرها ، ويجرى عليهم سنن الخطأ فى الاجتهاد لبعض الأحكام والميول مع اعترافى مسبقاً بأننى مهما أثنيت على أصحاب هذا السجل الضافى فلن أوفيهم حقوقهم علينا فى هذا الصعيد المتألق بجلائل الإسهامات التى حازوا من خلالها على شرف التقدير والإكبار . وقد ألقيتُ أضواء كاشفة لما قدموفى العصور التى عاشوا فيها ، وما قصرت ، وإن كانت محاولتى فى إبراز هذه النفحة الشذية وإشاعتها من غدائرها ليعُمَّ فضلها بين من رغبوا فى الاستزادة . فهذا جهدى ، وحسبى أن أمد الفتيل وأساعد فى إشعاع المصباح على طريق المعرفة . وإن وجد القارئ فى هذا العمل ما يقصر عن الهدف الذى نبتغيه فإنى أعده صادقاً بزيادة الجهد ، لأن غاية الكمال لم يرتقها إلا الأصفياء من رعيلنا الأول ؛ فعلى دربهم نحن سائرون ننشد الوصول إلى الأفضل والأحسن وتعويض كل نقص ، وتقوية كل ضعف شاب هذا العمل . والله أسأله المثوبة على جهد المقل وشحذ القلم .

دكتور / محمود شرف الدين

* * *

الفصل الأول
الصدِّيق قبل الخلافة

أ - قبل إسلامه :

ولد أبو بكر « عبد الله بن عثمان بن عامر بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب » بمكة بعد مولد المصطفى ﷺ بسنتين وأشهر ، حيث جاءت ولادته بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر [1] وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابن كعب . ولم يكن لها أبناء يعيشون فحين ولدته أسرعت به إلى الكعبة فاستقبلتها وقالت « اللهم هذا عتيقك من الموت » فلقب « عتيقا » لذلك [2] قال النووى : إن اسم أبى بكر « الصديق » : عبد الله هذا الصحيح المشهور . وقيل اسمه عتيق [3] لأنه لم يكن فى نسبه شئ يعاب به . والصحيح الذى أجمع عليه طائفة من أهل النسب « أن عتيقا لقب له لا اسم » . وقد زادوا بأن الصديق لُقِّبَ بعتيق لعتاقة وجهه أى حسنه وجماله [4] وكان اسمه عبد الكعبة واشتهر بذلك فى الجاهلية حتى أنعم الله عليه بالإسلام فسماه النبى « عبد الله بن أبى قحافة » . قالت عائشة : إن النبى ﷺ قال : « من سرَّه أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبى بكر » فغلب عليه اسم عتيق . ثم أردفت القول بأن جدها « أبى قحافة »

---

(١) ابن عبد البر . الاستيعاب جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٢) المحب الطبرى . الرياض النضرة جـ ٢ ص ١٠٦ .

(٣) تهذيب الأسماء جـ ٢ ص ١٨١ .

(٤) ابن حجر . الإصابة فى تمييز الصحابة جـ ٢ ص ٣٤٣ .

كان له ثلاثة أولاد فسمى واحداً عتيقا والثانى معتقا والثالث عُتيقا أى بالتصغير [1] .

وقد عُرِفَ بالصدِّيق فى الجاهلية والإسلام على السواء . وما قيل فى سبب تسميته فى العصر الأول راجع إلى أنه كان يتولى أمر الديات وينوب فيها عن قريش . فما تولاه من هذه الديات صدقته تلك القبيلة وقبلته ، أما إن تصدى لهذا الغرض غيره خذلته وتخلت عنه ، وربما ترددت فى قبوله منه تحت إلحاح [2] . أما عن السبب فى تلقيبه بالصديق فى العصر الإسلامى فلأنه كان أول المبادرين بتصديق النبى ﷺ فى كل مواقفه خاصة صبيحة أسرى به إلى بيت المقدس والعروج به إلى السموات العلى [3] .

قالت عائشة لما سئلت عن سبب تلقيبة بالصديق ، قالت « لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى فأصبح يتحدث الناس بذلك فارتد أناس ممن قَد آمن وصدّق به وفتنوا به . فقال أبو بكر : إنى لأصدقه فى ما هو أبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء غدوة أو روحة » فلذلك سمى أبا بكر الصديق [4] . وقال أبو محجن الثقفى عن أبى بكر فى محمل حديث عن فضله وسبقه : « وسميت صدِّيقاً وكل مهاجر بسواك يسمى باسمه غير منكر سبقت إلى الإسلام والله شاهد . وكنت جليساً فى العريش المشهور [5] . وكنيته أبو بكر . وقيل لأنه بكر فى الدخول إلى الإسلام . وقيل كنى بذلك لابتكار الخصال الكريمة [6] وقد آزر النبى ﷺ فى نصر دين الله تعالى بنفسه وماله . وهو من قبيلة تميم بن مرة بن كعب ويتصل مع النبى فى جده

---

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٢٠ .

(٢) ابن الأثير . أسد الغابة جـ ٣ ص ٨٧ .

(٣) النووى المرجع السابق ص ١٨١ .

(٤) ابن سعد جـ ٣ ص ١٢١ .

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٢ .

(٦) ابن حجر الإصابة جـ ٢ ص ٣٤٢ .

السادس « مرة بن كعب بن لؤى » (١) . وبما أن أبا بكر ينسب إلى تيم قريش . فإنهم اطلقوا عليه « التيمى » ومعاشره الذين ولد بين ربوعهم تميز جل رجالهم بالأدب الجمّ والخلق الرضى (٢) . كما اشتهرت نساؤهم بمخايل الحسن والنضارة . فقيل إن بنات تلك القبيلة أول النساء وأحظاهن عند الأزواج . وربما كان مرجع ذلك إلى طول عهد القبيلة بحياة المدنية وإشغالها وأن أشتغالها بالتجارة كان يقوم على المودة وحسن المعاملة ولايقوم على بسطة النفوذ وصلة الغلبة (٣) .

والصدّيق من أكرم بطون قريش وأشرفهم إذ كانت إليهم - من مفاخر قريش فى الجاهلية - الأشناق (٤) . وقد آلت هذه المفخرة إلى أبى بكر حينما توضحت معالم شخصيته وقوى ساعده وأنس الناس فى شجاعته وإنصافه وأمانته . وقد انبثقت مواهبه فى غضون طفولته الباكرة فنمَّتْ عن ذكاء وهدوء وحياء لا يتلاشى ولا يتغير مع مراحل النمو والتكوين . وقد بدأ فى صباه فى بسطة من ألوان الاستغراق باستكشاف ما وراء الحجب من غموض إلا أن استيعابه الأكثر فى هذا السن كان النظر فى مكاسب العيش والثراء الوافر الذى يجمع ربحه من محيط مواهبة التجارية التى تفتقت من أكمامها على أعتاب الشباب وقد نقلت إلينا الروايات فى وصفه بإنه كان أبيضا تخالطه صفرة وسيما غزير الرأس خفيف العارضين ناتئ الجبهة غائر العينين حسن القامة لا يلحظ عليه انحناء . أجنأ - لا يستمسك إزاره فى وسطه - يخضب رأسه ولحيته بالحناء والكتم فتبدو لحيته متوهجة قانية الحمرة (٥) .

---

(١) ابن عبد البر الاستيعاب جـ ٢ ص ١٤٢ . (٢) ابن حجر مرجع سابق جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٣) العقاد عبقرية الصديق ص ١٠ .

(٤) الديات والمغارم . (٥) ابن سعد جـ ٣ ص ١٢٢ .

عمل أبو بكر فى الحرفة السائدة التى تتلاءم مع البيئة التى عاش بين أركانها . فبرز فى « تجارة الثياب » فوفق فى الوصول إلى مكامن الجيد منها والتعرف الدقيق على معايبها فى داخل أسواقها . كما برهنت له الخبرات صولات أرباب الحيل وتفرس أحوال الغششة والمدلسين ومقابلة كل هؤلاء بحسن الخلق ورقة الطبع مع رزانة لا تخرجه عن حد الوقار (١) فاتسعت تجاراته فى الرحلات الذاهبة إلى الشام واليمن فدخل بصرى وكان فى قافلة مع أبى طالب إلى الشام . وكان رأس ماله أربعين ألف درهم ، وراجت ثروته بسبب أمانته وصدقه فوثقت به العشائر والتجار (٢) .

وكان ذا يسار يحمل الكَلّ ويكسب المعدوم سهلاً لين العريكة رَضِيَّ الخلق رقيق الطباع لا يغلبه الهوى ولا تملكه الشهوة . وكان لوضوح حجته وحسن رأيه ورجاحة عقله سبباً من أسباب ابتعاده عن الكثير من المذمات والمنكرات والشناعات التى انغمس فيها كل من كان فى مثل سنه فأثرت فى أخلاقياتهم ولم تفتّ فى عضده أبدا (٣) . كما كان لا يشارك قومه فى العديد من موروثات المعبودات الحجرية التى لا تنفع الناس ولا تضرهم شيئاً (٤) فلم يشرب الصديق - رضى الله عنه - قط الخمر التى كانت مستشرية بين العرب قبل الإسلام وعندما سئل عن سر ابتعاده عن اقترافها قال « إنما ابتعدت عنها لإنى كنت أصون عرضى وأحفظ مروءتى . فإن من شرب الخمر كان مضيعا فى عرضة ومروءته » (٥) وأخرج أبو نعيم « لقد حرَّمَ أبو بكر الخمر على نفسه فى الجاهلية » (٦) وقد سئلت ابنته

---

(١) الخزرجى خلاصة مذهب الكمال ص ٢١٢ . (٢) المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٣) للمزيد من صفاته راجع السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٢٧ ، ابن ظفر أنباء نجباء الأبناء ص ١٩١ .

(٤) العصامى . سمط النجوم العوالى ص ٧٨ .

(٥) ابن حجر فتح البارى جـ ٢ ص ٢٣٨ .

(٦) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٣٢

الصديقة عائشة عن ذلك فقالت « حرّم أبو بكر الخمر . فلم يشربها فى جاهلية ولا إسلام . وذلك أنه مر على رجل سكران يضع يده فى العذرة [1] ويدنيها من فيه فإذا وجد ريحها صرف عنها . فحرمها أبو بكر على نفسه » [2] . كما أن الصديق لم يتعاط الشعر فى شبابه ولا كهولته ، وهو الذى لم يسجد قط لصنم حيث ينقل لنا الثقات بأنه قال « إنى لما ناهزتُ الحُلُمَ أخذنى أبو قحافة (أبوه) بيدى ، فانطلق بى إلى مخادع الأصنام . فقال لى « هذه آلهتك الشم العوالى » وخلأنى وذهب . فدنوت من الصنم وقلت : إنى جائع ، فأطعمنى ، فلم يجبنى . وقلت : إنى عارٍ فاكسنى ، فلم يجبنى . فألقيت عليه صخرة فخرّ لوجهه » [3] .

وبما أن الخالق الأعظم قد حباه جمالاً وجلالاً وأخلاقاً حسنة ونفساً صافية لعل أوجزها قوة الإرادة ومضاء العزيمة والقرب من قلوب من جالسه أو عاشره . خبيرا بخبايا ذلك المجتمع القرشى الذى شهد فتوته [4] . فضلا عن صدق نواياه ورعايته لحقوق الأقران فى الرحلات وأوقات الإقامة فإنها جعلت الكبير والصغير يأنسون لمحادثته ويثقون فى جل كلامه فأحبوه وسعوا إلى مصادقته لما ألفوا فى مساعيه إلى تأليف قلوبهم وجمع شتات أمرهم ، كما ساعدته إدراكاته الفاحصة لتتبع سلسلة الأنساب بين البطون والعشائر العربية فَعُدَّ الصديق لذلك « من علماء الأنساب وأخبار العرب حتى قيل إنه أنسب قريش لقريش وأعلمهم بما كان فيهم من خير أو شر » [5] .

وكان الصدّيق من رؤساء قريش وأهل مشورتهم يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر . منشؤه مكة وعاش بالقرب من ديار اشتهرت بالتجارة

---

(١) العذرة : الغائط .

(٢) السيوطى مرجع سابق ص ٢٨ .

(٣) ابن ظفر مرجع سابق ص ١٤٢ .

(٤) العصامى مرجع سابق ص ٨٠ .

(٥) ابن هشام السيرة النبوة جـ ١ ص ٢٦٧ .

الواسعة - داره ومنزل السيدة خديجة بنت خويلد ودار أم هند بنت عتبة - وكانتا تتجران بواسطة الرجال [1] هذا غير ديار بنى هاشم وغيرهم من نبهاء التجار وأصحاب الثراء العريض . وقد تزوج أبو بكر فى صدر الشباب من قتيلة بنت عبد العزى فولدت له ابنه عبد الله وابنته أسماء . ثم تزوج بعد قتيله بأم رومان بنت عامر بن عمير فولدت له عبد الرحمن وعائشة [2] أم المؤمنين وتمت الزيجتان قبل إشراق نور الإسلام على مكة . وشاءت الأقدار الطيبة أن يتعرف أبو بكر بالمصطفى ﷺ قبيل البعثة . فتآلفا وتحابا وتوطدت بينهما عرى صداقة متينة كانت لها أبعد الأثر فى تاريخ الإسلام والعروبة . وأكبر الظن أن التقارب فى السن والاشتراك فى العمل والاتفاق فى سكينة النفس ورضى الخلق والمروءه التامة والإحسان والركون إلى المكارم والفضائل والميل إلى الشمائل والجليل من الأعمال كل ذلك وثّق المودة الخالصة والحب المتجدد بين الرسول وصاحبه أبى بكر [3] وقد جمعهما مدارج التحنث وإطالة التفكير فى أمر هذا المجتمع الذى أشيعت فى جوانبه المفسدات وفشى بين الناس الأنانية والمعتقدات الذميمة . فابتعد أبو بكر وغمرته مشاغل التجارة عما ينغمس فيه غيره من أبناء جلدته . كما ألف النبى ﷺ الذى تجمع فى فؤاده كل معانى النبل والهداية والرشاد - العزلة فى جبال مكة وفى غار حراء على وجه الخصوص . ولا عجب أن يكون فى اجتماعهما شرف الصحبة وكمال التأثير فقد أفاضت الروايات والحقائق الساطعة فى وصف الخصال الكريمة التى تمتع بها كلاهما فى الأيام التى عرفت فى التاريخ باسم « أيام الجاهلية » وتزيد لمن يطلب « بأن أبا بكر كان أحد عشرٍ من قريش - فيما رواه الزبير ابن بكار - اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام ، وذلك أن قريشا لم يكن

(١) الحسن الندوى السيرة النبوية ص ٧٨ .

(٢) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٣٠ .

(٣) السيرة الحلبية ص ١١٢ .

لهم ملك ترجع الأمور كله إليه . بل كان فى كل قبيلة ولاية عامة تكون لرئيسها . فكانت فى بنى هاشم السقاية والرفادة ومعنى ذلك أن لا يأكل أحد إلا من طعامهم وشرابهم . وكانت فى بنى عبد الدار الحجابة واللواء والندوة أى لا يدخل أحد البيت إلا بإذنهم . وإذا عقدت قريش راية حرب عقدها لهم بنو عبد الدار . وإذا اجتمعوا لأمر إبراماً أو نقضاً لا يكون اجتماعهم إلا بدار الندوة ، ولا ينفذ إلا بها ، وكان لأبى بكر أمر الديات والغرم (١) .

ب - الصديق بعد أن هداه الله إلى الإسلام :

لما أشرقت أضواء الدعوة الإسلامية على سائر الجزيرة العربية وجاءت رسالة التوحيد تبدد ظلام الشرك . فإنه من المتوقع - يقيناً - أن يسارع أبو بكر إلى تصديق محمد ﷺ ويعلن إسلامه ويعتنق هذا الدين الجديد فور إعلانه . فكان أول من أسلم من الرجال وفى طليعتهم - قاطبة - وفى ذلك يقول البشير النذير « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ما عكم عنه (٢) حين ذكرته له وما تردد فيه » (٣) .

أما كيفية علمه بأمر هذا الدين القويم (٤) فيرويها الثقات : إنه لما بعث

---

(١) جمهرة نسب قريش ص ١٠٨ ، الإصابة جـ ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) كبوة : نظر وتردد . عكم : تلبث .
(٣) ابن هشام السيرة جـ ١ ص ١٠٧ .

(٤) يحدث أبو بكر عن نفسه فيقول كنت جالساً بفناء الكعبة وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعدا فمر به أمية بن أبى الصلت فقال : كيف تصبحت يا باغى الخير ؟ قال : بخير . قال : هل وجدت ؟ قال : لا . فقال : كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله فى الحقيقة بدر .أما أن هذا النبى الذى ينتظر منا أومنكم . قال أبو بكر - ولم أكن سمعت قبل ذلك نبى ينتظر ويبعث . قال فخرجت إلى ورقة بن نوفل فاستوقفته ثم قصصت عليه الحديث فقال نعم يا ابن أخى إنا أهل العلوم إلا أن هذا النبى الذى ينتظر من أوسط العرب نسباً . قلت يا عم وما يقول النبى ؟ قال : يقول ما قيل له ، إلا أنه لا يظلم ولا يظلم ولا يظالم . فلما بعث رسول الله ﷺ آمنت به وصدقته - سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٣٨ .

المصطفى . انطلق رجال من قريش إلى أبى بكر . فقالوا : يا أبا بكر ، إن صاحبك قال وما شأنه ؟ قالوا هو ذلك فى المسجد يدعو إلى عبادة إله واحد ويزعم أنه نبى . فقال أبو بكر : أوَ قال ذلك ؟ قالوا نعم . فأقبل أبو بكر إلى النبى ﷺ فطرق عليه الباب فاستخرجه . فلما ظهر له ، قال له : يا أبا القاسم ما الذى بلغنى عنك ؟ ما الذى بلغك عنى يا أبا بكر . قال : بلغنى أنك تدعو إلى توحيد الله وزعمتَ أنك رسول الله . قال : نعم يا أبا بكر إن ربى جعلنى بشيراً ونذيراً وجعلنى دعوة إبراهيم وأرسلنى للناس جميعاً . فقال أبو بكر : والله ما جربّتُ عليك كذباً ، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك وصلتك لرحمك وحسن فعالك ، مد يدك فإنى مبايعك (١) .

ولما شرح اللهُ صدرَ أبى بكر للإسلام - وهو أول رجل عربى بالغ أعلن إسلامه دون خوف - جعل يساعد صاحبه فى توصيل أمر هذه الدعوة الصائبة إلى الناس . فأصبح الصدّيق من أكثر المسلمين انتفاعاً بتعاليم الإسلام ، بل عُدَّ من أكبر المدافعين وأبلغ الدعاة الموفقين حيث أسلم على يديه وبسبب حجته البالغة وتأثيره المباشر عدد من الرجال ممّن وثقوا فيه إذ كان أبو بكر كما يقول ابن كثير : رجلاً مألفا لقومه محباً سهلاً فأسلم عن فريق من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه الزبير بن العوام وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن ابن عوف - رضى الله عنهم أجمعين - فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم أبو بكر . فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحق الإسلام ، وكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، صدقوا رسول الله ، وآمنوا بما جاء من عند الله (٢) .

---

(١) المحب الطبرى الرياض النضرة جـ ٢ ص ١٠٩ .

(٢) البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٩ .

ومن رواية البخارى فى أمر إسلام أبى بكر واسهاماته من أول يوم أن رسول الله ﷺ قال لخديجة « إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء وقد - والله - خشيت أن يكون هذا أمرا . فقالت : معاذ الله ؛ ما كان الله ليفعل بك ؛ فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث . فلما دخل أبو بكر ذكرت له حديثه وقالت يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة . فلما دخل رسول الله أخذ أبو بكر بيده فقال انطلق بنا إلى ورقة بن نوفل . فقال : ومن أخبرك ؟ قال : خديجة . فانطلقا إليه فقصّا عليه [١] .

ومع أن الدلائل كلها تشير إلى صدق إيمان أبى بكر وعمق المودة التى ربطت بينه وبين المبعوث رحمة للعالمين . وما قام به من جهود مشكورة فى إيصال حقّائق الدعوة الإسلامية إلى المتلهفين إلى سماعها ممن وفقوا إلى الدخول فيها من السابقين الأولين والذين أسلموا بإسلامه ، فإننى لا أميل إلى التيقن من صحة هذه الرواية التى يسوقها المحب الطبرى فى مجمل حديث عن ارتباط الخليلين - محمد وأبى بكر - وينسبها إلى ابن عباس وما قاله : أن أبا بكر صحب النبى ﷺ وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، وهم يريدون الشام فى تجارة [٢] حين نزلوا منزلاً فيه سدرة . فنزل رسول الله فى ظلها ومضى أبو بكر إلى راهب يقال له « بحيرى » يسأله عن الدين . فقال بحيرى : من الرجل الذى فى ظل السدرة ؟ فقال أبو بكر : ذاك محمد بن عبد الله . فقال بحيرى : هذا والله نبى الله ما استظل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم إلا محمد بن عبد الله . فوقع فى قلب أبى بكر اليقين [٣] .

---

(١) صحيح البخارى ص ٤١٢ .

(٢) كان النبى ﷺ غلاماً فى التاسعة من عمره حين رآه بحيرى الراهب وكان أبو بكر وقتها فى سن السادسة .

(٣) الرياض النضرة ص ٧٣ .

هذه الرواية تكلم فى صحتها كثير من العلماء الذين لهم إلمام بصحة السند للأحاديث وأجمعوا بأنه حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذه الوجهة [1] وهو من الأحاديث المنكرة . ومما يقدح فى تمام صحته : أن الرسول فى أصح الروايات لم يصل إلى بلاد الشام إلا مرتين الأولى مع عمه أبى طالب وهو لم يزل فى سن التاسعة من عمره ، والثانية فى قافلة قريش على رأس تجارة السيدة خديجة بنت خويلد مصاحباً لغلامها ميسرة وهو إذ ذاك ابن الخامسة والعشرين من عمره . فلم يشعر قط أنه ذهب إلى تلك البلاد وهو فى هذا السن الذى ذكرته الرواية . وهل أن بحيرى الراهب المسيحى الذى قابله النبى مع أبى بكر هو نفس الراهب الذى أشار إليه ابن هشام فى سيرته فى وقت رحلته مع عمه أبى طالب إلى بلاد الشام ؟ أم غيره ؟ [2] إن العلامة الحسن الندوى ينكر مقابلة بحيرى من أصلها - سواء أكان النبى مع عمه أم مع أبى بكر - مستنداً إلى أن الروايات لهذه القصة مرسلة ، وأن كل من روى هذه القصة من الصحابة إنما سمعها من غيره ولم يسمِّه . ومن رواة هذه الأحاديث عبد الرحمن بن غزوان وقد تكلم فيه أكثر أهل الصناعة وقالوا إنه كان يروى الأحاديث المنكرة [3] .

أخذ أبو بكر يجاهد بنفسه وماله فى سبيل نشر هذه الدعوة السامية بين الناس . فكان يبذل دون تردد فى سبيل الله . فكان يفتدى بماله الأسير والذى على عاتقه معاناة . وهو الذى أعتق الأرقاء من المسلمين ويعولهم . فكان إذا مر على أحد من العبيد يعذَّب بسبب إسلامه اشتراه وأعتقه ابتغاء وجه ربه الأعلى . وهذا يدل على تشبعه بمعانى العزة وحب الحرية وعلو الهمة . أخرج أبو داوود (قال) : أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً

---

(١) الحسين بن المبارك . التجريد الصريح ص ٢١٨ .

(٢) انظر القصة مفصلة فى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٣) السيرة النبوية ص ١١٧ .

فأنفقها في سبيل الله . قالت عائشة : إنه مات وما ترك ديناراً ولا درهماً (١) وأعتق سبعة كلهم يعذب في الله . أعتق عامرَ بن فهد وأم عبيس وزنيرة (٢) وجارية بني المؤمل (٣) والنهدية وابنتها (٤) . وكان أمية بن خلف من مشركي مكة يلقى بلالاً الحبشي في الرمضاء على وجهه وظهره إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتلقى على صدره ويقول : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول : أحد أحد ، ولم يزل على هذا حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه (٥) .

جـ - بطائق أخرى في سجل الجهاد الإسلامي :

إن هذا السجل المتوافق كان حافلاً بجلائل الأعمال . فها هو الصديق الذي لم يكن أسبق المؤمنين إسلاما وأسرعهم إلى البذل والسخاء ، فقط ، وإنما كان متفرداً إلى نجدة النبي ﷺ - في مواقف الخطر وساعات الشدة التي تختبر فيها المعادن النفيسة التي تزيدها النيران لمعاناً وبريقاً ، إن حب أبي بكر للنبي أمر لا شك فيه . بل كان هذا الحب ينمو مع الأيام ويزدهر ويجد له مكاناً في حنايا صدره . وهو الأمر الذي جعل أبا بكر يدفع أذى الجبابرة والصناديد الذين كرسوا جهدهم في محاولة إطفاء نور الإسلام . إن

---

(١) سنن أبي داوود المجلد الرابع ص ١٧٢ .

(٢) قيل إنه قد أصيب بصرها حين أعتقها . فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى فقالت كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان . فرد الله بصرها .

(٣) هذه الجارية كان عمر بن الخطاب يضربها - قبل إسلامه - حتى إذا مل . قال إني اعتذر إليك إني لم أتركك إلا ملالة . فتقول : كذلك فعل الله بك . فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

(٤) كانتا لامرأة من بني عبد الدار فمر بهما أبو بكر وقد بعثتهما هذه السيدة بطحين لها وهي تقول والله لا أعتقكما أبداً . فقال الصديق : حل يا أم فلان . فقالت : حل أنت أنسدتهما فأعتقهما . قال : فبكم ؟ قالت بكذا وكذا . فدفع كل ثمنهما وجعلهما حرتان .

(٥) ابن حجر . الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٢ ص ٣٤٤ .

التاريخ لن يغفل دور الصدِّيق فى الدفاع عن النبى ﷺ حيث كان يعرِّض حياته للخطر الذى يصل إلى الموت . فكثيراً ما كان يحول بين الكفار وصاحب الدعوة الهادية . من ذلك أنه قد اجتمعت قريش تريد قتل النبى فلم يغثه يومئذ إلا أبا بكر الذى أسرع إلى المسجد فدخله فوجد رسول الله ﷺ والناس مجتمعون عليه . فقال ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ والله إنه لرسول الله . فلهوا عنه وأقبلوا على أبى بكر يضربونه . قالت أسماء (١) : فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه . وهو يقول : تباركت يا ذا الجلال والإكرام (٢) .

إن الإيمان بالله وبرسوله يجعل هذا الصحابى أحرص الناس على حياة المصطفى وشدة تمكن دعوته بين القوم وارتفاعه بهذا الإيمان إلى الدرجة التى جعلته يفتدى نفسه بحبيبه ﷺ فى ساعات العسرة والشدة ليربط الله به على قلبه . أخرج الحافظ أبو الحسن الطرابلسى : عن عائشة (قالت) : « لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ (٣) على رسول الله فى الظهور . فقال يا أبا بكر : إنا قليل . فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته وقام أبو بكر فى الناس خطيباً ورسول الله جالس . فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين فضربوا فى نواحى المسجد

---

(١) فى رواية أخرى عن أسماء : كان المشركون قعودا فى المسجد الحرام فتذكروا رسول الله ﷺ وما يقوله فى آلهتهم . فبينما هم كذلك إذ دخل صلوات الله وسلامه عليه المسجد ، فقاموا إليه . وكانوا إذا سألوه عن شئ صدقهم فقالوا ألست تقول فى آلهتنا كذا وكذا ؟ قال : بلى . نتشبثوا به بأجمعهم . فأتى الصريخ إلى أبى بكر فقيل له : أدرك صاحبك . فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد الرسول ﷺ والناس مجتمعون عليه فقال : ويلكم . أتقتلون رجلاً إلخ إلخ . أسد الغابة جـ ٢ ص ٧٨ .

(٢) ابن عبد البر الاستيعاب جـ ٢ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٣) كانوا ثمانية وثلاثين رجلاً فيهم أبو بكر .

ضرباً شديداً ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً ودنا منه عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما وجهه . ووثب على بطن أبى بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه . وجاء بنو تميم يتعادون فأجلت المشركين عن أبى بكر . وحملت بنو تميم أبو بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكّون فى موته ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة . فرجعوا إلى أبى بكر فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب آخر النهار . فقال : ما فعل رسول الله ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه - أم الخير - انظرى إن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه . فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله ما لى علم بصاحبك . فقال : اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أمَّ جميل . فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله . فقالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك . قالت : نعم . فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً . فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا منك لأهلُ فسق وكفر وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله ؟ قالت هذه أمك تسمع ! قال فلا شئ عليك منها . قالت : سالم صالح . قال أين هو؟ قالت فى دار الأرقم . قال : فإن لله علىَّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتى رسول الله ﷺ . فأمهلتا حتى هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ قال : فأكب عليه رسول الله فقبله ، وأكب عليه المسلمون ، ورقَّ له رسول الله رقة شديدة . فقال أبو بكر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ليس بى بأس إن نال الفاسق من وجهى ، وهذه أمى بَرَّة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار . قال :

فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله . فأسلمت . فأقاموا مع الرسول فى الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون نفراً (١) .

وعندما أسرى الرسول الكريم ﷺ إلى بيت المقدس فى الرحلة المباركة وأخبر قومة بأسرارها وما تم فيها سخر المشركون من تلك الأخبار التى مؤداها أنه صلى بالأنبياء والمرسلين إماماً ثم عرج به إلى الملأ الأعلى وقد تم ذلك كله فى ليلة واحدة ! فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البين - العجيب - والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرا مقبلة فيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟! قالوا : فارتد كثير ممن كان أسلم (٢) قد أدخل هؤلاء الناس تلك الرحلة تحت المقاييس الزمنية والمسافات التى تقطعها الإبل أياماً طوالاً . وقد طلبوا أمارات تشهد على صدق قوله فذكر الكثير من ذلك كما طلبوا - خاصة وصف المسجد فصوره الله أمام ناظريه حتى وصفه وصفاً دقيقاً ، إلا أن هؤلاء المعاندين لم يزدادوا إلا سخرية به ، بل أمعنوا فى التكذيب - وهو أمر متوقع من فئة تتربص بكل ما جاء به من عند الله مؤيدة بالآيات والمعجزات - وسط هذا كله تبرز شخصية أبو بكر المؤمن الواثق الذى ما أن أتته الأنباء بقصة الإسراء حتى صدّق النبى فى كل ما أخبر به من أحداثها دون تردد أو تشكك (٣) بل عقب لمن قال له تلك الأنباء المصدقة عنده : « والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخير ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد

(١) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٣٨ ، تاريخ ابن عساكر جـ ٢ ص ٧٨ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤ - ٥ .

(٣) إن أبا بكر يعلم يقيناً مكانة محمد ﷺ عند ربه وأن الإسراء معجزة بالغة خارقة للعادة وقد أمده بقوة لا يصل إلى إدراكها تلك العقول القرشية الخاوية ولا تطمئن إليها أبداً تلك القلوب المتحجرة . وغاية القول أن النبى ﷺ قد أحيط بقدرة لا حدود لها ولا غاية لمنتهاها » الحسين بن المبارك التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ص ٣٠٥ .

مما تتعجبون منه [١] . ثم أتى أبو بكر حتى انتهى إلى الرسول ﷺ فقال : يا نبى الله احدَّثتَ هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال نعم قال يا نبى الله فصفه لى فإنى قد جئته . (قال الحسن) فقال رسول الله ﷺ : فرُفع لى حتى نظرت إليه . فجعل النبى يصفه لأبى بكر وأبو بكر يقول - صدقت أشهد أنك رسول الله - كلما وصف له منه شيئاً قال صدقت أشهد أنك رسول الله (قال) حتى انتهى فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : أنت يا أبا بكر الصديق . فيومئذ سماه الصديق [٢] .

وعندما رأى المصطفى أن صناديد الشرك قد أمعنوا فى ظلم أصحابه وتباروا فى التنكيل بهم وتمادوا فى تعذيبهم بصورة لم تألفها النفوس الأبية من قبل ، ورأى بعد إعمال النظر أنه فى تلك الظروف غير قادر على أن يمنعهم لما هم فيه من بلاء وقسوة . فاختار لهم بلدا بعيداً لا يتعرض لهم فيها أحد بإيذاء . فأشار عليهم أن يهاجروا إلى بلاد الحبشة وقال لهم « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فيها فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » وكانت تلك الهجرة فى شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة المحمدية [٣] وقد خرج إليها أكثر من ثمانين رجلاً وامرأة . وقد تجهز الصديق للهجرة إليها ضمن تلك المجموعات التى كان على رأسها عثمان وجعفر والزبير وابن مظعون إلا أن ابن الدغنة - سيد الأحابيش - أقنعه بالبقاء وهو فى الطريق عند برك الغمار [٤] أخرج البخارى عن عائشة « أن ابن الدغنة [٥] لما لقيه قال

---

(١) ابن كثير السيرة النبوية جـ ٢ ص ٩٦ . (٢) ابن حجر فتح البارى جـ ٧ ص ١٨٨ .

(٣) ابن كثير السيرة جـ ٢ ص ٨١ .

(٤) مكان يبعد عن مكة مسافة يوم فى السير المعتاد على الإبل .

(٥) وقيل ابن الدغنه بتثليث .

له : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومى وآذونى وضيَّقوا عليَّ فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى . قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج إنك تُكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكَلَّ ، فإنى لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك . فرجع وارتحل معه ابن الدغنة . فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا يخرج أتُخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق . لم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر ، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره . ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن (١) حتى جاءت عليه نساء قريش وأبناؤهم - يتقاذفون عليه (٢) وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بَكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن . وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إليه ابن الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجزنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فله أن يرد عليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك (٣) ولسنا مقرِّين لأبى بكر الاستعلان . قالت عائشة : « فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال : قد علمتَ الذى عاهدتُ لك عليه ؛ فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلىَّ ذمتى فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له . فقال أبو بكر : فإنى أردُّ إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل (٤) .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٩٦ .
(٢) أى يتزاحمون على باب ذلك المسجد .
(٣) أى نقض العهد .
(٤) صحيح البخارى باب الهجرة ص ٥٥٢ .

وأخذ الصدّيق يواظب على صحبة المصطفى بعد أن رد جوار ابن الدغنة سيد الأحابيش (١) متحملاً كل ما يلقاه من عنت أو ظلم فى إيمان الواثق بأن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرا . فحينما رفع عن كاهله هذا الجوار الذى بعد عنه عتو الجبابرة واعتداءاتهم عادت قريش إلى سابق عهدها ، من ذلك أن سفيها من سفهاء قريش - كما قال ابن إسحق - لقيه وهو عامد إلى الكعبة فحثا على رأس أبى بكر التراب ، فمرَّ بأبى بكر العاصُ بن وائل (٢) فقال له أبو بكر : ألا ترى ما يضع هذا السفيه ؟ قال : أنت فعلت ذلك بنفسك ، فانصرف أبو بكر وهو يقول : إى رب إى رب ما أحلمك إى رب ما أحلمك ! يكررها ثلاثاً (٣) .

يقول العلامة ابن حجر معقباً على موقف أبى بكر فى تلك الحقبة الغالية . وعدها من أعظم مناقبه لأن ابن الدغنة - سيد القاره لما رد إليه جواره بمكة وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبى ﷺ لما بعث ، فتوارد فيهما على نعت واحد من غير أن يتواطأ على ذلك ، وهذا غاية فى مدح الصديق ؛ لأن صفات النبى ﷺ منذ نشأ كانت أكمل الصفات (٤) .

* * *

---

(١) الأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناه . والهون بن خزيمة بن مدركة . وبنو المصطلق بن خزاعة تحالفوا جميعاً بواد اسمه الأحابيش فى أسفل مكة ، فسموا الأحابيش .

(٢) وقيل الوليد بن المغيره .

(٣) ابن كثير - البداية والنهاية جـ ٣ ص ٩٥ .

(٤) الإصابة جـ ٢ ص ٣٤٤ .

الفصل الثانى
الهجرة إلى المدينة

• ترتيب أمر الهجرة :

ومن المواقف المشهودة للصديق ذلك الحديث العظيم الذى كلل بالهجرة الميمونة إلى يثرب المدينة مع الرسول ﷺ ، وذلك حينما أحدق الخطر بصاحب الدعوة وقت أن اجتمع زعماء قريش للتخلص منه والقضاء على ما ينادى به ، وتآمروا على قتله فى دار الندوة للتشاور فى هذا الأمر الجلل . خاصة بعد ما عرفوا تحالفه مع أتباعه الجدد من بنى النجار وعبد الأشهل الذين أتوا إليه وعاقدوه وعاهدوه على أن يمنعوه مما يمنعون به أنفسهم وذراريهم [1] . أخرج الطبرانى عن عروة (قال) : مكث رسول الله ﷺ بعد الحج من السنة الثانية عشر من البعثة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر من السنة الثالثة عشر ، ثم أن مشركى قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج وعلموا أن الله قد جعل بالمدينة مأوى ومنعة ، وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين [2] فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله بعد ما يتيقنوا أنه لن يظل بمكة كما حدث عندما هاجر أصحابه إلى الحبشة من قبل . فأشار بعض المجتمعين بحبسه ، وبعضهم بقتله ، ومنهم من نادى بنفيه ، وآخرون أيدوا قيده فى الحديد . وانتهى الرأى الذى صادف إجماعهم إلى أن تأخذ كل قبيلة منها فتى جلداً ، وأن يعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً فيضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٩٩ .

(٢) الخزرجى خلاصة تذهيب الكمال ص ٢٢١ .

يتفرق دمه على القبائل فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً (١) وقد فضح المولى اجتماع أهل الشرك وكشف مؤامرتهم ﴿ إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٢) .

ولما أحدق الخطر بالرسول لم يفكر إلا فى الصديق أبى بكر فسعى إلى داره يشاوره فى ذلك الأمر الخطير ويطلعه على ما أخبره الله به من تآمر قريش به ، ودخل عليه فى وقت لم يكن له عادة أن يذهب إليه فيه ، فلاقاه الصديق (٣) . تقول عائشة : أتانا رسول الله بالهاجرة (٤) فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء بك يا رسول الله ؟ وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر . فقال رسول الله : أخرج عنى مَن عندك . قال : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاى وما ذلك فداك أبى وأمى ؟ قال إن الله قد أذن لى فى الهجرة والخروج . فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله . فقال الرسول : الصحبة . فبكى أبو بكر من الفرح (٥) .

ومكث الرسول فى منزل أبى بكر إلى الليل ، ويبقى الصاحب الكريم يوالى حديثه فى إعداد أمر الهجرة قال « يا نبى الله إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا ، فخذ بأبى أنت وأمى إحداهما . فقال الرسول : بالثمن . وكان أبو بكر قد اشتراهما بثمانمائة درهم من نعيم بن قشير . فأخذ الرسول ﷺ إحداهما وهى القصواء (٦) .

وقد طلب الصدِّيق من النبى أن يصحبه فى تلك الرحلة وألح عليه فى ذلك على الرغم من معرفته للمصاعب التى يمكن أن يلاقيها قبل أن يصل

---

(١) تفاصيل اجتماع المشركين فى دار الندوة فى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) سورة الأنفال آية ٣٠ .

(٣) ابن ظفر . أنباء نجباء الأبناء ص ٢٠٧ .

(٤) الهاجرة : وقت الظهيرة .

(٥) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٠١ .

(٦) ابن سعد - الطبقات جـ ٢ ص ١٢٨ .

إلى أرض الهجرة . ولكنها التضحية والفداء في سبيل رفعة شأن الدعوة التى آمن بها . يقول ابن كثير « أرسل أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أميناً مؤتمناً حسن الإسلام . فاستأجر رجلاً من بنى عبد بن عدى يقال له ابن أريقط كان حليفاً لقريش فى بنى سهم من بنى العاص بن وائل وكان مشركاً ليكون هادى الطريق . فخبأ الليالى الثلاث . فلما مضى من صفر ثلاثة صفر سنة ثلاث عشرة من البعثة والزمان حينئذ حَرٌ يشبه حر الصيف فى يوم الاثنين . خرج الرسول وصحبه من فجوة لأبى بكر فى ظهر بيته ومضيا حتى دخلا غار ثور . وقد ظلا به مدة ثلاث ليال حتى يخف الطلب عنهما . وكان عبد الله بن أبى بكر يأتيهما حين يمسى بكل خبر يكون فى مكة ، ويريح عليهما عامر بن فهيرة الغنم فى كل ليلة فيحلبان ويذبحان ثم يسرح بكرة فيصبح فى رعيان الناس ولا يفطن له حتى إذا هدأت عنهم الأصوات واتاهما أن قد سكت عنهما . كما كانت أسماء ذات النطاقين تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما (١) .

ومما يدل على فداء أبى بكر وحرصه على ذات المصطفى ﷺ ومحافظته إياها من أن يلحق بها سوءٌ ، من ذلك ما يقوله الحسن البصرى (قال) انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر قبل رسول الله ينتظر فيه سبع أو حية يقى رسول الله ﷺ بنفسه (٢) وتقول الرواية الأخرى فى هذا « السبيل » : إن أبا بكر وجد بالغار أجحاراً متعددة فصار يقطع ثوبه ويسدّها به ويقى جحر لم تبق له فضلة من الثوب فسدَّه بعقبه (٣) ثم نام الرسول ووضع رأسه على حجر أبى بكر ، وفى خلال ذلك لدغت حية أبا بكر فصار يتجلد حتى لا يوقظ النبى ﷺ وسقطت دموعه على وجه

---

(١) السيرة جـ ٣ ص ١٠٤ ، وقد قيل إن السيدة أسماء قد نسيت أن تجعل لسفرتها عاصماً فشقت نطاقها وعلقته به فلذلك سميت ذات النطاقين ، ابن هشام جـ ١ ص ١٠٠ .

(٢) شرح صحيح مسلم لشرف النووى ص ١٨٨ .

(٣) بقدميه .

الرسول فاستيقظ فقال : مالك ؟ قال : لدغت . فتفل على موضع الألم فذهب ما يجده . فلما أصبح سأله عن ثوبه فأخبره الخبر فدعا له النبى وقال : اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى فى الجنة . فنودى : إنه قد استجيب لك (١) .

ومع كل التدابير المحكمة فإن المعاندين من قريش قد وصلوا إلى فم الغار والرسول وصاحبه داخله ، وكانت قريش قد رصدت مائة ناقة لمن يردُّ عليهم النبى ، ولذلك ازدادت العيون والمراصد واشتعل الحماس والترقب فى نفوس العديد من الانتهازيين الذين يريدون الفوز بهذه المكافأة . وكان هناك قائفان يرصدان أثر النبى وأبى بكر (٢) . فلما وصل أحدهما إلى الغار رأى نسج العنكبوت فى مدخل الغار قال : هنا انقطع الأثر . وأقبل المشركون فى أثار القائف يتبعونه حتى رأى أبو بكر أقدامهم فأدركه الخوف على رسول الله ﷺ وكان المصطفى قائماً يصلى ، وأبو بكر يرتقب . فقال أبو بكر للنبى : هؤلاء قومك يطلبونك أنا والله ما علىَّ من اثل - حزن - ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره . فقال له النبى ﷺ : يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا (٣) . وعن أنس بن مالك قال إن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصر ما تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ فأنزل الله سكينته على أبى بكر . كما قال الله تعالى فى قصة الهجرة فى أبى بكر : ﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ﴾ (٤) .

---

(١) ابن حجر - فتح البارى جـ ٥ ص ٣٧ .

(٢) الطائف هو الذى يتبع آثار الأقدام ليدل عليه .

(٣) فتح البارى جـ ٥ ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) سورة التوبة آية ٤٠ ، ابن عبد البر - الاستيعاب جـ ٢ ص ٢١٨ .

ثم خرجا من الغار تحوطهما عناية الله بعد أن سكن عنهما الطلب ، وحضر إليهما الدليل بالراحلتين (١) . واصطحب أبو بكر مولاه ابن فهيرة أردفه على راحلته ليخدمهما في الطريق . وكان أبو بكر رجلاً معروفا في الناس ، فإذا لقيه لاق فيقول لأبي بكر : من هذا معك ؟ يقصدون النبي على الراحلة الأخرى - فيقول : هاد يهديني - يريد الهدى في الدين ويحسبه الآخر دليلاً (٢) .

وقد انتظمت آيات الفخار بصدر النضار المعلقة على جيد الصدِّيق إبان رحلة الهجرة ضمن تاريخه الحافل بجلائل الأعمال . ويكفيه شهادة الثبت العادل « عمر بن الخطاب » الذي علم أثناء هيبته في خلافته أن رجلاً يفضله علىٰ أبي بكر . فانبرى الفاروق يعطي للتاريخ درساً للوفاء وكلمة الحق . قال عمر فيما أخرجه البيهقي « والله لَليلةٌ من أبي بكر خير من آل عمر ، ولَيومٌ من أبي بكر خير من آل عمرَ ، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن رسول الله ﷺ فقال : يا أبا بكر مالك تمشي ساعة خلفي وساعة بين يدي ؟ فقال يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك . فقال : يا أبا بكر لو كان شئ أحببتَ أن يكون بك دوني ؟ قال نعم والذي بعثك بالحق . فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يارسول الله حتى أستبرئ . فدخل فاستبرأ ثم قال : انزل يا رسول الله . فنزل . (قال عمر) : والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر (٣) .

وقد عرف المصطفى ﷺ لأبي بكر ما بذل في سبيل الله والمحافظة على حياته من تضحيات نادره فعبر عن إعجابه بصدق جهاد أبي بكر في

---

(١) خرج الركب على رواحل ثلاث : النبي ﷺ على راحلته التي أصر على شرائها من أبي بكر قبل أن يعتليها وأبو بكر ومولاه عامر بن فهيره على الراحلة الشافيه والدليل على راحلته ، وسار بهما الدليل على الساحل أو بالقرب منه من طريق غير مطروقة حتى يبتعد عن أنظار قريش .

(٢) ابن كثير السيرة جـ ٣ ص ١٠٦ .

(٣) البداية والنهاية جـ ٣ ص ١٨٠ .

هذه العبارة النورانية التى قالها له وهما فى الغار : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » وأى شرف يدانى أن يكون الصديق ثالث اثنين قبله : أحدهما رب العالمين وثانيهما المبعوث رحمة للعالمين . فكان ذلك يضفى عليه خصائص التواضع وألوان السكينة اللتين هما من سيماء الصالحين . يروى أبو هريرة أن الرسول ﷺ قال : ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبو بكر ؛ فإن له يدا يكافئه الله عز وجل بها يوم القيامة . وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر . ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً وإن صاحبكم خليل الله (١) . وهو القائل : « رحم الله أبا بكر زوجنى ابنته ، وحملنى على ناقته إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالاً من ماله » (٢) .

● أبو بكر فى المدينة :

رأى الصدّيق تلك الحفاوة البالغة التى استقبل بها الأنصار رسول الله ﷺ ، إذ كان فى مقدمتهم خمسمائة من رجالهم ونفر من المهاجرين الذين سبقوهما إليها ، هذا غير الولائد والغلمان والأطفال ومن كن يتراءينه من النساء فوق أسطح المنازل . قال أبو بكر : خرج الناس حين قدمنا المدينة فى الطرق وعلى البيوت والغلمان يقولون الله أكبر جاء رسول الله الله أكبر جاء محمد (٣) . وعم التكبير كل الأرجاء ووقف الرسول تحت ظل نخلة ومعه أبو بكر فى مثل سنه . وكان أكثرهم لم ير رسول الله قبل ذلك وازدحم الناس ما يميزون بينه وبين أبى بكر ، فطن لذلك أبى بكر فقام يظله بردائه ، فانكشف للناس الأمر (٤) . تقول روايات السير والسنن أن الرسول لما انتهى إلى « قباء » جلس عندها وأصحابه الأبرار حوله يغمرهم الفرح

---

(١) ابن عبد البر الاستيعاب جـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن الأثير أسد الغابة جـ ٣ ص ٨٩ .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٠٣ .

(٤) ابن سعد الطبقات الكبرى جـ ٣ ص ١٧٥ .

والسرور حتى أن العواتق فوق البيوت يتراءينه ويقلن أيهم هو ؟ أيهم هو ؟ وقام أبو بكر يذكر جماعة الأنصار التى أتت تسلم بما عاهدوا النبى وما أخذوه على أنفسهم من مواثيق عند العقبة (١) ثم نزل النبى ﷺ على دار « كلثوم بن هدم » وكان شيخاً كبيراً فلبث فى ضيافته ثم انتقل بعد ذلك إلى دار أبى أيوب الأنصارى قبل بناء المسجد النبوى وملحقاته . كما نزل أبو بكر على دار خارجة بن زيد بن زهير ، ولما استقر بأبى بكر المقام واطمأن إلى أن المدينة أصبحت دار هجرة بعث من يأتى بأهل النبى وأهل بيته . أخرج ابن عبد البر عن عائشة (قالت) لما هاجر رسول الله ﷺ خلّفنا وخلّف بناته ، فلما استقر بعث زيد بن حارثة وبعث معه أبا رافع - مولاه - وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذاها من أبى بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه . وبعث أبو بكر معهما عبدَ الله بن أريقط ببعيرين أو ثلاثة ، وكتب إلى عبد الله بن أبى بكر أن يحمل أمى أم رومان وأنا وأختى أسماء امرأة الزبير ابن العوام ، فخرجوا مصطحبين ، فلما انتهوا إلى قديد (٢) اشترى زيد بن حارثة بتلك الخمسمائة درهم ثلاثة أبعرة ثم دخلوا مكة جميعاً فصادفوا طلحة بن عبيد الله يريد الهجرة . فخرجوا جميعاً . وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعه . وحمل زيد أم أيمن وأسامة فقدمنا المدينة فنزلت مع آل أبى بكر (٣) . ولما استقرت الأوضاع وبدأت الأمور تتوضح فى الدولة الإسلامية الناشئة ويثرب ، أصبح أبو بكر الساعد الأيمن للنبى ﷺ فى جل الأمور وأخطرها ولذلك خص النبى أبا بكر بمزايا لم يتمتع بها أحد سواه . فكان الرسول يفاوض أصحابه ويشاورهم فى مهماته العامة والخاصة . ويخص مع ذلك أبا بكر

---

(١) ابن حجر الإصابة جـ ٢ ص ٣٤٦ .

(٢) موضع على الطريق بين المدينة ومكة .

(٣) الاستيعاب جـ ٢ ص ٢٥٠ .

بخصوصيات أخرى . وكان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره (١) .

وكان عمر بن الخطاب يقول « أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ (٢) يقول العقاد معلقاً : « وهذه حقيقة لو لم يؤيدها لسان المقال لأيدها ما يسمونه بلسان الحال . كان أبا بكر كان ألزم الناس للنبى وأعرفهم بسره وجهره وأقربهم إلى ثقته وحسن رأيه وإذا بلغ من شاب رجل أن يكون أحب الناس إلى النبى عليه السلام فهو أهل لحبه وأهل لثقته لا مراء لأن هذا الحب فى النفوس العظيمة قرين الثقة والتقدير لا يخلو منهما ولا ينفصل عنهما . فمن استحق منها الحب الراجح فقد استحق عندها الثقة الراجحة فى آن . فلم يكن حب النبى أبا بكر حب الرجل يجزى به من يحبه ويخلص له ويوليه الجميل من ذات نفسه وماله ولا مزيد » (٣) .

وقد شهد أبو بكر مع الرسول ﷺ المشاهد كلها بدراً وأحداً والخندق . وكانت راية النبى العظمى فى غزوة تبوك ، وكانت سوداء ، دفعها الرسول إلى أبى بكر . وكان فيمن ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حين ولى الناس (٤) ، وكان كذلك فيمن ثبت معه يوم حنين (٥) ، حين شدّت الكتائب وظهرت الكمائن من هوازن وثقيف فى الوادى وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فما كادت طلائع الجيش الإسلامى تنحطُّ فى مدخل وادى حنين حتى فوجئوا بالسهام تنحطُّ عليهم بالظلام من كل فج فما يدرون أمن السماء تأتى أم الأرض . فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولم يجدوا لهم بدا من الارتداد ، فارتدوا ، وكان انتقاصهم مفاجئاً وعلى غير انتظام . وفرّ العدد

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ١٢ - ٣١ .

(٢) أسد الغابة جـ ٣ ص ٨٣

(٣) عبقرية الصديق ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٤) ابن سعد الطبقات جـ ٣ ص ١٧٦ .

(٥) تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ١٥٣

الكثيف إلا أنه بقي مع الرسول نفر قليل من المهاجرين والأنصار وأهل بيته في مقدمتهم أبو بكر الذي تواثب حتى وصل إلى مكان النبي بعد أن ترك بعيره لما وجد أنه قد أعاقه من تدافع الناس وأسرع رجلاً ومعه سيفه وترسه وجعل هو والعباس يأمران الناس بالثبات وحرب الأعداء فشدوا عليهم وهزموهم . فكان نصرا بعد هزيمة وفوزا بعد بلاء كل ذلك شهده أبو بكر وعاش الموقف كله (١) أما في بدر فحين وافى الخبرُ رسولَ الله ﷺ بمسير قريش ليمنعوا عيرهم استشار الناسَ وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر فقال وأحسن . وحينما وقف النبي ﷺ في العريش يدعو ويستنجز اللهَ وعدَه بالنصر لم يكن معه فيه غير أبي بكر الذي قال لنبيه : يا نبي الله بعض مناشدتك ربك فإن الله منجز لك ما وعدك . وقد أخذت الرسول ﷺ سنة من النوم وهو في العريش ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثنايا البقيع (٢) .

أما موقف الصديق من أسرى بدر فهو الموقف الذي لا يخرج عن حدود المروءة والرحمة عسى الله أن يجعل منهم لهذا الدين أعوانا وبصراء . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أنه لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ قال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم . وقال عمر : يا رسول الله أخرجوك وكذّبوك قربهم واضرب أعناقهم . (قال) فدخل رسول الله ولم يردّ عليهما شيئاً . فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر . فخرج عليهم فقال : إن الله ليُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللين ، وإن اللهَ ليشدُّ قلوبُ رجال فيه حتى تكونَ أشدَّ من الحجارة (٣) .

ثم ضرب الرسول لأبي بكر في رفقه ولينه المثل لميكائيل من الملائكة المكرمين ينزل معه الخير والنعمات ، ويضرب به في الرحمة مثالاً من الأنبياء

---

(١) راجع تاريخ اليعقوبي جـ ١ ص ١٥٤ .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) ابن حجر الإصابة جـ ٢ ص ٣٧٦ .

بإبراهيم عليه السلام حين قال لقومه ﴿ من تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ (١) . وبعيسى ابن مريم الذى قال لربه ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (٢) ، ومال النبى ﷺ إلى رأى الصدِّيق لأن الرحمة من أمهات الفضائل التى تحبها كل القلوب . فقبل منهم الفداء إلا أن الله جلت قدرته قد عاتب النبى لقبوله الفداء وآثره على الاثخان فى قتل هذا العدو (وهو رأى عمر) الذى لا يصلحه سوى العنف والقسوة فقال تعالى : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ (٣) يقول الرواة : إن الرسول بكى وبكى معه أبو بكر فور تلك المعاتبة . وفى ضميريهما أن الخالق غفور رحيم . وكان يخفف عن الصدِّيق وطأة الحزن ما كان يملأ أذنيه من إشادة المصطفى ﷺ بمواقفه والتى ينقلها له أصحابه . فعن أبى الدرداء أن رسول الله ﷺ قال « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبى بكر إلا أن يكون منى » ، وعن جابر قال : كنا عند النبى ﷺ فقال : « يطلع عليكم رجل لم يخلق الله بعدى أحد أخير منه ولا أفضل وله شفاعة مثل شفاعة النبيين » فما برحنا حتى طلع أبو بكر فقام النبى ﷺ فقبله والتزمه . وعن أنس قال : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر » (٤) .

أما عن شجاعته وفروسيته وإسهاماته المادية فى مجالات الحرب والنزال فنجد أن تلك الشخصية الهينة اللينة التى يتسم بها الصدِّيق تستحيل إلى قوة ماثلة فى الجلاد والصبر والثبات والعطاء يتجلى ذلك فى مواقفه من أعداء الإسلام الذين كانت آمالهم منعقدة على القضاء عليه ، فأبرز ما نقلته

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٦ . (٢) سورة المائدة آية ١١٨ .

(٣) سورة الأنفال آية ٦٧ ، ٦٨ ، تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٤ .

(٤) ابن حجر الإصابة جـ ٢ ص ٣٧٧ .

الروايات فى هذا السبيل يومى بدر وتبوك . ففى اليوم الأول حينما حمى الوطيس واستبق المجاهدون فى الإجهاز على المشركين فانشغلوا عن الرسول ﷺ إلا الصدِّيق فإنه كان أقرب المحاربين إلى جواره يقول على بن أبى طالب الذى نقل عنه أنه بينما كان يجالس جماً من أصحابه فى مسجد الكوفة يتذاكرون مواقف الإسلام الأولى فسألهم : من أشجع الناس ؟ قالوا أنت يا أمير المؤمنين . قال على - الذى تربى على الفروسية ويعرف للناس أقدارهم : أما أنا ما بارزنى أحد إلا انتصفت منه ولكن هو أبو بكر رضى الله عنه ؛ إنا جعلنا لرسول الله عريشاً فقلنا من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوى أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ : لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه ، فهذا أشجع الناس » (١) .

أما يوم تبوك فقد ضرب الرسول ﷺ عسكره على ثنية الوداع واستخلف أبا بكر يصلى بالناس ، وعقد الألوية والرايات فدفع لواءه إلى أبى بكر وأمر كل بطن من الأنصار وقبائل العرب أن يتخذوا لواء أو راية ، وخرج المسلمون فى شهر رجب من السنة التاسعة قاصدين بلاد الشام لمحاربة الروم وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب . وقد قاسى الصحابة من هذه السفرة مشقة وعبئاً كبيراً فقد اجتمع فيها إلى أبعد من المشقة وشدة الحر جهد الحال وشح المئونة وقلة الظهر (٢) حتى سماها الله تعالى « ساعة العسرة » وقد حض النبى ﷺ فى هذا الوقت أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله . فحمل أبو بكر من المال وأحسن ، وكان أول من بادر بذلك ، حيث وضع أمام النبى ﷺ ماله كله : أربعة آلاف درهم (٣) . وأخرج أبو داوود عن عمر بن الخطاب : أمرنا

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢٧١ . (٢) الدواب .

(٣) ابن سعد الطبقات جـ ٢ ص ١٣ .

رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالاً عندى ، قلت : اليوم أسبق أبا بكر - إن سبقته يوماً - فجئت بنصف مالى ، فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فقلت : لا أسبقه فى شئ أبداً (١) .

أما فى صلح الحديبية الذى اعتبر فتحا مبيناً حيث مهد للفتح الأعظم بمكة فقد رأى النبى ﷺ فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت العتيق . فأخبر أصحابه بذلك ، وهو بالمدينة ، فاستبشروا به . وكان المهاجرون أشدهم حنينا إلى مكة - الموطن الأصلى - وكانت الفرصة مواتية والظروف كلها مهيأة لهذه الزيارة ، ولعل قريشا قد لانت عريكتها وخففت غلوائها فى عداوة الإسلام . وأقام الرسول ﷺ وأصحابه بالحديبية بظاهر مكة وهو متمسك بالسلام ، إلا أن قريشاً قد غلبتها حميةُ الجاهلية وصممت على عدم دخول المسلمين مكة مهما كان الأمر . ولكن الرسولَ لم يكن راغبا قط فى قتال ، وكان حريصاً على أن يجعل رحلته هذه سلمية خالصة وأعلن أنه جاء حاجاً لا غازيا وتبادل مع قريش الرسل وانتهى حبل المصالحة إلى عقد هدنة (٢) ليس هذا مكان سردها ، وملخصها الشديد أن يرجع الرسول مع أصحابه هذا العام ويحج فى العام القادم إلا أن نصوص هذا العقد لم يرق للعديد من الصحابة وكانت مثار غضبهم فى مقدمتهم عمر بن الخطاب . فقد ظنوا فى إبرامه بالصورة التى خرجت به إعطاء للدنية فى دينهم ، أما أبو بكر فآمن وصدّق بحكمة الرسول ﷺ وبعد نظره السياسى . تقول أسفار السير المعتبرة : كره المسلمون هذا الصلح وبرموا به وداخلهم منه أمر عظيم حتى جعلوا يتساءلون فى دهشة : أنرد إلى الكفار من جاءنا مسلماً ونرجع

---

(١) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٤٠ .

(٢) تفاصيل الصلح تجدها فى سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٥٥ - ٣٥٨ .

عن البيت وقد وعدنا أن نطوف به ؟ وحتى وثب عمر بن الخطاب إلى أبي بكر يقول له : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ قال أبو بكر أيها الرجل إنه لرسول الله ولن نعصى رأيه ، فاستمسك بغرزه (١) حتى تموت فوالله إنه لعلى الحق (٢) .

ولقد صدقت فراسه المصطفى ﷺ وتكاملت أركان حب الصدّيق وشدة إيمانه بوعد الله على الرغم مما دخل على الناس من أمرهذا الصلح من الكدر والحزن . وفي طريق العودة أنزل الله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفرَ لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ (٣) قال عمر : أوَ فتحٌ هو يا رسول الله ؟ قال نعم (٤) .

أخرج ابن عساكر قال « كان أبو بكر الصدّيق يقول : ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية ، ولكن الناس يومئذ قصر رأسهم عما كان بين محمد ورب العباد ؛ يعجلون والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد . لقد نظرتُ إلى سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب إلى رسول الله بدنة ورسول الله ﷺ نحرها بيده ودعا الحلاق فحلق رأسه وانظر إلى سهيل يلتقط من شعره وأراه يضمه إلى عينيه ، وأذكر إباءه أن يقرَّ يوم الحديبية بأن يكتب باسم الرحمن الرحيم ، ويأبى أن يكتب محمد رسول الله ﷺ فحمدت الله الذى هداه للإسلام (٥) .

---

(١) استمسك بغرزه : لا تحد عن طريقه .

(٢) ابن هشام السيرة النبوية جـ ٣ ص ٣٦٥ ، ابن كثير السيرة جـ ٣ ص ١٣٢ .

(٣) سورة الفتح آيات ١ ، ٢ ، ٣ . (٤) ابن كثير المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٥) علاء الدين المتقى كنز العمال جـ ٥ ص ٢٨٦ .

وقد جعل الرسول ﷺ أبا بكر أميرا على الحج وذلك حينما أذن الخالق أن يتم المسلمون جميع فروض هذا الدين . لكن تتابع الوفود الآتية إلى يثرب لم تتح للرسول ﷺ أن يغادر المدينة إلى مكة لذلك أمر أبا بكر أن يحج بالمسلمين الراغبين فى تلك الفريضة . فخرج الصدِّيق - نائبا عن النبى - فى ثلاثمائة من الصحابة سعوا وطافوا وأتموا المشاعر كلها آمنين ، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة . ونزلت « براءة » (*) على رسول الله ﷺ فدعا على بن أبى طالب فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته ، فخرج علىٌّ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، قال : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور . ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس بالحج حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن بالناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ (١) .

● بدائع من ثقافة الصدِّيق :

زان اللهُ أبا بكر بعقل راجح وذاكرة قوية وميل إلى الاجتهاد الصائب . فكان فصيحاً بليغاً خطيباً مفوهاً حاضر البديهه قوى الحجة شديد التأثير .

فكان أقرب الصحابة إلى النبى ﷺ وألزمهم له فى نهاره وليله ، ومع استمرار تلك الملازمة إلا أن الصدِّيق لم يرو من الأحاديث النبوية إلا نيفا وأربعين حديثاً لم يتجاوزهم (٢) وقيل فى تعليل ذلك أنه رضى الله عنه مات قبل تدوين الأحاديث (٣) وكان الصدِّيق أول من لقب بشيخ الإسلام

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

(*) أى سورة التوبة .

(٢) النووى ، تهذيب الأسماء جـ ٢ ص ١٨٣ = وقد أورد السيوطى ما يزيد عن مائة حديث من رواية أبى بكر فروى عنه عمر وعثمان وعلى وابن عوف وابن مسعود وحذيفة وابن عمر وابن الزبير وابن عمر وابن عباس والبراء وأبو هريرة وابن ثابت . تاريخ الخلفاء ص ٥٨ ، ٦٥ .

(٣) الشيبانى . تيسير الوصول ص ٢١٢ .

حيث حوّل إليه الرسول الكثير من الفتاوى وبعض القضايا ، وعهد إليه فى حياته الكثير مما يقوله القضاء . قال أبو إسحق : إن أبا بكر أعلم الصحابة لأنهم كلهم وقفوا عن فهم الحكم فى المسائل إلا هو . ثم ظهر نهم بمباحثته لهم أن قوله هو الصواب فرجعوا إليه (١) وقد سئل ابن عمر : من كان يفتى الناس زمن رسول الله ﷺ ؟ فقال : أبو بكر وعمر ما أعلم غيرهما . وعن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ « لا ينبغى لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره (٢) .

وكان الصدِّيق أكمل الصحابة دراية وأتمهم ثقافة . تلك الثقافة التى ساعدته فىَ الإلمام بالحقائق التى سدَّدت خطواته على طريق القضايا والفتاوى التى تصدَّى لها . أخرج أبو القاسم « أن أبا بكر إذا ورد عليه الخصم نظر فى كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضى به بينهم قضى به . وإن لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ فى ذلك الأمر سنة قضى بها ، فإن أعياه خرج يسأل المسلمين وقال : أتانى كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فى ذلك بقضاء ؟ فيقول أبو بكر الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا . فإن أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله جمع رؤوس الناس وخيارهم فاستشارهم . فإن أجمع أمرهم على رأى قضى به . وكان عمر يفعل ذلك ، فإن أعياه أن يجد فى القرآن والسنة ، نظر هل كان لأبى بكر فيه قضاء . فإن وجد فيه قضاء قضى به (٣) . وعن معاذ بن جبل « أن النبى ﷺ لما أراد أن يسرح معاذ إلى اليمن استشار ناساً من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وطلحة والزبير وأسيد بن حضير فتكلم القوم كل إنسان برأيه فقال : ما ترى يا معاذ ؟ قلت : أرى ما قال

---

(١) المحب الطبرى الرياض النضره جـ ٢ ص ١١٣ . (٢) المرجع السابق ص ١١٣ .

(٣) ابن عبد البر الاستيعاب جـ ٢ ص ٤٥٢ .

أبو بكر . فقال النبى ﷺ : إن الله يكره فى السماء أن يُخَطَّأ أبو بكر فى الأرض » [1] .

إن منهاج الشريعة الإسلامية التى يُعَدُّ الصدِّيق أحد أعلامها الكبار كانت إحدى قواعدها المقررة ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا ﴾ [2] والمراد بالحكمة هنا العلم الذى هو أسمى النعم وأرفعها قدراً . ومن هذا المنطلق عرف أبو بكر الكثير من مسائل الأحساب والأنساب وتعبير الرؤيا « فلم يختلف عليه بأنه كان أعلم الناس بأنساب العرب وكان جبير بن مطعم قد أخذ فهم تسلسل النسب العربى من أبى بكر الذى كان أيضا غاية فى علم تعبير الرؤيا . وقد كان معبر الرؤيا فى زمن النبى ﷺ . وقد قال محمد بن سيرين [3] : إن أبا بكر أعبر هذه الأمة بعد النبى ﷺ [4] .

أما عن طلاقة اللسان وفصاحة التعبير وإدراك كنه الأسرار الكامنة فى تلك اللغة التى ملك زمامها ، فعُدَّ كلام هذا الصحابى الجليل أبى بكر من أرجح ما قيل فى موازين الكلام سواء فى ذلك موازين البلاغة أو موازين الخلق والحكمة « وله من جوامع الكلم أمثلة نادرة تدل الواحدة على ملكة صاحبها فيغنى القليل منها عن الكثير . فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة كقوله : إحرص على الموت توهب لك الحياة . أو كقوله : « أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة » أو قوله . « خير الخصلتين أبغضهما إليك » أو قوله « الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله . أو قوله : « إذا فاتك خير فأدركه وإن أدركك فاسبقه »

---

(١) السيوطى مرجع سابق ص ٤٤٥ .
(٢) سورة البقرة آية ٣٦٨ .
(٣) محمد بن سيرين كان مقدما فى هذا العلم باتفاق .
(٤) ابن سعد الطبقات جـ ٢ ص ١٧٤ .

أو قوله « لا تُخزن عن المشير خبرك فيؤتى من قبل نفسك » أو قوله « ليس مع العزاء مصيبة » . فهى وما أثر عنه من أمثالها كلمات تتسم بالقصد والسداد كما تتسم بالبلاغة وحسن التعبير وتنبئ عن المعدن الذى نجمت منه فتغنى عن علامات التثقيف التى يستكثر منها المستكثرون لأن هذا الفهم الأصيل هو اللباب المقصود من التثقيف (١) .

● مرض الرسول :

فى السنة العاشرة من الهجرة حج رسول الله ﷺ حجة الوداع وحج أبو بكر معه . ولم يطل مقام النبى بالمدينة بعد عودته من الحج حتى أمر بتجهيز جيش على رأسه أسامة بن زيد ليذهب به إلى الشام جعل فيه المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر . وعسكر هذا الجيش الكبير فى الجرف ، وقد علموا أن رسول الله ﷺ قد مرض فتوقف زحفهم لأن المرض اشتد بالنبى شدة أثارت مخاوف الناس عليه (٢) ولما ثقل المرض بالنبى ﷺ أمر أن يصلى أبو بكر بالناس فى مسجده وذلك أنه ﷺ رقى المنبر يوما من أواخر صفر سنة ١١ هـ (٣) « وخطب فيهم فى أمر ما تحدثوا به من الطعن فى إمارة أسامة بن زيد على الجيش واستغفر الله وأكثر من الدعاء لأصحاب أحد ثم قال « أن عبداً من عباد الله خيَّره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله » ففهمها أبو بكر وعلم أن رسول الله إنما يريد نفسه وأن منيته قد حانت ، فبكى وقال : بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا ، فقال على رسلك يا أبا بكر » ثم قال « انظروا هذه الأبواب اللافظة فى المسجد فسدُّوها إلا بيت أبى بكر فإنى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة يدا منه » ثم قال : « وإنى لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر

---

(١) العقاد عبقرية الصدِّيق ص ١٧١ . (٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٢٢ .

(٣) الموافق مايو سنة ٦٣٢ م .

ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » (١) وبعد أن أتم المصطفى الأكرم ﷺ خطبته قصد بيت السيدة عائشة وعندما حان وقت صلاة العشاء حاول العودة إلى المسجد فلم يستطع وعندما دعاه بلال إلى الصلاة قال « مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس » فقالت عائشة « إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن » . فقال رسول الله « مروه فليصلِّ بالناس » (قالت) فعدت بمثل قولى وما حملنى على مراجعته إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا ، وإلا كنت أرى أن لن يقوم أحد مقامه ، إلا تشائم الناس ، فأردت أن يعدل عن ذلك رسول الله ﷺ ، إلا أنه أجابنى بقوله « إنكن صواحبات يوسف مروه فليصلِّ بالناس » فقام أبو بكر وصّلى بالناس واستمر على ذلك (٢) . وفى ذات يوم أذّن بلال فلم يتقدم أبو بكر للصلاة لأنه كان غائبا ، فقال عبد الله بن زمعة الأسود لعمر : قم فصلى بالناس . فقام عمر فلما كبر سمع رسول الله صوته فقال : أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ! فبعث إلى أبى بكر ، فجاءه بعد أن صلى عمر تلك الصلاة ، فكان يصلى بالناس (٣) ثم إن رسول الله ﷺ وجد خفة به بعد أن ثقلت عليه أوجاع المرض فخرج بين رجلين من خاصة بيته أحدهما الفضل بن عباس والثانى على بن أبى طالب لصلاة الظهر - يوم الإثنين من أوائل ربيع الأول سنة ١١ هـ وبينما كان أبو بكر يصلى بالناس إذ برسول الله ﷺ يكشف ستر حجرته وينظر اليهم ومعه صاحبيه فعندما رأى الرسولَ ﷺ ظنه يريد الخروج إلى الصلاة فأفرج الناسُ لرسول الله الطريق فأدرك أبو بكر أن الناس لم

(١) ابن القيم زاد المعاد ج ١ ص ٩٢ ، وابن هشام ج ٤ ص ٣٢٣

(٢) زاد المعاد ص ٩٣ ، ٩٤

(٣) كان أبو بكر يصلى بالناس طوال مرض النبى حتى أكمل سبعة عشر صلاة ، سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٢٤

يصنعوا ذلك إلا لرسول الله فأخر عن مصلاه . وهَمَّ المسلمون أن يفتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر واستبشر الناس خيراً (١) . وفى رواية إنها صلاة الصبح وإن أبا بكر لما رآه مستنداً على صاحبيه ذهب ليتأخر فأومأ إليه الرسول ﷺ ألا يتأخر وأمرهما أن يجلساه إلى جنبه ، فجعل أبو بكر يصلى قائما ورسول الله ﷺ يصلى قاعدا عن يمين أبى بكر (٢) .

● أبو بكر بعد علمه بوفاة الرسول :

وبعد حجة الوداع بثلاثة شهور فى اليوم الذى كشف ستر حجرة عائشة وهو ينظر إلى أصحابه وهم يصلون كأن وجهه ورقة مصحف وتبسم مطمئنا وأرخى ستره ثم ما هى إلا لحظات حتى تغير حاله عليه الصلاة والسلام ، وأخذ يوصى من كان معه بالحجرة . يقول على : أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم ثم كانت آخر كلماته « إلى الرفيق الأعلى ، إلى الرفيق الأعلى » (٣) ثم صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها راضية مرضية فى يوم الإثنين الثالث عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشر من الهجرة (٤) . وقد وقع خبر الوفاة على المخلصين من الصحابة وقعاً شديداً والكثير منهم غير مصدق أن الرسول ﷺ يفارق دنيا الناس حيث غابت أحلامهم من هول ما سمعوه فبكى عمر وقال أثناء ذلك « زعموا أن محمدا قد مات وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، والله

---

(١) ابن عبد البر الاستيعاب ج ٢ ص ٢٥١

(٢) فتح البارى لابن حجر باب مرض النبى ص ٣٠٨

(٣) ابن القيم روضة المحبين ص ٢٠٣

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٤

ليرجعن رسول الله ﷺ (١) وعلم أبو بكر بخبر الوفاة فحضر على عجل (٢) فور علمه بوفاة الرسول ﷺ ودلف إلى حجرته فرآه مسجى فى فراشه فكشف عن وجهه الشريف ثم أقبل عليه فقبله ثم قال : بأبى أنت وأمى يارسول الله طبتَ حياً وطبت ميتا ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفذنا عليك الشئون أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبداً . اذكرنا عند ربك ولتكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم تقم لما خلفت من الوحشة » (٣) ثم خرج أبو بكر إلى الجمع الحاشد الذى كان يقف بالباب فأيقظهم أبو بكر من غفلتهم وردهم إلى أحلامهم وأرشدهم إلى الصواب . .وخطبهم بجامع الكلم وفصل الخطاب فلما رأى الناس أبا بكر أقبلوا عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا هذه الآية ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾ (٤) وما أن انتهى حديث أبى بكر حتى أفاق المسلمون مما غشيهم وفى مقدمتهم عمر وعلموا أنها إرادة الله (٥) يقول عمر « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعفرت (٦) حتى

---

(١) فتح البارى ص ٣٠٩

(٢) كان الصدِّيق قد استأذن النبى للذهاب إلى أهل زوجته حبيبة بنت خارجه بمنطقة السنح من ضواحى المدينة بعد أن قال له يا نبى الله إنى إراك قد أصبحت بنعمة الله وفضل كما تحب . فأذن له النبى ﷺ بالذهاب .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٠ ، ٣٣١

(٤) سورة آل عمران آية ١٤٤

(٥) ابن القيم روضة المحبين ص ٢٠٤

(٦) عفرت : تحيرت ودهشت .

وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاى وعرفت أن رسول الله قد مات » [١]
وبعد أن أفاق من غفوته قال معقبا على تلك الخطبة الموجزة لأبى بكر التى يحمل مضمونها العزم والحكمة : « والله لظننت إنه ليس فى القرآن آية كهذه حتى ذكرنيها أبو بكر » [٢] .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٤

(٢) فتح البارى ص ٣١١

الفصل الثالث
خلافة الصدِّيق ومنهجه السياسى

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى واجهت المسلمين مشكلة « نظام الحكم » فمن أحق بهذه الخلافة من بعده ؟ وتطور الموقف إلى نزاع بين المهاجرين والأنصار فى المدينة على من يتولى حكم المسلمين متهما على أساس نظام يتمشى مع روح القرآن والسنة ويطابق تعاليم الإسلام التى تعصم من الفرقة والانقسام وحتى لا يجد الشيطان سبيلا إلى تفريق كلمتهم وتمزيق شملهم ولا تلعب الأهواء بقلوبهم . وليفارق المصطفى ﷺ هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة وشملهم منتظم وعليهم أمير يتولى أمورهم . [1] ولقد أيقن المسلمون بموت رسول الله ﷺ وكان أول أمر تحدثوا فيه هو من يخلف رسول الله ﷺ فى أمرهم لقد كان نبيا ورسولا من الله لعباده وقد انتهت النبوة والرسالة فهو خاتم النبيين والمرسلين . وكان حاكما ينفذ أحكام الله ، فمن عساه يصلح لأن يخلفه فى هذه المهمة ؟ هذا ما اختلفت حوله الآراء [2] والحقيقة الغالبة أن الرسول ﷺ لم يوص لأحد من أصحابه بالتعيين لأن يخلفه وإنما ترك الأمر شورى بينهم وسبيل ذلك :

(١) أنه ترك مجموعة متماسكة صالحة قوية تصلح لأن تخلفه .

(٢) أنهم إخوانه وأبناءه - فلذات أكباده - وهم جميعا يتمتعون بتلك المنزلة السامية فى نفسه ﷺ وترك لهم تقدير ما يختاره العامة أميراً لهم .

(٣) لم يحدد لهم شخصية محددة لأن معلم البشرية ﷺ يبين للجميع أن

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة الشيخ محمود شلتوت ص ١١٠

(٢) نظرية الإسلام وهديه فى السياسة - أبو الأعلى المودودى ص ٨٧

لكل عصر رجاله فمن يصلح اليوم ربما لا يصلح غدا حتى يمكن محاسبته عند التجاوز والتفريط بعيداً عن مدارك القوة المكتسبة بالتفويض والقداسية والنفوذ والسلطان ، فإن ذلك لا يتمشى مطلقاً مع الروح الإسلامية في السلوك السياسي الراقي .

(٤) لقد كان كل أصحاب النبي ﷺ على جانب عظيم من التقوى والصلاح ، وكل منهم لا يرى في نفسه القدرة على القيام بأعباء هذا الأمر بحيث يمكن أن يملأ ذلك المنصب الذي خلا بموت النبي الكريم وكان عليه من الصفات التي لا يمكن أن تجتمع في رجل على وجه البسيطة [1] وقد كان ذلك راجعا إلى قلة الجماعات وبساطة العيش وضآلة تكاليف الحياة فكانت الفطرة السليمة والفكرة السهلة هما الموافقين لبيئة العرب وطبيعة البداوة . وقد وضع الرسول ﷺ شعاره القديم « إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، فمن قضيتُ له بحق أخيه شيئاً بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار ، فلا يأخذها » [2] .

● مؤتمر السقيفة :

في هذه اللحظات الحزينة التي تلت وفاة النبي ﷺ التف المهاجرون جميعاً حول أبي بكر وعمر . ولما وصل الخبر إلى الأنصار اجتمعوا في سقيفتهم [3] وأرادوا أن يبايعوا سعد بن عبادة ، وكاد الأمر يتم للأنصار

---

(١) تلك الحقائق مستقاة من العديد من كتب النظم الإسلامية في مقدمتها « من توجيهات الإسلام ، الإسلام عقيدة وشريعة للمرحوم محمود شلتوت ، منهاج الحكم في الإسلام محمد أسد . نظرية الإسلام ، مبادئ الإسلام لأبي الأعلى المودودي ، النظريات السياسية الإسلامية ضياء الدين الريس .

(٢) أبو الأعلى المودودي ، مبادئ الإسلام ص ٥٦ ، ٥٧

(٣) سقيفة بني ساعدة وهي ظلة كانت بالقرب من دار سعد بن عبادة سيد الخزرج يجتمعون فيها للتشاور في جل أمورهم .

الذين اعتمدوا على أنهم الذين نصروا الرسول وعملوا على تدعيم الدعوة الإسلامية والإخلاص لها إذ لولا احتضانهم إياها وحمايتهم لرجالها لما كتب لها النجاح والرفعة ، وزادهم أملاً أن الرسول بعد فتح مكة رجع معهم إلى المدينة - ولم يبق فى قومه - وفى ذلك إشارة ضمنية لأن تكون الرياسة فيهم (١) . على أن الأوس الذين كانوا دائما على خلاف مع الخزرج لم تعط كلمتها فى هذا الأمر لأنها فقدت سيدها سعد بن معاذ الذى توفى عقب غزوة الأحزاب ، بل رأت أن تأمير ابن عبادة - زعيم الخزرج يؤدى إلى إعلاء شأن منافسيهم واستعادة سلطانهم القديم . أضف إلى ذلك أن الرجل لم يملك الشخصية المؤثرة القوية التى تزكيه لأن يخلف الرسول ﷺ فى زعامة دولة كبيرة هى دولة الإسلام (٢) ولما وصل خبر اجتماع الأنصار فى السقيفة إلى كبار الصحابة من المهاجرين الذين كان بعضهم إذ ذاك بالمسجد يتحدثون عن وفاة الرسول ﷺ بينما كان البعض الآخر من أقربائه منشغلاً بأمر تجهيزه ، وقد أغلقوا دونه الباب . سارع ثلاثة من كبارهم وهم أبو بكر وعمر - لتدارك الأمر قبل فواته - وانضم إليهما فى الطريق أبو عبيدة بن الجراح ، وفاجأ ثلاثتهم المجتمعين فى السقيفة فوجدوا القوم قد تجمعوا وبينهم سعد بن عبادة مزمل يشكو المرض ، فسلّموا وجلسوا بينهم (٣) وقيل إن كبار المهاجرين لم يأخذوا بالرأى الذى أسداه إليهم البعض بأن يجتمعوا وحدهم ويقرروا أمرهم بعيداً عن الأنصار . روى الشيخان فى حديث طويل « بأن المهاجرين اجتمعوا إلى أبى بكر فقال عمر : يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار : فانطلقنا نؤمهم حتى

---

(١) ابن عبد البر الاستيعاب ج ٤ ص ١١٢ ترجمة بشير بن سعد .

(٢) محمد أسد منهاج الحكم فى الإسلام ص ٥٤

(٣) ابن عبد البر - الاستعاب ج ٢ ص ٢٥٥

لقينا رجلان صالحان (١) فذكروا لنا الذى صنع القوم ، فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلت نريد إخواننا من الأنصار ، فقالا عنكم ألا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين . فقلت والله لنأتينهم ، فانطلقنا حتى جئناهم فى سقيفة بنى ساعدة (٢) .

فلما جلسوا دارت بين الفريقين مناقشات عنيفة فى مسألة الخلافة وأحقية كل جانب فيها « فقام خطيب من الأنصار فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة من قومكم (٣) وإذا هم يريدون أن يجتزرونا من أصلنا ويغصبونا الأمر (٤) .

وقد أراد عمر أن يقول كلمته نيابة عن المهاجرين الثلاثة إلا أن أبا بكر منعه مخافة شدته وقال : على رسلك يا عمر . وقام بينهم أبو بكر خطيباً فقال موجهاً كلامه للأنصار « أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً وأكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً وأحسنهم وجوها وأكثرهم ولادة فى العرب وأمسهم رحما برسول الله . أسلمنا قبلكم وقدمنا عليكم فى القرآن فقال تبارك وتعالى ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفئ وأنصارنا على العدو ، أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهل له وأنتم

---

(١) الرجلان . أحدهما عويم بن ساعدة وقد نزلت فيه وفى أهل بيته آية من القرآن ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ (سورة التوبة آية ١٠٨) ، والثانى معن بن عدى الذى سمع الناس يبكون رسول الله ﷺ ويقولون : والله لوددنا أنا متنا قبله إنا نخشى أن نفتن بعده . فقال معن : والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيا » .

(٢) المحب الطبرى الرياض النضرة ص ٣٠١

(٣) الدافة : الجماعة تأتى من البادية إلى الحاضرة .

(٤) ابن سعد الطبقات ج ٣ ص ١٦٥ ، ابن هشام ج ٤ ص ٣٣٩

أجدر بالثناء من جميع أهل الأرض . فأما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش فمنا الأمراء ومنكم الوزراء . وقد قال الرسول « إنما الأئمة من قريش » وإن هذا الأمر إن تولته الأوس ثارت أحقاد الخزرج وإن تولته الخزرج غضبت الأوس ، لا تفتاتون بمشورة ولا تقضى الأمور دونكم فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضلهم الله به » (١) ثم قام الحباب بن المنذر فقال : « يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم فإنما الناس فى فيئكم وظلالكم وأنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والنجدة ، وإنما ينظر الناس ما تصنعون ، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وتقطعوا أموركم وأنتم أهل الإيواء واليكم كانت الهجرة ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم وإن أبى القوم فمنا أمير ومنهم أمير » (٢) فقام عمر بن الخطاب فقال : « هيهات لا يجتمع إثنان فى قرن (٣) إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمّركم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ونبى أمورهم ومنهم ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل ومتجانف لإثم أو متورط فى هلكة » (٤) وعندما احتدم الجدل الكلامى بين عمر وجماعة من الأنصار أراد الأمين أبو عبيدة أن يخفف من غلواء النقاش ويستميل بنبراته الهادئة إخوانه الأنصار قائلا لهم « يا معشر الأنصار كنتم أول من ناصر وآزر فلا تكونوا أول من بدّل وغير » وقد أثرت هذه العبارة المقتضبة فى رجل من الأنصار « بشير بن سعد » فقام يقول رأيه « إنا والله وإن كنا أولى فصيلة فى جهاد المشركين ومانعة فى هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا بالكدح

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٠

(٢) ابن جرير الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج ١ ص ١٠٢

(٣) لا يجتمع سيفان فى غمد واحد .

(٤) الطبرى المرجع السابق ص ١٠٣

لأنفسنا فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا ينبغى من الدنيا عرض فإن الله ولى النعمة علينا بذلك ، إلا أن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم فى هذا الأمر أبدا فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم » (١) وقد مست كلمة بشير قلوب العديد من الأنصار واطمأنوا إلى أن شبح الخلاف سوف يزول بعد أن خفتت الأصوات وبعد اللغط . وقد سهل ذلك الأمر أن تجتمع الكلمة ويلم الشعث . ساعتها قام أبو بكر الصدِّيق فحمد الله وأثنى عليه ثم دعاهم إلى الجماعة ونهاهم عن الفرقة وقال : إنى ناصح لكم فى أحد هذين الرجلين أبى عبيدة ابن الجراح أو عمر ، فبايعوا من شئتم منهما ، إلا أن عمراً قال بصوت جهورى : « ابسط يدك يا أبا بكر » فبسط أبو بكر يده فبايعه عمر وأبو عبيدة . قال عمر بعد أن أعلن بيعته « معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا أنت أحقنا بهذا الأمر ، ألم يأمر النبى أن تصلى بالناس أنت يا أبا بكر إنك أفضل المهاجرين وثانى اثنين فى الغار فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله ﷺ منا جميعا » فأقبل جمع ممن كان فى السقيفة فأقبلوا على أبى بكر قائلين له : إذا كان الرسول قد ارتضاك لديننا أفلا نرضاك لدنيانا ؟! ثم أقبلوا عليه يبايعونه (٢) . ثم بايع زيد بن ثابت وبشير بن سعد وأسيد بن حضير . فعن سعيد الخدرى قال « وكان من خطباء الأنصار يوم السقيفة زيد بن ثابت الذى قال : إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وإن الإمام يكون من المهاجرين ، ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ . وقال أسيد بن حضير من الأوس « قوموا فبايعوا أبا بكر والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبدا » فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال جزاكم الله يا معشر الأنصار خيراً وثبت قائلكم » ثم قال

(١) ابن عبد البر الاستيعاب ج ٤ ص ١١٣ (٢) ابن سعد طبقات ج ٣ ص ١٦٧

« أما والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم » ثم أخذ زيد بن ثابت بيد أبى بكر فقال فهذا صاحبكم فبايعوه ، ثم جاء أسيد وبشير ، ثم بايعه الأنصار بعد المهاجرين (١) . وأخرج ابن سعد أن أبا بكر قال للأنصار إن هذا الأمر بيننا وبينكم نصفين كعد الأبلمة (٢) . ولما اجتمع الناس على أبى بكر قسم بين الناس قسماً ، فبعث إلى عجوز من بنى عدى بن النجار قسمها مع زيد ابن ثابت . فقالت : ما هذا ؟ قال قسم قسمه أبو بكر للنساء فقالت : أراشونى عن دينى ؟ فقالوا : لا . فقالت أتخافون أن أدع ما أنا عليه ؟ فقالوا : لا ، فقالت : لا والله لا آخذ منها شيئا أبدا . فرجع زيد إلى أبى بكر فأخبره بما قالت . فقال أبو بكر : ونحن لا نأخذ مما أعطيناها شيئاً أبدا (٣) . وتكاثر الناس على البيعة التى حصلت بين ثلاثة من المهاجرين وبين بعض زعماء الأوس والخزرج الذين شذ عن إجماعهم سعد بن عبادة الذى خرج من السقيفة (٤) معدداً مهدداً قائلا « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل وأخضب سنان رمحى وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى فلن أبايع أبدا » فلما وصل الخبر إلى عمر قال لأبى بكر « لا تدعه حتى يبايع » إلا أن بشير بن سعد قال : « إنه لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه ؛ فليس تركه بضائركم إنما هو رجل واحد » . ورأى أبو بكر فى كلام بشير أنه الصواب وترك سعدا (٥) .

---

(١) المنتقى كنز العمال ج ٥ ص ٢٩٠ بل يذهب ابن جرير الطبرى بأن بشير بن سعد قد سبق عمراً وأبا عبيدة للبيعة لأبى بكر » فناداه الحباب بن المنذر : يا بشير بن سعد عاقك عاقق ما اضطرك إلى ما صنعت ؟ أنفست على ابن عمك الإمارة ؟ فقال بشير : لا والله ولكن كرهت أن أنازع قوما حقاً جعله الله لهم » تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٢٣٤

(٢) الأبلمة : يعنى الخوصة .

(٣) كنز العمال ج ٥ ص ٢٩١

(٤) وهو مريض .

(٥) ابن سعد الطبقات ج ٣ ص ١٦٨

● بيعة عامة :

وفى الغد من هذا اليوم جلس أبو بكر على المنبر وتقدم عمر فتكلم قبل أبى بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « إنى قد قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت ولا وجدتها فى كتاب الله ولا كانت عهداً عهده إلىَّ رسول الله ﷺ ولكنى قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا ويبقى ليكون آخرنا . وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى به هدى الله رسوله ﷺ فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ثانى اثنين إذ هما فى الغار . فقوموا فبايعوا » (١)

وبعد أن ألقى عمر كلمته تزامر القوم الذين حضروا إلى المسجد للبيعة بعد بيعة السقيفة التى سلفت على العمل بكتاب الله وسنة نبيه . وتمت البيعة مصافحة بالأيدى كما كان يفعل المتبايعان عند العرب (٢) . ثم قام أبو بكر فألقى خطبته الجامعة المانعة التى رسمت منهاج حكمه . وقد التزم بمضمونها فى سياسته ولم يَحدْ عنها قلامة ظفر ولا جاوز تلك الشريعة بحال . قال خليفة رسول الله بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد أيها الناس فإنى قد وُلّيتُ عليكم ولست بخيركم فإن أحسنتُ فأعينونى وإن أسأتُ فقوّمونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أردّ إليه حقه إن شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله (٣) .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٠ (٢) أبو الأعلى المودودى مبادئ الإسلام ص ٥٨

(٣) الطبرى تاريخ الأمم ج ٣ ص ٢٤٠

وهكذا حلت مسألة خلافة النبى ﷺ بسرعة متوقعة وفى العام نفسه الذى توفى فيه رسول هذه الأمة ﷺ سنة ١١ هـ سنة ٦٣٣ م . وينسب الفضل فى رأب الصدع إلى عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح [١] اللذين عملا على وحدة الكلمة ووضعا حداً سديداً لاختلاف الآراء وتشعب الأفكار . والجدير بالذكر أن الحوار الذى كان دائراً تحت السقيفة بشأن الحالة المدنية التى كان المصطفى ﷺ يطلع بها فى حياته ، لأن الأحوال الدينية والعقدية لم تكن مثار جدل مطلقا لأن المهاجرين والأنصار يعلمون يقينا أنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، فالمناقشات سياسة تتناول أمور إدارة الدولة وحكمها ولا خلاف جوهرى فى الجدال على الرغم أن الموضوع ظل معلقا على من يلى أمر دولة الإسلام ومن يخلف نبيها مدنيا لا دينياً وانتهى بانتخاب أبى بكر خليفة لهم واقتنع الأنصار بأحقيته [٢] وهم فقط أرادوا بعد موت نبيهم الذى أحاطوه بالحب والمواثيق أن يتولوا شيئا من سلطانه وهم أعرف الناس بفضل أبى بكر وإنه أصلح رجل يواجه المواقف الآن [٣] وذلك لقوة يقينه وبراعته السياسية وفهمه الصحيح لطباع هؤلاء وهؤلاء ، هذا فضلا عن سنه وتجربته قبل الإسلام ومع الإسلام ، وكلها مرشحات ترجح كفة أبى بكر فى ميزان التقييم .

● دفن النبى :

لم تُنس هذه المشاغل السياسية الخليفة أبا بكر الصدّيق أحزانه على فراق أعز من له فى هذا الوجود ، محمد ﷺ ، وقد قلب فى رقعة الذاكرة

---

(١) ففى الروايات التى نقلها الطبرى وابن قتيبة فى الإمامة والسياسة وابن عبد البر ترجح دور بشير بن سعد فى المبايعة لأبى بكر والتى كانت قد لمت شعث جماعة الأنصار وكانت حلا جذرياً لإيقاف هذا النقاش الطويل دون طائل فى السقيفة . فإسراعه بالبيعة من جهة الأنصار كان أدعى لجمع كلمة المسلمين على أبى بكر وقطع السبيل أمام طموحات سعد بن عباده .

(٢) أبو الأعلى المودودى نظرية الإسلام ص ١٠١ (٣) المرجع نفسه ص ١٠١

خلاصة سجل أيامه الماضية فأثارت الذكريات شجنه العميق وأحس بالألم المحض على ابتعاد من علّق حياته بحياته وآماله بآماله ، فوجد سلسلة متصلة الحلقات من الانتصارات والإنجازات إلى أن توفى الرسول ﷺ ، وهى سنة الله فى خلقة ، ولا مردٌ لقضائه ، ولله ما أخذ ولله ما أعطى وهو على كل شئ قدير . قضى الرسول الكريم ﷺ ليلة الثلاثاء فى بيته . وكان أول عمل قام به أبو بكر فى صباح يوم الأربعاء هو الاستعداد لغسله ﷺ حيث تولى ذلك أقرباؤه على بن أبى طالب والزبير والعباس بن عبد المطلب وولداه الفضل وقثم . ولما فرغوا من غسله كفنوه فى ثلاثة أثواب وبرد حبرة أدرج فيها أدراجاً . فلما فرغ من جهازه وُضع على سريره فى بيته [1] وقد كان المسلمون اختلفوا فى الموضع الذى يدفن فيه النبى صلوات الله وسلامه عليه ، فقال قائل ندفنه فى مسجده ، وقال قائل بل ندفنه مع أصحابه . فقال أبو بكر إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما قبض نبى إلا دفن حيث يقبض » فرفع فراش رسول الله ﷺ الذى توفى عليه فحفر له تحته لحد [2] ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون جماعات جماعات . فدخل الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان ، ولم يؤم على رسول الله ﷺ أحد [3] . ثم دفن رسول الله فى الليلة نفسها ، وكان الذى تولى إنزاله فى قبره على بن أبى طالب والفضل بن العباس وشقران مولى رسول الله ، ثم سوّى قبره الشريف [4] .

● بيعة على والزبير لأبى بكر :

قد قيل كلام طويل وأثيرت شبهات كثيرة فى موضوع بيعة على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، بالقطع ليست للنوايا الطيبة فيها نصيب .

---

(١) ابن القيم رياض المحبين ص ١٠٥

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٣

(٣) ابن القيم المرجع السابق ص ١٠٥

(٤) ابن سعد طبقات ج ٣ ص ١٧٢

وصوّرتها بعض الروايات بأنهما قد أحجما عن البيعة لخلاف بينهما وبين الخليفة المنتخب أبى بكر الصدّيق ، وزعمت بعض الأقلام ممن لهم أغراض مشبوهة بأن خلافا قد حدث بين سائر القرشيين وبنى هاشم على زعامة المسلمين (١) وأن عليا والعباس والزبير - وهم أقرباء الرسول ﷺ أبوا فى البدء أن يخرج الحكم من بيت الرسول ، ولكن بقية القرشيين من المهاجرين لم تقبل ذلك . وتستند الرواية « بأن عليا والزبير كانا حين بويع لأبى بكر يدخلان على فاطمة فيشاورانها ويتراجعون فى أمرهم ، فبلغ ذلك عمر ، فدخل عليها فقال : بلغت رسول الله ﷺ فلم أجد من الخلق أحداً أحب إلينا من أبيك وما أجد أحب إلينا بعده منك . وقد بلغنى أن هؤلاء النفر يدخلون عليك ، ولئن بلغنى لأفعلن ولأفعلن . ثم خرج وجاءوها ، فقالت لهم « إن عمر جاءنى وحلف لئن عدتم ليفعلن وأيم الله ليفين بها فانظروا فى أمركم ولا ترجعوا إلىّ » ، فانصرفوا فلم يرجعوا حتى بايعوا لأبى بكر (٢) . الأمر الذى لا مراء فيه أن عليا والزبير لم يتباطئا - مطلقا - عن البيعة لأبى بكر وليس ثمة خلاف بين قريش وبيت النبى على الزعامة المنصورة لأنها أضغاث أحلام مستشرق كمن فى قلبه ضغن على الإسلام لا يقر به إلى صواب أبداً . بل لا أشك أن الأهواء المذهبية داخل البيئة الإسلامية صنعت صنيعها فى إملاء رأيها فى موضوع البيعة وأحقية فريق على فريق دون سند من واقع أو نظر إلى أخلاقيات الرجال ، بل واضح من المرويات الاختلاق والكذب ، فما كان على والزبير ليفارقا الجماعة ويشقا عصا الطاعة فى وقت كانت الأمة أدعى إلى التماسك ووحدة الرأى ، وإنما هو خلط غريب وافتئات مريب ، وإنما الأقرب للصواب إن لم يكن الصواب بعينه أن عليا والزبير كانا مشغولين بتجهيز النبى ﷺ وأن البيعة تمت ولم

---

(١) جوستاف جرونباوم حضارة الإسلام ص ١٨٥

(٢) المرجع السابق ص ١٨٥ .

يكن نبيهما قد دفن بعد (١) . إن مصلحة الجماعة والخير العام ومعرفة سجايا الرجلين جعلهما يبايعان أبا بكر دون تردد مطلقا ، وإنما الحق ما رواه الحافظ ابن كثير من أن الرجلين أدركا البيعة العامة فى المسجد ولم يتخلفا أبدا يقول : وصعد أبو بكر المنبر فنظر فى وجوه القوم فلم ير الزبير . قال : فدعا الزبير فجاء ، فقال قلت ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين ؟ فقال الزبير : لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ فقام فبايعه . ثم نظر فى وجوه القوم فلم ير عليا فدعا بعلى بن أبى طالب فجاء . فقال قلت ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين . قال على : لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ . فبايعه (٢) .

أما الرواية التى استند إليها الباحث الأجنبى - جروينباوم - فى قوله تردد على والزبير فى أمر البيعة والتى صورت عمراً بأنه يجبرهما على اختيار أبى بكر دون اقتناع ، بل وصل الأمر إلى حدود التهديد والتصريح المباشر باستخدام القوة فى الوقت المناسب . فإنا مع من يرى بأن الرواية مكذوبة وواضح ما فيها من الزعم والتلفيق « فما كان أبو بكر ليخلى بين عمر وبين العنف تجاه على ، على أثر وفاة النبى ﷺ وزوجه فاطمة مازالت حية ، وإنما هذا الخبر متكلف أريد به إظهار أن عليا وصاحبه لو تُرِكا وشأنهما ما بايعا أبا بكر . وأيسر العلم بفضل على رحمه الله ونصحه للمسلمين وحسن بلائه فى الإسلام أيام النبى يمنع من قبول تلك الرواية ، وإنما هو خلط بَيِّنٌ (٣) .

وقد أورد ابن كثير عدة روايات (٤) أثبت فيها مبايعة على بن أبى طالب إما فى اليوم الأول من الوفاة أو فى اليوم الثانى منه . وهذا حق لأن :

---

(١) ابن سعد طبقات ج ٣ ص ٩٢
(٢) البداية والنهاية ج ٢ ص ١٩٨
(٣) طه حسين - الشيخان ص ١٨٥
(٤) البداية والنهاية ص ١٩٨ ، ١٩٩

أ - هذا الصحابى الجليل « على بن أبى طالب » لم يفارق أبا بكر بعد ما انتهى من تجهيز النبى ﷺ فى وقت من الأوقات كما لم ينقطع - وهو الأشهر - فى صلاة من صلوات الجماعة خلف إمامه .

ب - قيل إن عليا خرج مع الصدِّيق إلى ذى القصة (١) عندما شهر الخليفة سيفه لمنازلة أهل الردة .

ج - وما يقال فى على يقال فى الزبير فلم يحدث تقاعس منهما . ويؤيد عدم تأخيرهما ما نقله الأخباريون عن عبد الرحمن بن عوف من أن أبا بكر خطب القوم عقب انتخابه بأيام قليلة فقال فى حضور على والزبير : « والله ما كنتُ حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها اللهَ فى سرٍّ ولا علانية ، ولكنى أشفقت من الفتنة وما لى فى الإمارة من راحة . لقد قُلِّدْتُ أمراً عظيما ما لى به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله » فقال على والزبير : « ما غضبنا إلا لأنا تأخرنا عن المشورة ، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها إنه لصاحب الغار وإنا لنعرف شرفه وخبره ولقد أمره رسول الله ﷺ أن يصلى بالناس وهو حى » (٢) .

بايع على والزبير اللذين تربيا فى الدوحة النبوية الزاهرة . وغدا كلاهما ينعم بظلال الفضائل والمكرمات فى عهد أبى بكر ولم يتخلفا عن اليوم الثانى من الوفاة على أقصى تقدير ، لأن التخلف عما أجمعت عليه الأمة فى شأن خطير من شئونها يُعدّ منقصة لا تغيب عن لب الصحابيين الجليلين وفراستهما التى هى ليست موضع شك . بل اطمأنت الساحة العلمية إلى وقار على وإلى حسن تدبيره ، وليس من الطموح أبدا تقديم نفسه فى

---

(١) ذى القصة : موضع يبعد أربعة وعشرين ميلا من المدينة المنورة فى الطريق إلى الرنده .

(٢) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٦٩ وقد قيل إن سبب هذه الخطبة ما حدث من لغط بسبب كسر محمد بن مسلمة لسيف الزبير فى تلك الفترة .

الأحقية على أبى بكر - كما يدعى الرافضة - بل الحق يعلن فى ظاهره أن عليا كان من أخلص المسلمين إلى أبى بكر ولم يزل سامعاً مطيعاً له مثنٍ عليه ويفضله فى حياته عرفاناً وبعد وفاته كأحسن ما يكون الوفاء وهو القائل « حب أبى بكر ومعرفة فضله من السنة » (١) ذكر ابن المبارك أن عليا تصدى لأبى سفيان بن حرب الذى أراد أن يوغر الصدور ضد الخليفة غلبكم على هذا الأمر أبو بكر أنا والله إن شئت لأملأنها خيلا ورجالا . فقال على ابن أبى طالب « يا أبا سفيان بن حرب ما زلت عدوا للإسلام وأهله . فما ضر ذلك الإسلام وأهله شئ . وإنا رأينا أبا بكر لها أهلا » (٢) .

● سياسة الدولة الإسلامية أيام أبى بكر :

سار أبو بكر فى سياسة أمور المسلمين ولا رقيب عليه إلا الدستور القرآنى بين يديه وبرهان من حقائق القانون الذى تكونت أركانه من تشريع الله وسنة نبيه ﷺ ، وما كان يقضى به بين الناس (٣) ، كما انتهج السيرة المثلى حتى قال الناس « وأيم الحق إن الله قد اختاره بحق لينقذ الإسلام ويدعم أركان دينه القويم ، وقد ردَّ من قال له يا خليفة الله ، بل قال له فى حسم لست بخليفة الله ولكن أنا خليفة رسول الله وأنا راض بذلك . ولم تكن تشرئب أعناقه إلى هذا الشرف الذى أولاه إياه جماعة المسلمين ، فلم يحرص على بلوغ الخلافة ولا كان راغباً فيها يوما . ولم يدر فى خلد أحب الناس إليه أنه أقرب إلى الإمارة من غيره (٤) وعن سعيد بن المسيب قال : « لما قضى رسول الله ﷺ ارتجت مكة . فسمع بذلك أبو قحافة . فقال ما هذا ؟ قالوا قبض النبى ﷺ . قال : أمر جليل . قال : فمن ولى بعده ؟

---

(١) السيوطى المرجع السابق ص ٧١

(٢) ابن عبد البر الاستيعاب ج ٢ ص ٢٥٤

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة ص ١١٤

(٤) أبو الأعلى المودودى نظرية الإسلام ص ٩٢

قالوا : ابنك . قال : فهل رضيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة ؟ قالوا نعم . قال لا مانع لما أعطى الله ولا معطى لما منعه الله (١) .

وقد كان أبو بكر سديد الرأى عندما حارب المرتدين ولم يلتفت إلى من أشار عليه بالإبقاء على جيش أسامة - كما سنبينه قريبا - ليدافع به عن المدينة فى ذلك الوقت العصيب الذى ارتدت فيه العرب جميعاً . ولم يبق على إسلامه من سائر الناس سوى مكة والمدينة والطائف ولكن أبا بكر أمن على تسيير ذلك الجيش الذى أراد الرسول ﷺ أن يبعثه إلى بلاد الشام ولكن المرض الأخير منعه من إرساله وهنا يرتفع الصدّيق إلى مقام المؤسسين لا إلى مقام المصلحين . وقد أجمع المؤرخون وكتاب السير على أنه لولا صلابة أبى بكر برأيه وتشبثه بعقيدته هذه لأضحى الإسلام دينا نظريا يُضَمُّ إلى قائمة الديانات والعقائد الإنسانية البحتة (٢) وإذا كانت أوروبا الحديثة تتباهى بتواضع ساستها وانغماسهم فى مشاكل قومهم ومعايشتهم إياهم عن قرب . فقد كان فى جوف الصحراء العربية قبل مئات من السنين رجل يقود الإسلام والمسلمين لدولة تكاملت أركانها على القوة والرسوخ يحمل على كتفيه النحيلتين غرارة (٣) مملوءة بأنواع أقمشة الشام وريط اليمن أو ديباج الحبشة والهند يذهب بها إلى السوق ليتاجر فيها فيكسب ما يذهب عنه غائلة الجوع هو وأهل بيته . ذلك هو ابن أبى قحافة خليفة الرسول ﷺ (٤) فلم ينقطع عما كان يزواله من حرفة التجارة . فيبدأ يومه بالذهاب إلى السوق صباحا وفور منصرفه من صلاة الظهر يبدأ فى رعاية حق الناس عليه . ولقيه عمر وأبو عبيدة يوما فقالا له إلى أين تريد

---

(١) ابن عبد البر / مرجع سابق ص ٢٥٥

(٢) محمد أسد / منهاج الحكم فى الإسلام ص ١١٧

(٣) صرة كبيرة .

(٤) المودودى مبادئ الإسلام ص ٦٠ و ٦١

يا خليفة رسول الله ؟ قال : إنى ذاهب إلى السوق ، فقالا له : تصنع ذلك وقد وليتَ أمر المسلمين ؟! قال أبو بكر : فمن أين أطعم أولادى ؟ فما زالا به حتى اقتنع بأن يفرض له من بيت المال ما يكفيه هو وعياله وفضل المؤنة مع الكفاف (١) .

وقد أسند أبو بكر إلى إدارة البلاد الأكفاء المبرزين من أعلام الصحابة ممن ظهرت مواهبهم وترامى إلى أسماعه خصالهم ومداركهم الإدارية ليساعدوه فى سياسة أمر الناس وإنفاذ الوظائف التى تحتاج إلى الخبير اللبيب منهم فقسم جزيرة العرب إلى ولايات جعل على كل منها أميراً له إقامة الصلاة والفصل فى القضاء وإقامة الحدود وسبر الثغور وإدارج الأعمال ، فكان الوالى فى زمنه أميراً وقاضياً ومنفذاً أما البلاد التى فتحت فى عهده من أرض العراق والشام فكان القتال فيهما دائراً ، ولذلك عد القواد هم ولاة الأمر داخلها وتكونت تدريجيا مركزية الحكم بناء على إرشاد الخليفة نفسه ، بعد أن قسّم الوظائف فى المدينة بين كبار الصحابة فكان عمر بن الخطاب يتولى القضاء وأبو عبيدة الزكاة وعثمان بن عفان الكتابة (٢) وفى تاريخ الطبرى ما ينبئ عن تلك الحقيقة حيث إن أبا بكر « لما ولى الخلافة قال له أبو عبيدة أنا أكفيك المال - يعنى الجزاء - وقال عمر وأنا أكفيك القضاء فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان يتخاصمان . وكان يكتب له زيد بن ثابت ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان ، وكان عامله على مكة عتاب بن أثيب وعلى الطائف عمرو بن العاص وعلى صنعاء المهاجر بن أبى أمية ، وعلى حضرموت زياد بن لبيد ، وعلى خولان يعلى بن أمية ، وعلى زبيد ويرقع أبو موسى الأشعرى ، وعلى الجند معاذ بن جبل ، وعلى البحرين علاء بن الحضرمى ، وعلى نجران جرير بن

---

(١) السيوطى مرجع سابق ص ٧١ — (٢) الريس النظريات السياسية .

عبد الله ، وبعث بعبد الله بن ثور أحد بنى الغوث إلى ناحية جرش ، وبعث عياض بن غنم الفهرى إلى دومة الجندل ، وكان بالشام شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان كل منهما على جند ، وعلى العراق المثنى بن حارثة (١).

وفى تلك المدة القصيرة الأمد أرسيت دعائم المعاهدات مع أهل الذمة فى أركان البلاد المفتوحة والتى أشرقت فى سمائها أضواء الدعوة الإسلامية على بصيرة من الأمر . فقد صالح خالد بن الوليد أهل الحيرة من نصارى العرب الذين أقرّوا دَفْعَ الجزية مقابل حمايتهم ودفع الأذى عنهم (٢) وهى تتشابه مع تلك المعاهدة التى توثقت من قبل فى عهد النبى ﷺ مع يوحنا صاحب إيلة أثناء غزوة تبوك الشهيرة . فقد عاهدهم خالد « على تسعين ومائة ألف تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شئ عليهم ، وإن هم غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة (٣) . وقد لخص الخليفة الأول رأيه فى إمارة المسلمين « إنما أنا متبع ولست بمبتدع ولن أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه إلا صنعته » (٤) ولا عجب أن يتخذ أبو بكر هذه السياسة الرشيدة فهو قد صحب رسول الله منذ بعث إلى أن اختاره الله إليه . ثم إنه كان يؤمن بالله ورسوله إيمانا لا يكبو ولا يتزعزع وكان لاتصاله القلبى والروحى بالرسول يعرف من أمره ما لا يعرفه غيره ، وهو وحده الذى قال فيه قبل يومين اثنين من وفاته : « إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه » ولا جرم إن اتباع أبى بكر للنبى كان اتباعاً صحيحا صادراً عن إيمان وبينة ، إيمان يجعله مطمئنا إلى

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ٤٢١

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٢ (٣) نفسه ص ٤٤٢

(٤) ابن عبد البر الاستيعاب ج ٢ ص ٢٥٥

أنه لن يخطئ ما اتبع الرسول ، وبينة تجعله يسلك الطريق التى يرى أن الرسول كان لا ريب يسلكها (١) .

إذن كان الصدِّيق محمدى المنزع والتفكير وعصره امتداد طبيعى لتلك السياسة التى كان عليها الرسول ﷺ فى أحواله المدنية ، وكل الذى كان يطلبه هذا الخليفة من أعوانه المحيطين به إسداء النصح وتقويم المعوج ، وهو القائل - كما أورد السيوطى - « كان رسول الله ﷺ عبداً أكرمه الله بالوحى وعصمه به وإنما أنا بشر ولست بخير من أحدكم ، فراعونى ، فإذا رأيتمونى استقمت فاتبعونى ، وإذا رأيتمونى زغت فقوِّمونى واعلموا أن شيطانا يعترينى ، فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى لا أوثر فى أشعارهم وأبشاركم ، واعلموا أيها الناس أن النبى ﷺ قد سن السنن وعلمنا فعلمنا » إلى أن قال « إن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور » (٢) .

وقد دلت أعماله التى نفذها وقراراته الحاسمة التى اتخذها أنه ماض إلى تلك الغاية السليمة التى اطمأنت إليها نفسه ، وقد طوع خبرته وكفايته وتواضعه وعزمه وحسمه وقوة شكيمته فى تثبيت ضوء ذلك النبراس على طريقه الذى سلكه بالناس طوال حياته السياسية ، فحافظ على الدين واستمر فى نشره وبسط نفوذه وأخمد الفتن قبل أن تستعر ألسنة لهيبها . وكان المسلمون الذين ثبتوا معه على الحق واليقين أطوع له من بنانه وأسرع إلى كل ما يأمر به ويدعو إليه من رجع الصدى مطمئنين إلى أمانته وعدله وزهده وثباته وتحريه المصلحة العامة التى توصلهم إلى خيرى الدنيا والآخرة وكسب ثقتهم فى لينه وشدته ووجدوا فى دماثة خلقه القدوة التى لا تبارى ، فأحبوه واطمأنت نفوسهم إلى صواب رأيه وأحلُّوه المقام الرفيع دون

(١) الدكتور هيكل الصديق أبو بكر ص ٩٠ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٧١

نزاع [1] . وصفوة القول أن خليفة رسول الله أبا بكر كان المثل الكامل للمسلمين حتى قال فيه عمر بن الخطاب « لقد أتعب أبو بكر مَن يَخلفه » [2] لما يتمتع به من خلال سامية ساعدته على إنجاز جلائل أعماله واجتاز بها أعتى الأزمات وهى سمات وخصال لا تجدها إلا فى عظماء الرجال .

● بعث أسامة بن زيد :

كان النبى ﷺ قد أعدَّ جيشاً قبيل مرضه ليسير إلى بلاد الشام لتأديب قبائل غسان النازلين على مشارفها لجرأتهم على قتل سفير النبى إليهم ، وللقصاص لزيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن أبى رواحة الذين استشهدوا فى سرية مؤتة ، وجعل إمرة هذا الجيش لشاب حدث هو أسامة بن زيد ولم أجد من المهاجرين الأولين إلا انتدب فى تلك الغزوة فى مقدمتهم أبى بكر وأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص وعدة من الأنصار خرجوا إلى الجرف [3] ثم توقف هذا البعث بعد أن انشغل المسلمون بتمريض النبى وما تبع ذلك من وفاته وتجهيزه ، ولما بويع أبو بكر بالخلافة حقق رغبة النبى ﷺ فى تسيير بعث أسامة فما أن فرغ من أمر الدفن حتى أمر بتنفيذ هذه الرغبة الغالية على الرغم من أن الكثيرين قد حاولوا إثناءه عن تسيير هذا الجيش للاستعانة به فى إخماد فتنة الارتداد ، فدخل على أبى بكر، كما يروى ابن عساكر ، عمر وعثمان وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد فقالوا « يا خليفة رسول الله إن العرب قد انتقضت عليك من كل جانب وإنك لا تصنع بهذا الجيش المنتشر شيئا ، اجعلهم عدة لأهل الردة ترمى بهم فى نحورهم ، وأخرى لا تأمن على أهل المدينة أن يغار

---

(١) المودودى نظرية الإسلام ص ٨٧

(٢) ابن حجر الإصابة ج ٢ ص ٣٤٤

(٣) موقع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام . قالوا : سمى الجرف لأن تبعا مر به فقال هذا جرف الأرض . ياقوت – المعجم ج ٢ ص ١٢٨

عليها وفيها الذرارى والنساء ، فلو تأخرتَ لغزو الروم حتى يضرب الإسلام بجرأته ويعود أهله إلى ما خرجوا منه أو يفنيهم السيف ، ثم نبعث أسامة حينئذ ، فنحن نأمن الروم أن تزحف علينا » (١) .

ولما انتهى المهاجرون كلامهم بادرهم أبو بكر الذى أثقلت عليه هموم الخلافة مسئوليةُ القضاء على المرتدين وقد استغرق فى التفكير وقلب عينيه فى وجوه من حضر هذا المؤتمر ثم قال لهم « هل فيكم أحد يريد أن يقول شيئا ؟ قالوا : لا ، قد سمعتَ مقالتنا . فقال : والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تأكلنى بالمدينة لأنفذتُ هذا البعث ولا بد أن يؤوب منه . كيف ورسول الله ﷺ ينزل عليه الوحى من السماء يقول أنفذوا جيش أسامة ، ولكن خصلة أكلم بها أسامة أكلمه فى أن يقيم وإنه لا غنى بنا عنه . والله ما أدرى يفعل أسامة أم لا ؟ والله أنى لا أكرهه إن أبى » (٢) .

فعرف المجتمعون أن الخليفة عازم على تسيير ذلك الجيش مهما كانت النتائج التى يحققها وجوده فى المدينة ، وجاء رأى الأنصار الذى أعلنته بأنها لا تعترض على إنفاذ الجيش ولا عدّته ، ولكنها تتحفظ فى أمر القيادة . وكلموا فى هذا الموضوع عمر متوهمين أن أبا بكر ربما يرضخ لرأيهم هذا . قالت الأنصار لعمر : أبلغه عنا واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة . فخرج عمر بالأمر ، فأتى الخليفة وأخبره بأن الأنصار أمروه أن يبلغه وهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة . فوثب أبو بكر – وكان جالسا – فأخذ بحلية عمر وقال : « ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرونى أن أنزعه ! » فخرج عمر إلى الناس فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال امضوا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق جـ ١ ص ١١٧

(٢) المتقى كنز العمال جـ ٥ ص ١٢٩

ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت فى سبيلكم اليوم من خليفة رسول الله [١] ثم ذهب الخليفة يسترضيه . وأستأذنه أن يترك له عمر بن الخطاب ليجلس إلى جانبه ويعينه فى بعض المهام ، فأذن له أسامة . وجعل أبو بكر يقول لأسامة : أذنت ونفسك طيبة ! [٢] وجعل الخليفة - الذى تجرد من كل مظاهر الكبرياء والتعالى يجمع شتات هذا الجيش بنفسه وأمر مناديه أن ينادى : عزمة منى أن لا يتخلف عن أسامة من بعثة من كان انتدب معه فى حياة رسول الله ﷺ ، فإنى لن أوتَى بأحد أبطأ فى الخروج معه إلا ألحقته به ماشيا [٣] .

ثم عقد الخليفة مؤتمرا آخر بحضور قائده أسامة وطلائع جنده من المهاجرين والأنصار وأخذ يغلظ على من تكلم فى إمارة القائد العام ثم خاطبهم جميعاً بوصية بليغة نافذة تعد وثيقة عمل وشرف للجندية الإسلامية على مدى الأعصر كلها . قال الخليفة : « أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، لا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تَقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شئ فاذكروا اسم الله عليه . وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً » [٤] .

---

(١) كنز العمال جـ ٥ ص ١٣٤ .
(٢) ابن كثير المرجع السابق جـ ٦ ص ٣٠٤ .
(٣) كنز العمال جـ ٥ ص ١٣٦ .
(٤) الطبرى تاريخ الأمم جـ ٣ ص ٤٧٠ .

ومضى هذا الجيش المتأهب لمنازلة الروم وصنائعهم من قبائل غسان فى سبيله تحوطه تشجيعات الخليفة . وحشد كبير من الرجال الذى عقد النبى لواءهم من قبل لم يتخلف منهم واحد وهم ثلاثة آلاف رجل وفيهم ألف فرس وعدة كثيرة وخرج أبو بكر : يودع أسامة وجماعة الجند معه والخليفة ماش على قدميه وأسامة راكب . فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن . فقال أبو بكر والله لا تنزل ولا أركب وما عليّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله [1] وهكذا ضرب الخليفة المثل الكامل فى رفعة شأن المجاهدين فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام . وهو الذى - كان - كثيراً ما يكرم قواده ويعلى مكانتهم فى نظر عامة المسلمين ليطاع أمرهم وتنفذ كلمتهم [2] . تقول الروايات إن الخليفة أبا بكر بعد أن سار إلى جنب أسامة ساعة وأراد أن يعود إلى المدينة قال له « استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك إن رسول الله ﷺ أوصاك فانفذ لأمر رسول الله فإنى لست آمرك ولا أنهاك عنه إنما أنا منفذ لأمرٍ أمر به رسول الله ﷺ » [3] .

وسار جيش أسامة تحوطه رعاية الله حتى أقبل على البلقاء [4] . يقول ابن كثير « وكان خروج هذا الجيش فى ذلك الوقت من أكبر المصالح والحالة تلك ، فساروا لا يمرون بحى من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم ، وقالوا : ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة [5] .

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ٢٨٤ .

(٢) تلك غاية سامية لا يدركها فى السمو إلا من كان فى درجة هذا الصحابى الجليل .

(٣) تاريخ الأمم جـ ٣ ص ٤٧١ .

(٤) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى قصبتها عمان - وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة وبجودة حنطتها يضرب المثل . ياقوت معجم البلدان ٤٨٩ جـ ٥ .

(٥) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٠٤ .

وأنزل أسامة بأعدائه الهزائم ونفذ أمر الرسول ﷺ من تدمير تلك القرية الظالم أهلها [1] التى باغتها فثأر لأبيه زيد وصاحبيه الأخيار الشهداء : جعفر وابن رواحه . فلما أدى مهمته عاد مسرعا بعد أربعين يوماً غانماً منتصراً راكباً الفرس الذى قتل عليه أبوه من قبل . وكانت تلك الغزوة ثانية المواجهات مع الروم ونصرهم الله هذه المرة - بعد مؤتة - وقتلوا من عدوهم مقتلة عظيمة ورجعوا سالمين أثناء أن خلعت العديد من القبائل إيمانها بارتدادها حول المدينة فكان بعث أسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين ، فإن العرب قالوا : لو لم يكن لهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عما كانوا يريدون أن يفعلوه [2] .

وكما نجحت نظرية الخليفة الصديق فى التهوين من شأن خطورة المرتدين والتلويح بقوة المسلمين الذين لم يأبهوا بالفتنة ولا فعاليتها . فإنه وفق فى إنفاذ أمر الرسول وشدَّد فى عدم المخالفة حتى لا يفتح باباً لمن سولت لهم نفوسهم فى التردد والكسل فهو ماض إلى احترام كل ما يبلغ عن النبى ﷺ ولا يحيد عنه قيد شعرة وهو القائل : « والذى لا إله غيره لو جرت الكلاب بأرجل أمهات المؤمنين ما رددتُ جيشاً وجَّهَه رسول الله ﷺ ولا حللت لواء عقده رسول الله ﷺ [3] .

● قتال بعض الأعراب حول المدينة :

فبعد انتداب جيش أسامة وخروجه ظن بعض الأعراب من القبائل المجاورة مثل أسد وغطفان وبنى عبس ومرة وطيئ أنها فرصة مغتنمة

---

(1) كانت أول من أغرى بلاد العرب بالأصنام ومنها جئ بهبل إلى الكعبة والتى كان الروم قد تجمعوا فيها وحاربوا المسلمين فى مؤتة وقتلوا ثلاثة من أكبر قواد المسلمين : زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن أبى رواحة .

(2) ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ٢٨٥ .

(3) راجع الطبرى جـ ٤ ص ٤٥ .

للتنفيس عما وقر في نفوسهم من حقد دفين على الإسلام ليغيروا على المدينة والغدر بالمسلمين فيها . وذلك بعد أن انصرف زعماء تلك القبائل من لقاء أبى بكر وعرفوا بإرسال القوات الإسلامية صوب الشام . فأعدوا لفعلتهم واستعدوا . وقد أدرك الصديق بفراسته ما يضمره هؤلاء الأعراب من الشر - ربما من فلتات اللسان أو صفحات الوجوه - فيسرع بوضع بعض قوات الحرس من شجعان المسلمين على رأسهم على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن ابن عوف وعبد الله بن مسعود للمرابطة الدائمة احتساباً لخطر يدهم المدينة من جهة هؤلاء الأعراب . وقد قال أبو بكر فور منصرفهم « إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة وإنكم لا تدرون ليلاً يأتون أم نهاراً . وأدناهم منكم على بريد . وقد كان القوم يؤملون أن نقبل منهم ونوادعهم . وقد أبينا عليهم . فاستعدوا وأعدوا » (١) . وما توقعه الصديق بصدق حدسه تحقق ، حيث لاحظت تلك القوات المرابطة حول المدينة نذر الشر في الإغارة فخاطبوا أبا بكر بما رأوه . فأمرهم بالتحصن في أماكنهم لا يبرحوها خاصة بعد ما عرف أن الأعراب تفرقوا فرقتين . فأقامت فرقة بالأبرق بذى حسى (٢) لتكون رداً للفرقة الثانية التى سارت إلى ذى القصة . وخرج الصديق في أهل المسجد على النواضح (٣) إليهم حتى يرد هؤلاء المغيرين على الأنقاب . فتبعهم المسلمون على إبلهم حتى بلغوا « ذا حسى » فخرج عليهم الكمين الذى كان الأعراب أعدوه للقائهم . فانتصر المسلمون عليهم (٤) ثم خرج أبو بكر في جمادى الآخره سنة ١١ هـ في جيش أكبر وأكثر عدة في مقدمتهم أمراء الأنقاب السابقين الذكر في تعبئة رائعة ، على ميمنته

---

(١) ابن كثير مرجع سابق جـ ٦ ص ٣١٣ .

(٢) مياه لبنى فزارة بين الربذه ونخل يقال لمكانها الإحساء . المعجم جـ ٢ ص ٢٥٦ .

(٣) هي الإبل التى يستقى عليها .   (٤) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣١٣ .

النعمان بن مقرن وعلى الميسرة أخوه عبد الله بن مقرن وثالثهما أخوهما سويد ، فكان على الساقة من الجيش الذى لاقى الأعراب (١) فى منازلهم . فعمد الغادرون إلى وسيلة لإيقاف زحف المسلمين يقول ابن كثير « إنهم ألقوا القرب اليابسة فدحرجوها بأرجلهم فى وجه الإبل ففرت إبل المسلمين وهم عليها حتى دخلت بهم المدينة . ولم يصرع أحد من المسلمين ولم يصب بأذى ، فظن المرتدون بالمسلمين الوهن ، وبعثوا إلى أهل ذى القصة بالخبر فقدموا عليهم وعلى رأسهم « حبال بن خويلد » وبات أبو بكر يعبئ رجاله فخرج آخر الليل من التعبئة نفسها ولم يطلع الفجر إلا والعدد لا يدرى حسا ولا همسا حتى وضع المسلمون فيهم سيوفهم وركبوهم مع طلوع الشمس وعلوهم على عامة ظهرهم وقتل قائدهم « حبال بن خويلد » وأتبعهم أبو بكر حتى نزل « ذى القصة » . وكان أول الفتح . ووضع به النعمان بن مقرن فى عدد . ورجع أبو بكر إلى المدينة فذل بها المشركون (٢) .

وفور منصرف أبى بكر صوب المدينة عَوّل الغادرون بالوثوب على من ألَمَّ بنواحيهم فقتلوهم شر قتلة وأذاقوا النساء والأطفال من الشرور ما هو أدهى وأمرّ . فحزن الصدِّيق لتلك المذابح التى ارتكبت فى حق الآمنين فحلف ليقتلن من كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة . وكان من نتيجة هذه الغزوة أن أقبلت الصدقات عدى بن حاتم وللزبرقان وصفوان فى أوقات متقاربة من الليل فاستبشر الخليفة وأصحابة بذلك على رأس ستين ليلة كاملة من وفاة المصطفى ﷺ (٣) . وهنا قدم أسامة بن زيد إلى المدينة بعد أن أدى مهمته بعد أن مضى من غيابه عنها نحو شهرين . فاستخلفه أبو بكر على المدينة وقال له ولجنده الذين كانوا معه : أريحوا واريحوا

(١) الذهبى ، سير أعلام النبلاء جـ ٦ ص ٢١٢ .
(٢) البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣١٤ .
(٣) ابن سعد الطبقات جـ ٤ ص ٨٥ .

ظهوركم (إبلكم) . وخرج بنفسه للقاء المتجرئين من عبس وبنى مرة وبنى ذبيان ومن انضم إليهم من بنى كنانة . متجها إلى ذى القصة بمن خرج معه أولاً وقد ناشده كبار الصحابة ألا يعرِّض نفسه للخطر . تقول الرواية « فكلم الناس أبا بكر وقالوا ارجع إلى المدينة وإلى الذرية والنساء وأمِّرْ رجلاً على الجيش فأبى وقال والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسى » ومشى فى تعبئة إلى ذى حسى وذى القصة والنعمان وعبد الله وسويد على ما كانوا عليه حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق . فاقتتلوا فهزم الله الحارث وعونا وأخذ الحطيئة - الشاعر - أسيراً . فطارت عبس وبنو بكر وأقام أبو بكر على الأبرق أياماً . وقد غلب بنى ذبيان على بلادهم وقال « حرام على ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غَنَّمناها الله وأجلاها . وخمس الأبرق لخيول المسلمين وارعى سائر بلاد الربذه الناس على بنى ثعلبه . ثم حماها كلها مصدقاً لصدقات المسلمين ، والتجات عبس وذبيان بعد هزيمتهم من الأبرق بطلحه بن خويلد الأسدى (٢) ، وعاد معظم أهل تلك النواحى إلى الإسلام وتتابع الأذان للصلاة قرينة الزكاة فى مضاربهم ، وتسامح أبو بكر عن كثير ممن كان من إساءتهم (٢) بعد أن أعادهم الله إلى حظيرة الدين القويم . وكلها عوامل تسجل لأبى بكر فى متابعات أيامة ومفاخر أعماله التى خرج منها بثبات نفس وطمأنينه قلب وإحساس كامل بالمسئولية الملقاة على عاتقه . فكان بها جديراً .

* * *

---

(١) ابن كثير - المرجع السابق ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

(٢) وقيل إن بنى ثعلبة جاءوا لينزلوا على بلادهم التى أخرجهم منها الخليفة وعندما منعوا أتوا إلى مجلس الصديق وكلموه وقالوا علام نمنع من نزول بلادنا ؟ فساجلهم الخليفة بقوله : كذبتم ليست لكم بلاد ولكنها موهبى ونقذتى . ولم يجبهم إلى ما طلبوا . الطبقات جـ ٤ ص ٨٦ .

الفصل الرابع
أهم المصاعب التى واجهت عصر الصديق

كانت خلافة أبى بكر قصيرة الأمد إلا أن أحداثها تحتاج إلى مدونات فى سجل التاريخ . لما قدمته من تدعيم للدولة الإسلامية التى صادفتها بعض المصاعب الخطيرة . فاستطاع هذا الخليفة بحنكته وجلده وتمسكه وصلابته فى الحق أن يقضى على تلك الفتن فى مدة وجيزة . فقد فطن الصديق إلى أن بعض القبائل الجانحة فى اليمن وعمان واليمامة وبنى أسد وتميم قد تهاونت فى مسألة الزكاة وهى من أهم أركان الإسلام وموارده واستنكرت بعثها إلى المدينة . كما أن تركيز الزعامة فى قريش حركت كوامن الغيرة والحسد فى أواسط الجزيرة العربية فتجلتْ النزعات الفردية والعصبيات الإقليمية التى طبع عليها العرب الجاهليون فجاء الإسلام وحاول محوها من النفوس وفرض المساواة العادلة بين جميع المسلمين إلا أن البعض على ما يبدو لم يدخل الإيمان فى قلوبهم فانضموا إلى الإسلام مع الداخلين دون اقتناع . ومنهم من رأى الحرب - فى الغزوات - ولم يفهم بالقطع أنها كانت للدفاع عن مقدرات الإسلام دخل فى الدين تجنباً من مواجهة سيوف الإسلام وأبطاله الأفذاذ وبينهم من قنع بالإيمان طمعاً فى مغنم وجاه ، فلما أعلنت بيعة الصدّيق بالخلافة تحركت كل هذه النفوس المريضة وأظهرت حقيقة أمرها وقامت قيامتها وارتدت عن الإسلام وحاولت إبطال تعاليمه وتغيير مفاهيمه عدا أهل الحجاز وبخاصة قريش وثقيف . كما كانت هناك فئة ضالة ادعت النبوة وهم مجموعة من أشرار العرب مثل مسيلمة وطليحه والأسود وسجاح التميمية وقد وجدت ترهاتهم وأراجيفهم استجابه ممن لا يعقلون : ﴿ إن هم إلا كالأنعام أو أضل سبيلا ﴾ .

● حروب الردة ١١ - ١٢ هـ / ٦٣٣ م :

قد اعتكر ليل الردة صفاء نهار دولة الإسلام . وبرزت شخصية الصديق التى اشتهر بها فى معظم مواقفه والتى لا تخرج عن الشجاعة والثبات فى الخطوب والمحن وقوف العازم القوى . يتجلى ذلك واضحا حينما فوجئ بمعظم القبائل العربية تعلن ارتدادها عن الإسلام حيث لم يبق تابعاً للدين ومستمسكاً به إلا أهل مكة فى المدينة والطائف . ويبدو أن المرتدين فى كوامن نفوسهم « لم يتفق لهم من صحبتهم للنبى ﷺ ما يصفى جواهرهم مما مازجها من شوائب الشرك ، ولم ينفذ إلى بصائرهم نور الحكم الباهرة المنطوية فى أوامر الإسلام ونواهيه فزاغت بصائرهم عن أن الزكاة صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم لا يكلفها إلا من أتاهم الله بسطة فى الرزق . فدعوها إتاوة يساومون أداءها كما يسوم الجبابرة به الملوك رعاياهم أداء الأتاوات وحمل المغارم وذهلوا عن بون ما بين الخطتين ، فتناجوا بالإثم والعدوان فى منع الزكاة وفشت هذه المقالة فى كثير منهم . ومع أن المانعين للزكاة لم يرفضوا جميع أحكام الإسلام ولكنهم سُمّوا مرتدين لجحدهم ركنا من أركانه » (١) .

وأعلن المرتدون عدم خضوعهم للخليفة الذى أخذ البيعة . وقد رأى الصدِّيق هذا التمرد ينتشر بسرعة عجيبة بين القبائل حتى كاد أن يزعزع مركز الإسلام . وأصرّ على طلب الإذعان والتوبة من المرتدين والتسليم بلا قيد أو شرط والعودة إلى نور اليقين إن أرادوا وإلا فالحرب حتى الدمار . ولم يمض إلا زهاء ستة أشهر حتى تمكن الإسلام مره أخرى بفضل سياسة الخليفة التى كانت بعيده النظر ولا شك ، فقاتل رضى الله عنه مَن فَرّق بين الصلاة والزكاة واعتقد جازما أن من فرّط فى جزئيات الأركان سهل عليه

(١) الشيخ عبد الوهاب النجار - الخلفاء الراشدون ص ٣٧ .

التفريط فى شئون الدين والحياة . وقد حوّل الغلاة من الانتهازيين - ومن فى قلوبهم مرض الجزيرة الهادئة إلى أتون نيران ملتهبة لا يعلم إدراك اتساعها لتأكل كل شئ إلا الله وحده ـ فقد نجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة لفقد نبيهم ﷺ وقلتهم وكثرة عدوهم [1] .

وجمع الصدّيق أولى الرأى والنهى إلى محتشد عام لإسداء المشورة فى هذا الأمر الجلل الذى كفرت بسببه الجزيرة وتضرمت أطرافها . أخرج ابن عساكر (قال) لما كانت الردة قام أبو بكر خطيباً فحمد الله وأثنى ثم قال « إن الله مقت من ضل من أهل الكتاب فلم يعطهم خبر الخير عندهم ولايصرف شر الشر عندهم ، وقد غيروا كتابهم وألحقوا فيه ما ليس فيه والعرب الأميون صفر من الله لا يعبدونه ولا يدعونه أجهدهم عيشا وأضلهم دينا فى خلف من الأرض معه فئة الصحابة فجمعهم الله بمحمد ﷺ وجعلهم الأمة الوسطى ، نصرهم بمن اتبعهم ونصرهم على غيرهم ، حتى قبض الله نبيه ﷺ فركب منهم الشيطان مركب الذى أنزله الله عنه . إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم ولم يكونوا فى دينهم وإن رجعوا إليه أزهد منهم بدمهم هذا . ولم يكونوا فى دينكم أقوى منكم يومكم هذا وقد وكلكم إلى الكافى الأول الذى وجد ضالا فهداه ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، والله لا أدع أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويقتل من قتل منا شهيداً من أهل الجنة ويبقى من بقى منا خليفة وارثه فى أرضه قضى الله بالحق » ثم نزل [2] ثم دارت مناظرات للوصول إلى الحق البين حتى يظهر الله أولياءه وينجز وعده وسط تلك الظلمة المدلهمة بدأها الصدّيق بقوله : أشيروا علىّ فما أنا إلا رجل

---

(1) الطبرى تاريخ الأمم جـ ٣ ص ٣١٢ (2) ابن كثير البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣١٠

منكم وإنى أثقلكم حملاً لهذه البنيه . فأطرقوا طويلاً وتعالت صيحاتهم . فتكلم عمر بن الخطاب فقال « أرى والله يا خليفة رسول الله أن تقبل من العرب الصلاة وتدع لهم الزكاة فإنهم حديثو عهد بجاهلية لم يعدهم الإسلام فإما أن يردهم الله إلى خير وإما أن يعز الله الإسلام فتقوى على قتالهم فما لبقية المهاجرين والأنصار يدان للعرب والعجم قاطبة . ثم التفت إلى عثمان فقال مثل ذلك . وقال على مثل ذلك . وتابعهم المهاجرون . ثم التفت إلى الأنصار فتابعوهم فأقروا أن يترك الناس يصلون ولا يؤدون الزكاة . فإنهم لو دخل الإيمان فى قلوبهم لأقروا بها فقال أبو بكر : والذى نفسى بيده لأن أقع من السماء أحب إلىَّ من أن أترك شيئاً قاتل عليه رسول الله ﷺ إلا أقاتل عليه » [١] .

وفى رواية أخرى أن عمر قال لأبى بكر « يا خليفة رسول الله تألَّف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش » فقال : « أخرتَ نصرتك وجئتنى بخذلانك ! جبار فى الجاهلية خوَّار فى الإسلام . هيهات . هيهات . مضى النبى ﷺ وانقطع الوحى والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى » قال عمر : « فوجدته فى ذلك أمضى منى وأعزم منى وأدب الناس على أمور هانت على كثير من مؤونتهم » [٢] وعن أبى هريرة مثله إلا أنه زاد بأن عمر انبرى لأبى بكر يحدثه متلطفاً مهدئاً من عنف عباراته . قال : يا أبا بكر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله . قال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقال بعير [٣] كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه » وقال عمر : ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق [٤] .

---

(١) كنز العمال جـ ٣ ص ١٧١ . (٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٣) حبل الدابة . (٤) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٧٥ .

ثم عقد الخليفة [1] ألوية القتال والجهاد لأحد عشر قائداً من خيرة القواد رمى بهم إلى المرتدين فى قلب شبه الجزيرة العربية مصمماً على القضاء على تلك الحركة من جذورها وقمعها قبل أن يستفحل خطرها ، حيث أرسل خالد بن الوليد لمحاربة طلحة بن خويلد الأسدى ، ثم مالك بن نويرة التميمى . وبعث عكرمة بن أبى جهل لمنازلة مسيلمة الكذاب وشرحبيل فى أثره إلى اليمامة . أما عمرو بن العاص فقد أسند إليه إخماد فتنة قبائل قضاعة فى نجد . كما أرسل كلاً من العلاء الحضرمى إلى البحرين والمهاجر بن أميه إلى أتباع الأسود العنسى باليمن وسويد بن مقرن إلى أرض تهامه ، وحذيفة بن محصن إلى أرض عمان ، وعرفجة بن هرثمة إلى مهره . كما أرسلت الجيوش بقيادات إلى كل من بنى سليم وهوازن وتهامة اليمن وغيرها التى انساحت بقوتها إلى مكائد الردّة التى افتتنت فى أنحاء شبه الجزيرة العربية وأمر أبو بكر هؤلاء القواد جميعاً بدعوه المرتدين أولاً إلى التوبة والرجوع إلى الإسلام وإيتاء الزكاة فمن أجابه قبلوا منه ، « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » ، ومن امتنع قاتلوه حتى يجيب . كما أمر كل أمير أن يستنفر من مَرَّ به من المسلمين من أهل القوة وأن يخلف بعض أهل القوة لمنع بلادهم [2] .

كما أمرهم الخليفة – قبل استخدام السلاح – برد الشبهة التى نشأت بعد وفاة الرسول ﷺ بأنه مخلد لا يموت . فجعل مهمة القواد بيان تلك المسألة بأن الرسول بشر يموت كما يموت أى إنسان . وأن الخليفة له كل الحق

---

(١) « صاحب الحزم القوى الذى تصدى للردة التى نزلت به ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها » هيكل – الصدّيق ص ٩٩ .

(٢) راجع الطبرى جـ ٢ ص ٥٠٧ .

فى المطالبة بدفع الزكاة من كل مستطيع مالك لنصابها لأنها مستمرة أداؤها فى كل الأوقات [1] . ثم خرج أبو بكر على رأس جم من المهاجرين والأنصار لملاقاة من يفلت تجاه المدينة واستنهاض همة المقاتلين . أخرج الدارقطنى عن ابن عمر قال « لما برز أبو بكر واستوى على راحلته أخذ على ابن أبى طالب بزمامها فقال : إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ . أقول لك ماقال لك رسول الله ﷺ يوم أحد : شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام [2] . كما كلمه فى الرجوع إلى المدينة مجموعة من المهاجرين وقيل فى ذلك « إن أبا بكر لما بلغ نقعاً حذاء نجد وهربت الأعراب بذراريهم كلم الناس أبا بكر وقالوا ارجع إلى المدينة وإلى الذرية والنساء وأمِّر رجلا على الجيش . ولم يزالوا به حتى رجع بعد أن بلغ القصة من أرض محارب لتوجيه الزحوف إلى أهل الردة ومعه المسلمون وابن عم رسول الله علىّ يمسك زمام فرسه » [3] .

وترامى إلى أسماع أبى بكر أن رجلاً يريد مقابلته لأمر أضمره فجئ به إلى مجلسه بالمدينة وعلم الخليفة أن الرجل هو بجير بن إياس بن عبد الله

(١) البلاذرى فتوح البلدان جـ ٧ ص ١٠٣ ، وفى الطبرى صورة الكتاب الذى زود به الخليفة كل قائد تلخص منه « أنه من بلغنى كتابى هذا من عامة أو خاصة أقام على إسلامه أو رجع عنه سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة . فإنما تقر بما جاء به محمد ﷺ ونكفر من أبى ونجاهده ، ثم إن الرسول قد توفى وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذى عليه . وكان الله قد بين له ذلك لأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزل فقال « إنك ميت وإنهم ميتون » « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفا ىن مت فهم الخالدون » فمن هداه الله كان مهتديا ومن أضله كان ضالاً . وقد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان وإنى بعثت إليكم - فلانا - فى جيش من المهاجرين والأنصار التابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر كف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ويعاجله » تاريخ الأمم جـ ٢ ص٥١٤ .

(٢) السيوطى مرجع سابق ص ٧٥ . (٣) المرجع نفسه ص ٧٥ .

السلمي ينوى محاربة المرتدين بجهوده الخاصة ولكن ينقصه العدة التى تعينه على مبتغاه . فأعطاه الصديق سلاحاً وفرساً بعد أن قال له « يا خليفة رسول الله احملنى وقوّنى ، فحمله وقواه [(١)] »، لكن بعد أن مضى القادة الذين أرسلهم بجنودهم إلى أماكن الارتداد جاءت الأخبار المؤسفة : أن بجيرا هذا كان حربا على الإسلام أكثر من أعدائه حيث قتل عددا من المسلمين غيلةً وغدرا . ولما استفحل خطره وازدادت مآسيه بانضمام مجموعة من الأشرار قطعوا الطريق على السابلة للانتهاز والإستلاب . فكتب أبو بكر إلى قائده طريفة بن حاجز الذى وجهه لبنى سليم وهوازن أن يلى أمر المسلمين ويقاتل هذا الآثم . فحاربه طريقة وطارده حتى نجح فى احتجازه وأسره ومسيره حياً إلى المدينة . فأمر أبو بكر بإحراق بجير ذلك الغادر فى ناحية المصلى [(٢)] .

هذا الحكم على الرغم مما فيه من قسوة ظاهرة إلا أن هذا يتضاءل أمام ما اقترفه هذا الظالم - بجير - من مذابح لنفوس بريئة بعد أن أعطى العهد ، فعومل بجير - الغاشم الذى لم يرع الحقوق الإسلامية - كمواطن فى زمن الحرب . ومن فى مثل ظروفه يتهم بالخيانة العظمى - لأنه بدلا من أن يقتل أعداء الله قتل الرجال والنساء والأطفال والشيوخ المسلمين واستلب الأموال لاكتساب مغانم زائلة وهذا جزاء الظالمين .

والجدير بالذكر أن أشد المتنبيين خطرا كانوا ثلاثة : مسيلمة الكذاب وطليحة بن خويلد والأسود العنسى ، فضلاً عن الخطر الداهم الآتى من ناحية سجاح التميمية وقومها ، ومالك بن نويرة وجماعته .

---

(١) فتوح البلدان جـ ٧ ص ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٥

● طليحه بن خويلد :

تنبأ طليحة فى حياة النبى ﷺ وكان يدّعى بأن جبريل ينزل عليه بأخبار السماء وكان يحاول بعناده وصلفه أن يغيِّر ويبدل فى بعض الشعائر الإسلامية الصحيحة . فدعى أتباعه الذى أضلهم بسعيه إلى أداء الصلاة وهم وقوف فقط وأمرهم بترك السجود لأن الله لا يسمح بتعفير وجوههم . وقد ساعده على ادعاء الوحى أنه كان يقول السجع والشعر المنظوم على هيئة خاصة . وقد شايعه قومه من بنى سليم ابن خزيمة ودعوا إليه أحلافه من طيئ والغوث وغطفان وما جاورها من أهل البادية الواقعة شرقى المدينة ومن شمالها الشرقى أيضاً (١) .

وقد كان الذى قوّى أمرَ طليحة بعد ضعفه أن الرسول ﷺ أرسل ضراراً ابن الأزور مع مجموعة من الرجال إلى بنى سليم . وأمرهم بالقيام على كل من ارتد . فاشجوا طلحة وأخافوه . وتزل المسلمون بواردات والمرتدون سميراء (٢) وأمر المسلمين فى نماء وأمر طليحة فى انتكاس . وهمّ ضرار أن يأخذ طليحة سلما وضرب طليحة بالسيف فلم يضع السيف فيه شيئاً . وأشيع أن السيف لا يحيك فى جسده . وجاء الخبر بموت رسول الله ﷺ والناس على ذلك ، فانفض من كان مع ضرار عنه ، وعظم أمر طليحة (٣) واجتمع إلى عبس وذبيان من القبائل ما زاد هذا الدعى قوة واستفحالاً مثل غطفان وطئ وفزاره والتى اجتمعت في منطقة بزاخه (٤) معلنة ردتها وخروجها وخلعها سلطان الخليفة الأول أبى بكر . « وقام أحد زعماء فزارة

---

(١) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ٥٤ .

(٢) سميراء : هو موضع حول المدينة على طريق مكة .

(٣) الذهبى / سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١١٨ والترجمة بضرار بن الأزور .

(٤) بزاخة بضم الباء : ماء لطيئ بأرض نجد وقيل لبنى أسد . ياقوت / المعجم جـ ١ ص ٤٠٨ .

المسمى عيينة بن حصن فى غطفان ومن حالفها على القوة واستخدام السلاح فقال لهم جميعا : « ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بنى أسد ، وإنى لمجدد الحلف الذى كان بيننا فى القديم . ونتابع طليحة والله لأن نتبع نبيا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش وقد مات محمد وبقى طليحة » (١) .

وعبأ أبو بكر قواته لمنازلة تلك الجماعات وإعمال الحيلة فى تفريق تحالفهم ، فبعث إليهم - إطالةً للوقت - بكتاب يهددهم فيه بالقتال إلى أن يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى إسلامهم . وضرب بهم خالد بن الوليد وجعله هو الموكل بحربهم والقضاء على خطر طليحة . فعن حنظلة قال : « إن أبا بكر بعث خالدا وأمره أن يقاتل الناس على خمس ، من ترك واحدة منهن قاتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعاً : على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت . وسار خالد ومن معه فى جمادى الآخرة من السنة الحادية عشر من الهجرة ليقاتل بنى أسد وغطفان ومن تابعهم (٢) . ثم أشاع الخليفة فى الأنحاء بأنه ذاهب بنفسه إلى القصة - من أرض محارب حتى يكون عضدا لخالد بن الوليد . ثم طلب من عدى بن حاتم أن يذهب إلى قبيلة طيئ يخوفهم عاقبة أمرهم إذا أصروا على ردتهم . وفى الوقت نفسه اتجه خالد ناحية أجأ معلنا أنه ذاهب إلى خيبر - كنوع من التمويه الحربى - فأقعد ذلك طيئ ويطأهم عن طليحة القابع بسميراء قبل انتقاله إلى عين بزاخة فذهب عدى إلى بنى طيئ يدعوهم ليرجعوا إلى الإسلام وليكونوا مع أبى بكر فقال عدى لمن لقيهم منهم « لقد أتاكم قوم ليبحن حريمكم ولتكننه بالفحل الأكبر فشأنكم به . فقالوا له : فاستقبل الجيش فنهنهه (٣) عنا

---

(١) ابن الأثير / الكامل جـ ٢ ص ٢٣٢.   (٢) السيوطى / مرجع سابق ص ٧٥ .

(٣) أى كفه عنا .

حتى نستخرج من لحق بالبزاخه منا فإنا إن خالفنا طليحة وهم فى يديه قتلهم أو ارتهنم . فاستقبل عدى خالدا وهو بالسنح (١) فقال يا خالد أمسك عنى ثلاثا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك . وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار وتشاغل بهم . ففعل . فعاد عدى إليهم وقد أرسلوا لإخوانهم أن يأتوهم . فأتوهم من بزاخة كالمدد لهم ولولا ذلك لم يتركوا . فعاد عدى بإسلامهم إلى خالد وارتحل خالد ناحية الأنسر يريد جديلة فقال له عدى : إنا كالطائر وإن جديلة أحد جناحى طيئ ، فأجِّلنى أياماً لعل الله ينقذ جديلة كما أنقذ الغوث ففعل فأتاهم عدى ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاءه بإسلامهم ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب (٢) .

سار خالد بجيشه ومن انضم إلى طلائعه من طئ وجديلة للقاء طليحة فى عين بزاخة بأرض نجد وقاتلهم وفرّق تجمعات غطفان وسليم وأسد كما قضى على بقايا المرتدين من عبس وذبيان بقيادة عيينة بن حصن الفزارى الذى وجد من شدة المسلمين وقوة ضرباتهم ما جعله يترك جنده يعانون الهزائم وذهب مسرعاً إلى طليحة فى خلوته التى اتخذها من وبر الإبل مدعيا أن جبريل يأتيه (٣) فدخل عليه عيينة وقال له : هل جاءك جبريل ؟

---

(١) ضاحيه بأطراف المدينة .

(٢) ابن كثير البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣١٤ ، ٣١٥ ، ومما ساعد فى نجاح مهمة عدى بين قبيلتى طئ وجديلة اطمئنانهم إلى رأيه بينهم فكانوا يسألون أنفسهم لم نقاتل أبا بكر وصاحبنا عدى لا يطلب إلينا إلا أن نقيم على ما كان عليه الأمر فى عهد الرسول ؟ وتحدث بعضهم إلى بعض فرأوا أن عديا على الحق وأنه يخلص لهم الرأى ويصدقهم النصيحة ولم يكن فى خلدهم أنه يذكره عدة المسلمين وعددهم أنه كان يريد أن يفزعهم ويروعهم وأدى مهمته الرائعة فى إبعاد طيئ وجديلة فكان عدى خير مولود ولد فى أرض طيئ وأعظمهم بركة ؛ مما أوهن من عزم طليحة وأضعف قوته فماذا يفعل بنبوته هذه وقد غادرته طيئ وجديلة ؟ دكتور هيكل الصدِّيق أبو بكر ص ١١٦ .

(٣) ابن كثير المرجع السابق ص ٣١٥ .

فيقول لا . فلما جاءه الثالثة قال : نعم . قال : فماذا قال لك ؟ قال : قال لى : إنّ لك رحاً كرحاه وحديثاً لا تنساه . قال عيينه : قد علم اللّه أن لك حديثا لا تنساه . ثم صاح فى قومه : يا بنى فزارة انصرفوا هذا كذاب . وانصرف عيينة فى سبعمائة فارس من بنى فزارة وطلب من عامه من تحالف مع طليحة أن ينفضوا عنه ويستسلموا (١) .

فهزم طليحة وجموعه المتنافرة وحينئذ أعد هذا المتنبئ فرساً له وهجينا لامرأته النوار تاركا عين بزاخة تطحنها السيوف الإسلامية . يقول الطبرى : إن طليحة أذعن للفرار ومضى هو وزوجته إلى بنى كلب حينما أحس بالخطر وثب على فرسه ثم حمل امرأته لينجو بنفسه وبها إلى أرض الشام وقال لقومه الذين قالوا له : ماذا تأمرنا ؟ قال : من استطاع أن يفعل مثل ما فعلتُ وينجو بأهله فليفعل . وكانت هذه خاتمة نبوته (٢) .

وقد وضع خالد حدا للقتال الدائر بعد أن أيقن أن رؤساء القبائل وعامتها الذين حاربوا فى صف طليحة قد عادوا وأنابوا وأقروا دفع الزكاة بل قالوا ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن باللّه ورسوله ونسلم لحكمه فى أموالنا وأنفسنا . وأرسلوا وفدا منهم للقاء أبى بكر فى المدينة (٣) وقد قال الصدّيق لقائده خالد بعد انتصاره على طليحة وأتباعه : احرص على الموت توهب لك الحياة » . وتتمة لذلك نقول « إن طليحة بن خويلد قد أسر فيما بعد وأرسل إلى المدينة وقبلت توبته بعد أن رجع إلى الإسلام واستحيا من مواجهة أبى بكر ثم انضم إلى خالد يقاتل معه . وقد أشار الخليفة على خالد أن يستشيره فى شئون القتال ولا يؤمره . كما سيكون له شان كبير فى فتوحات عمر (٤) ويقول البعض : إن طليحة بعد عودته إلى إسلامه وأقام

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٩ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢٤٧ .

(٣) ابن كثير المرجع السابق ص ٣١٩ .

(٤) الأزدى فتوح الشام ص ١٨٥ .

فى الشام حيناً أراد العمرة فمر بالمدينة فى طريقه إلى مكة ، وعرفه من عرفه من المسلمين فقالوا لأبى بكر : هذا طليحة قريبا من المدينة فى طريقه إلى مكة . فقال أبو بكر : وما أصنع به ؟ دعوه فقد هداه الله إلى الإسلام (١) .

● مسيلمة بن حبيب الحنفى :

كان مسيلمة من قبيلة بنى حنيفة التى تنزل أرض اليمامة . وقد ذكرت كتب التاريخ على اختلاف هوية أصحابها اسمه بصيغة التصغير تحقيرا واستهزاء به . وفى الحق أن مسيلمة « لما أسلمت قبيلته أرسلت إلى النبى ﷺ وقد أوفى السنة العاشرة من الهجرة وكان مع هذا الوفد مسيلمة وأصابه ضغن لما رأى التفاف المسلمين حول النبى وإحاطتهم به . ويحظى بكل معانى التقدير والحب والإخلاص أضمر فى نفسه أمر الادعاء « إذ لما عاد من المدينة تنبأ وزعم أنه شريك للرسول فى النبوة (٢) كما ادعى أن النبى نزل له عن نصف أرض المسلمين وكتب إلى الرسول فى آخر سنة ١٠ هـ يقول : من مسيلمة بن حبيب إلى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريش قوم يعتدون . وقد كتب الرسول ﷺ إلى مسيلمة « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » (٣) وقد كان هذا المتنبئ قد دس إلى الناس بعض المبادئ الإسلامية المحرفة كإقامة الصلاة التى جعلها ثلاث أوقات بدلاً من خمسة بحذف صلاة الفجر والعشاء ونبذ بعض الشرائع من قطع الأيدى والأرجل ودعا إلى الزهد والامتناع عن شرب الخمر والتقشف (٤) وقد بدت خطورته

---

(١) طه حسين – الشيخان ص ٨٢ .
(٢) تاريخ اليعقوبى جـ ٢ب ص ١٠٩ .
(٣) سيرة ابن هشام – جـ ٤ ص ٢٧٢ .
(٤) المقريزى – إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٥٠٨ .

عندما وحد صفوفه وعقد حلفا دينيا ودنيويا مع سجاح وهى امرأة نصرانية ادّعت النبوة وتعاطت العرافة فتبعتها قبيلة تميم ثم تزوج منها مسيلمة حيث كانت ديار قومها على مقربة من حدود بلاد فارس وكانت ذات كلمة نافذه فيهم فانضم منهم الكثير إلى جيش مسيلمة الذى بلغت قواته حوالى أربعين ألف رجل (١) .

وقد عقد أبو بكر لقتال تلك الجماعات بأرض اليمامة - القيادة لعكرمة ابن أبى جهل ، ثم وجه قوة على رأسها شرحبيل بن حسنة فى أثر جيش عكرمة ليكون دعماً له فى ملاقاة بنى حنيفة فى أراضيهم الواسعة التى تمتد حتى الخليج وتسكنها قبائل عديدة من بطون ربيعة ، وكانت بنو حنيفة معروفة فى تلك الجهات بأنها أقواها عدداً وشدة بأس وكانت أقوى من قريش فى الجاهلية وتطمع أن يكون لها منطقة نفوذ فى بلاد العرب (٢) تعجل عكرمة قبل أن يواتيه صاحبه « شرحبيل » ضمانا لأن يتفرد بالنصر الذى تحمس لتحقيقه فلقيت قوات مسيلمة قوات عكرمة وهزمه لقلة إعداد رجاله وقد حفزه هذا النجاح إلى التقدم نحو الشمال فلقى جيش شرحبيل فألحق به هزيمة أخرى كسابقه وعندما علم أبو بكر بتلك الأنباء المؤسفة كتب إلى شرحبيل ابن حسنة (٣) أن توقف ولا تتقدم حتى يأتيك أمرى . كما أرسل إلى عسكر عكرمة كتابه الذى كان ملخصه « يا ابن أم عكرمة لا أرينك ولاترانى على حالها لا ترجع فتوهن وامض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عمان ومهرة . وإن شغلا فامض أنت ثم

---

(١) المرجع السابق .

(٢) اليعقوبى جـ ٢ ص ١١٨ .

(٣) وقيل كتب إليه أبو بكر كتاباً آخر قبل أن يوجه خالد بأيام إلى اليمامة ومضمونه « إذا قدم عليك خالد ثم فرغتم إن شاء الله فالحق بقضاعه حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبى منهم وخالف » البداية والنهاية جـ ٦ ص ٣٢٥ .

تسير وتسير جندك تستبرئون من مررتم به حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبى أمية باليمن وحضرموت فى ظاهرهما [1] .

وقد أراد الخليفة أن يستفيد من عبقرية خالد العسكرية لقمع المرتدين من بنى حنيفة فرماه بهم ودعم هذا الجيش الذى عقد له اللواء بمجموعة من المهاجرين والأنصار فيهم خمسة من حفاظ القرآن وعدد ممن شهد بدرا فى مقدمتهم ثابت بن قيس وأبو حذيفة بن اليمان والبراء بن مالك وزيد بن الخطاب شقيق عمر . وقد قسم خالد جيشه إلى رايات من المهاجرين ومثلها من الأنصار وثالثة بمسلمى البوادى [2] ، وعندما جاءت الأنباء بمقدم جيش خالد إلى بنى حنيفة سار مسيلمة إلى مكان فى طرق اليمامة يسمى عقربا [3] كما تقدم خالد بطلائع جنده على كثيب يشرف على اليمامة . وقد نظم مسيلمة جنده بعد أن جعل الريف وراء ظهره والصحراء عن شماله فى أربعين ألف مقاتل أو يزيدون [4] .

وقد جاءت فلول هذا الخصم وشدد الحصار حول معسكره [5] ودارت رحى معارك فاصلة - شرسة - لم تشهد الجزيرة العربية لها مثيلا فى الضراوة والإحكام وكثرة المصابين والقتلى من الجانبين . فلم تسكن غبار تلك المعارك إلا وقد تحدد الموقف كله بهزيمة جيش مسيلمة الذى أحرج المسلمين

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٣٥٢ .

(٢) قسم خالد جيشه رايات فجعل على المقدمه شرحبيل بن حسنة ودفع لواء الأنصار لثابت بن قيس بن شماس أما لواء المهاجرين فكان من نصيب سالم مولى حذيفة بن اليمان وجعل أعراب الوادى كل على رايته .

(٣) عقربا فى طرف اليمامة على طريق النباج وهو من أعمال العرض (ياقوت) .

(٤) ابن كثير البداية جـ ٦ ص ١٠٦ .

(٥) خطب مسيلمة فى جنده قال : اليوم يوم الغيرة اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم .

فى مناوشات جزئية انتصر فيها بعد أن انكشف جيش خالد لكثرة ما فيه من الأعراب [١] وكادت الدائرة أن تسحق هذا الجيش الذى أخذ على غرة ، وقد وصل المرتدون إلى خيمة خالد التى كان فيها أحد الرهائن واسمه «مجاعة بن مرارة » [٢] وأرادوا الظفر بزوجة القائد إلا أن مجاعة تصدى لهم وهو فى حديده المقيد به قال مجاعة « مه أنا لها جار فنعمت الحرة عليكم بالرجال » فزعبلوا الفسطاط بالسيوف . ثم إن المسلمين تداعوا فقال ثابت بن قيس : بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين اللهم إنى أبرأ إليك مما يعبد هؤلاء (يعنى أهل اليمامة) وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء (يعنى المسلمين) ثم جالد بسيفه حتى قتل [٣] . على أن المسلمين لم يتراجعوا حتى قتلوا من بنى حنيفة جماعات كثيرة فى رباطة جأش وقوة يقين بعد أن صرخوا فى القوم وصدقوا الحملة وتذامر زيد بن الخطاب وخالد وحذيفة « وتكلم الناس وكان يوم جنوب له غبار . فقال ابن الخطاب لما تكلم : لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمة بحجتى ، عضّوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما . ففعلوا فردّوهم إلى مصافهم حتى أعادوهم إلى أبعد من الغاية التى حيزوا إليها من عسكرهم . واستشهد زيد بن الخطاب وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال . ثم حمل فحازهم حتى أنفذهم وأصيب ، واشتد القتال وكانت يومئذ سجالا ، فكانت مرة على المسلمين ومرة على الكافرين [٤]

---

(١) راجع ابن كثير المرجع السابق جـ ٦ ص ٣١٩ .

(٢) هو رجل شريف كان يطلب ثأرا خاصا فى بنى تميم وقت هذا الصراع وأدرك ثأره مع أربعين من رجاله ثم عاد ، وفى الطريق لحق به خالد وظنه من بنى حنيفة وتشكك فيه فاستبقاه وتركه مقيدا فى خيمته وأوصى به امرأته أم تميم وقال لها استوصى به خيراً .

(٣) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ١٨ ترجمة ثابت .

(٤) المقريزى : إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٥١٣ .

وتنادى كبار الصحابة الذين ارتفعت معنوياتهم إلى ما فوق الرغبة فى الحياة فاسترخصوها فى سبيل الله - على خالد أن يميزهم عن مسلمى البوادى فاستجاب القائد وقال « أيها الناس امتازوا لنعلم بلاء كل حى ولنعلم من أين نؤتى . فامتاز أهل القرى والبوادى وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحضر فوقف كل بنو أب على رايتهم وقال أهل القرى : نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم ، قال أهل البادية : إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب فسترون إذا امتزتم من أين يجئ الخلل . فامتازوا واستحر القتال فما رؤى يوم كان أحد ولا أعظم نكاية مما رؤى يومئذ . ولم يدر أى الفريقين كان أشد فيهم ، إلا أن المصيبة كانت فى المهاجرين والأنصار أكثر منها فى أهل البادية (١) .

وقد تمكن المسلمون بفضل هجمات خالد الماهرة أن يحققوا النصر الساحق على عدوهم . وعرف خالد أن تلك المعارك لن تحسم إلا بقتل مسيلمة إذ لم تحفل بنو حذيفة بقتل من قتل منهم ، ولما أيقن مسيلمة بأن الدائرة كانت على قومه أسرع بالانسحاب إلى ريف اليمامة المزروع ليتحصن هو ورجاله بين الأشجار ، وبايع الكثيرون من جل البدريين وحملة القرآن على الموت فى صدق وإيمان فاقتحموا على بنى حنيفة مكانهم الذى تحصنوا داخله وتلاحما فى مذبحة رهيبة منى فيها الطرفان بخسائر فادحة وأعمل المسلمون السيف فيمن وجدوه من أتباع مسيلمة بعد انكسارهم فقال مسيلمة حين قام وقد تطاير الناس عنه وقال قائلون : فأين ما كنت تعدنا ؟ فقال : قاتلوا عن أحسابكم . ونادى مناديهم للحديقة « حديقة الموت » ، فولجوها وأغلقوا عليهم وأحاط المسلمون بهم ، وصرخ البراء بن مالك وقيل أبو دجانة

(١) نفسه جـ ١ ص ٥١٤ .

الساعدى [1] : يا معشر المسلمين احملونى على الجدار وذلك لأجل أن لا يفر من المسلمين أحد فاءما النصر وإما الموت . وقد كمن البراء ووحشى الحبشى [2] لمسيلمة ، فأسرع وحشى إليه بحربته المسمومة وأجهز عليه الأنصارى بسيفه وسط تكبير المجاهدين جميعا . وشاهدت امرأة من القصر مقتل مسيلمة فصاحت وا أمير الوضاءة قتله العبد الأسود [3] . وكانت هزيمة ساحقة لبنى حنيفة التى تحطمت قواها بعد سويعات من مقتل متنبئهم الكاذب ، وقد سمى هذا المكان الذى جرت فيه تلك المعركة الأخيرة حديقة الموت وسمى يوم المعركة يوم اليمامة [4] . وقد قتل فى أرض اليمامة نحوا من إحدى وعشرين ألفا من بنى حنيفة وقتل من المسلمين نحو ألف ومائتى رجل منهم نحو خمسمائة من القراء حفظة القرآن فى مقدمتهم أبو حذيفة بن عتبة وسالم مولى أبى حذيفة وشجاع بن وهب وزيد بن الخطاب وعبد الله بن سهل ومالك بن عمرو والطفيل بن عمرو الدوسى ويزيد بن سماك بن حرب . ومعن بن عدى وثابت بن قيس بن شماس وجماعة آخرون رضى الله عنهم فى الأولين والآخرين [5] .

خرج خالد بعد هذا النصر ومعه مجاعة بن مرارة مكبلاً بأغلاله ، وصار يتفقد القتلى ليتفرس بين وجوه القتلى على مسيلمة ، ومر خالد بأحد القتلى

---

(١) إمتاع الأسماع ص ٥١٤

(٢) وحشى كان له مع الإسلام سجل من الآلام لقتله أسد الله حمزة بن عبد المطلب فبعد أن حسن إسلامه بعد فتح مكة أراد أن يقدم للإسلام عملا يحاول أن يخفف من غلواء النفوس ورصيد الكراهية له من عمله الشنيع فخلص الإسلام من شر مسيلمة .

(٣) ابن كثير البداية ج ٦ ص ٣٢٣ ، الصدّيق أبو بكر هيكل ص ١٣١

(٤) هيكل المرجع السابق ص ١٣٤

(٥) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٧٦

فسأل مجاعة أهذا هو ؟ قال لا هذا خير منه هذا « الرجل بن عنقوة » ، ثم مر برجل أصفر أخنس فقال مجاعة هذا صاحبكم . قال خالد قبحكم الله على اتباعكم هذا - وكان يقصد بني حنيفة [1] . وقد أراد خالد أن يهاجم الحصون إلا أن مجاعة بن مرارة صالحه على أن يحقن دم المقاتلة وأن يأخذ ما عندهم من نقود الذهب والفضة والسلاح وربع السبى ، وكان خالد قد رأى ما أصاب المسلمين من الجهد وهم يخرجون من حرب إلى حرب فقبل مبدأ الصلح على الحصون ، وبعد أن تم الاتفاق ورد على خالد كتاب أبى بكر يأمر بقتل مقاتلتهم ، فوفى خالد القوم بما عاهدهم به بعد أن كتبت الشروط فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً وفاءوا إلى الحق [2] .

وأرسل خالد - بعد معركة اليمامة مباشرة - وفدا من بنى حنيفة بعد أن رجعوا إلى الإسلام لمقابلة أبى بكر بالمدينة ، قال لهم الخليفة حين قدموا عليه : ويحكم ما هذا الذى استنزل منكم ؟ قالوا يا خليفة رسول الله قد كان الذى بلغك مما أصابنا كان امرءاً لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه . ثم سألهم فى بعض أسجاع مسيلمة فتلوا عليه شيئا منها [3] فقال : سبحان الله ما خرج هذا من ير أبداً ، فأين يذهب بكم ؟ [4] .

● الأسود العنسى :

اسمه الأصلى عيهلة بن كعب ، ولقب بالأسود لسواد لونه ، وهو من قبيلة

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٥١٩

(٢) المرجع السابق ص ٥٢٠ .

(٣) كانت خرافات مسيلمة مثل « والليل الدامس والذئب الهامس ، ما أقطعت أسيد من رطب ولا يابس » وقال يقول « والمبذرات زرعا والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، أهالة وسمنا . لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدن دينكم فامنعوه . والمعتر فأووه ، والباغى فناوءوه »

(٤) نفسه ص ٥٢١

مذحج ، وقد ادعى النبوة وحاول إقناع قومه ، فآمنوا بنبوته الضالة المضللة في البحرين وعمان وحضرموت واليمن ، وكانت حركته تقوم على أساس إثارة الروح القومية في أبناء جلدته اليمنيين وتبعه خلق كثيرون ممن يميلون إلى الفوضى والإباحية [١] وأغار الأسود على أطراف الدولة الإسلامية باليمن واستطاع أن يطرد عمال المسلمين منها . على أن خطر الأسود - الشديد الوطأة في الجنوح والظلم - لم يقتصر على اليمن وملحقاتها بل تعداها إلى الحجاز حيث وصل نفوذه إلى الطائف بجوار مكة ، وخشى النبي ﷺ أن يزداد خطر الأسود ، فاتخذ الوسائل المناسبة للقضاء عليه وما هو إلا كاهن كان يقيم بكهف حبان بجنوب اليمن وزعم أن له شيطانا يخبره بالغيب فكان يلبس خماراً على وجهه كعادة الكهان . كما أنه أباح الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأشاع الفساد [٢] . وكان عامل الرسول على اليمن منذ أسلمت باذان أحد الأبناء [٣] فلما مات هذا الأمير فرق الرسول ﷺ عمله بين رجال عدة ، واحتفظ لشهر بن باذان بإمارة صنعاء وجعل معاذ ابن جبل معلما يفقه الناس في أمور دينهم في مساجد مدن اليمن جميعا [٤].
وكان الأسود ينظر إلى الأبناء والمسلمين نظرة واحدة حيث اعتبرهم دخلاء على اليمن لا يحق لهم أن يمارسوا نفوذا على أرضها ، وقويت حركته وانضمت إليه بعض القبائل وغزا نجران فدانت له ، ثم قصد صنعاء فتغلب عليها . وقد قتل الوالي شهر بن باذان أثناء قتاله مع الأسود [٥] ويقال إن

---

(١) محمد الخضرى ، إتمام الوفاء بأخبار الخلفاء ص ٤٦

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ١٤٦

(٣) الأبناء هم الجماعة التي أقامت باليمن من الفرس منذ أن احتلتها القوات الفارسية قبل الإسلام ، وقد أطلق العرب على هؤلاء الأمراء لقب الأبناء .

(٤) راجع ابن الأثير ج ٢ ص ١٤٥

(٥) الخضرى مرجع سابق ص ٤٦

زوجته الفارسية آزار هى التى تآمرت ضده ودبرت خطة التخلص منه ، ولما تم للأسود ما أراد تزوج هذه المرأة الموتورة [١] ولما بلغ الرسول ﷺ انضمام القبائل اليمنية إلى الأسود واتساع سلطانه أرسل إلى ولاة المسلمين باليمن يأمرهم بالقيام بأمر دينهم ومناهضة الأسود وإن وزيريه الفارسيين راذويه وفيروز الديلمى كانا لا يضمران له الولاء واتفقت كلمتهما على التخلص منه فاتفقا عليه وقتلاه ذات ليلة ليلاء عليه وعلى أتباعه ، ثم نودى بعدها بأذان الإسلام وتحققت كلمة الجماعة [٢] .

غير أن قتل الأسود [٣] لم يقض على حركته تماما لأن الكذاب العنسى نجح فى أن يصطفى كثيرا من عرب اليمن ، وجند جيشاً كثيفاً لغزو الشمال بقيادة قيس بن عبد يغوث بمعاونة عمرو بن معد يكرب الزبيدى بلغت أعداده سبعمائة فارس مجهزة بالأسلحة القوية ، إذ بموته ظن المسلمون فى صنعاء وما وليها أن جو البلاد قد صفا ، لكن لما داهمهم خبر وفاة رسول الله ﷺ عاد الأمر إلى أشد مما كان عليه وارتدت العرب وعادوا إلى الخلافات تابعين لبعض الرؤساء ، فبعث أبو بكر إلى من بقى على إسلامه من سادة اليمن ورؤسائهم يأمرهم بالثبات على أمرهم والوقوف حيال المرتدين وأن يكونوا عوناً لفيروز - الذى عينه الخليفة والياً على البلاد - حتى توافيهم النجدات [٤] واجتمع لفيروز جموع من المخلصين من عرب اليمن المسلمين ، فنازل قيس بن عبد يغوث ، وقاومه بهؤلاء الرجال وصمد لأتباع الأسود

---

(١) الطبرى تاريخ الأمم ج ٣ ص ٢٢٧

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ١٤٦

(٣) بشر النبى بقتله من السماء قبل وفاته ، وأخبر المسلمين ، وجاءت البشرى لأبى بكر أول توليه الخلافة واستتب الأمر فى اليمن .

(٤) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣١١

الذين كانت هجماتهم تتميز بالشراسة والعدوان ولم يمض كبير وقت حتى اتخذ الخليفة أبو بكر الخطة الكفيلة بالقضاء على أعوان الأسود وعلى رأسهم ابن عبد يغوث وابن معديكرب وذلك بجيش كبير بقيادة المهاجر بن أمية كما أرسل إلى عكرمة بن أبى جهل ليكون فى أثره معاونا ومظاهراً له فى الضربات والحماية فى الوقت المناسب وليعاونا الأبناء بقيادة فيروز ، وبعد مناوشات عنيفة هزمت فيها جموع أتباع الأسود التى تجمعت على أشر مسعى وأخس مبتغى بعد مآسى ومذابح ودماء أسيلت فى طرقات اليمن (١) وقد نجح المهاجر ومعاونه عكرمة أن يعيدا ملك البلاد إلى بيضة الإسلام بعد أن أسرا رؤوس الفتنة الأخيرة « قيس بن عبد يغوث وعمرو بن معد يكرب » وبعثاهما إلى المدينة مخفورين بالأصفاد يجمعان مع عار الردة والهزيمة انكسار الخزى والندامة ليرى الخليفة فيهما رأيه . قال ابن جرير الطبرى « لما جئ بقيس وعمرو أسيرين إلى أبى بكر ، أنب قيساً على عمله الشرير ، كما وبخ عمرو على كل ذنوبه وآثامه السابقة قال أبو بكر « يا قيس قتلت عباد الله واتخذت المرتدين وليجة من دون المسلمين » وهمّ أبو بكر بقتله ، فأنكر قيس قتل داذويه ، ولم تكن هناك بينة تدين قيساً بقتل داذويه لأن قتله كان خفية فتجافى أبو بكر عن دمه ، ثم قال أبو بكر لعمرو بن معد يكرب « أما تستحى إنك كل يوم مهزوم أو مأسور لو نصرت هذا الدين لرفعك الله » فقال « لا جرم لأقبلن ولا أعود » ثم تجاوز عنه وخلى سبيله وردهما إلى عشائرهما أتباعاً لهذا الدين بعد أن كانا حربا عليه (٢) . وقد سار المهاجر بن أمية من نجران ليطهر الجيوب المتبقية

---

(١) عبد الوهاب النجار الخلفاء الراشدون ص ٥٥

(٢) تاريخ الأمم ج ٢ ص ٥٤٢

من أدران الردة باليمن فأمر جنده أن يتعقبوا العصابات المتمردة التى أثارت الفساد فى الأرض من عهد الأسود وأن يقتلوا من ثقفوه منهم لا يقبلون منهم توبة ولا إنابة ، وإنما قبل من أناب من غير المتمردة ، أما عكرمة فقد بقى فى جنوب اليمن بعد أن استبرأ النجع وحمير [1] بذلك عادت اليمن كلها آمنة مطمئنة ورجع أهلها إلى دين الله الحق [2] .

أما الحجة الواهية التى يجسمها الغمازون على الخليفة الأول لنصرته عناصر الفرس فى البلاد على العرب فذلك مردود عليه بأن الإسلام – والحمد لله – لا يرى فرقا بين عربى وعجمى إلا بالتقوى « وأن ذلك لم يكن وحده الذى دعا أبو بكر لنصرة فيروز ومن معه على قيس ومن تبعه ، بل دعاه لنصرته كذلك أن الفرس أول من أسلم باليمن ، والسابقة فى الإسلام لها قدرها ثم أن العرب من أهل تلك البلاد هم الذين قاموا بالثورة على الدين الجديد ، قام بها الأسود العنسى مدعيا النبوة فى عهد الرسول وقام بها أنصاره من بعده ، وياذان وشهر وفيروز والفرس حولهم هم الذين قاموا بالدعوة للإسلام فى هذه الربوع ، وهم الذين استمسكوا به وقاوموا خصومه . وهم الذين أقاموا على الولاء بسلطان المدينة ولخليفة رسول الله حين ارتدت العرب كلها وتضرمت الأرض فى شبه الجزيرة ناراً . فلا عجب إذاً أن يؤيد أبو بكر فيروز بسلطانه وأن يمدّه بجنده وقواده . وأن يقيمه أميراً على صنعاء كما أقام النبى ﷺ شهراً أميرا عليها وكما أقام أباه باذان أميرا على اليمن كلها من قبله [3] .

---

(١) النجار / مرجع سابق ص ٥٦

(٢) هيكل / الصدّيق أبو بكر ص ١٧٣

(٣) النجار / الخلفاء ص ٥٧

● ردة أهل دبا ومهرة (١) :

قلنا من قبل إن الخليفة عقد لواء محاربة أهل دبا ومهرة لحذيفة بن محصن الغلفاني وعرفجة بن هرثمة ، وقد أمرهما أبو بكر أن يجتمعا وكل واحد منهما في عمله على صاحبه بعد أن زودهما بكتب الاستتابة للمرتدين في تلك الناحيتين ، وما كان - خبر عكرمة وهزيمته أمام أتباع مسيلمة بأن جعل الخليفة عضداً لحذيفة وعرفجة بعد عمان « فمضى عكرمة في أثر عرفجة وحذيفة فيمن كان معه حتى لحق بهما ، وقد عهد إليهم الخليفة أن ينتهوا إلى رأى عكرمة . وقد التقى ثلاثتهم على دبا ونظموا صفوفهم وبعدها وقع القتال واشتدت الحرب واقتتلوا مع المرتدين قتالا شديداً وكاد المسلمون أن يعظم بينهم الخلل لولا أن ترامت إليهم القوى من بنى ناجية وشواذب وعبد القيس فقوى الله بهم أهل الإسلام ووهن بهم الشرك ، فولى المشركون الأدبار فقتلوا منهم في المعركة عشرة آلاف وركبوهم حتى أثخنوا فيهم وقسموا الأموال على المسلمين وسبوا الذرية كما بعثوا بالخمس (٢) إلى أبى بكر مع عرفجة بن هرثمة (٣) وبعدها اتجهت القوات الإسلامية إلى بلاد مهرة ، فلما وصلها عكرمة وحذيفة لاحظا صراعا ناشبا بين قوتين على كل واحدة منها أمير ، وكانا في أشد التناحر والاختلاف ، فكان هذا أكبر حسم للقضية لمصلحة المسلمين . من ذلك أن عكرمة راسل أحدهما واسمه شخريت ليحسن له أمر الرجوع إلى الإسلام فقبل ذلك وأسرع هو وجنده في

---

(١) دبا : سوق من أسواق العرب بعمان . وعمان مدينة قديمة مشهورة لها ذكر من أيام العرب وأخبارها وأشعارها ، وكانت قديما قصبه عمان . ياقوت المعجم ج ٥ ص ٤٣٥ « أما مهرة فبلد تنسب إليها الإبل المهرية وباليمن . لها مخلاف بينه وبين عمان نحو شهر وكذلك بينه وبين حضرموت » المعجم ج ٥ ص ٢٤٣

(٢) كان الخمس ثمانمائة رأس وغنموا السوق بحذافيرها .

(٣) الطبرى المرجع السابق ج ٢ ص ٣٢٥

الانضواء تحت لواء المسلمين . وقد شجع هذا الإنجاز القائد عكرمة أن يراسل خصمه المسمى « المصبح » إلا أنه غوى وتجبر واغتر بعظم قوته إذ كيف ينضم إلى جيش فيه عدوه اللدود « شخريت » فازداد مباعدة وعتوا . فسار إليه عكرمة بالجيوش المجهزة معه وانضم إليهم والتقوا بجيش « المصبح » وتلاحمت السيوف فى معركة ضارية حيث كتب الله النصر للمسلمين بعد أن كشف الله جنود المرتدين وقتل رئيسهم ولقى مصيره العديد من جنده وركب المسلمون من نجى وأصابوا ما شاءوا وكان الذى أصابوه ألفا نجيبة ، فخمس عكرمة الفئ فبعث بالأخماس مع شخريت إلى أبى بكر وقسم الأربعة أخماس على المسلمين وازداد عكرمة وجنده قوة بالركائب والمتاع والأداة فأقام عكرمة فى مهرة حتى جمعهم على الذى يحب ، فبايعوا على الإسلام ، فكتب عكرمة بذلك للخليفة أبى بكر وبعثه مع البشير واسمه السائب من حى عابد من بنى مخزوم فقدم على الخليفة بأنباء فتح دبا ومهرة وصليت الجماعة فى إغمائهما (١) .

● وخلاصة القول :

فإن فلول المرتدين أعلنت جماعاتها على ندمها وتبرؤها من مقترفاتها وسخف أعمالها . وغادت خاضعة لسلطان الخليفة أبى بكر الذى أيده الله بالنصر المبين وفى أقل من عام حيث نابت كل القبائل - الكافرة والنافرة - إلى سابق عهدها بالإسلام كما عاد الإسلام إلى سابق قوته وفى ذلك ما يدل على بعد نظر الصدّيق وقوة عزيمته حيث عظمت دولة الإسلام وتدعمت أركانها فى عهده واعتصم - من أظلته شبه الجزيرة بصفائها - بحبل الدين القويم .

---

(١) ابن كثير البداية ج ٦ ص ٣٢٩

على أن هناك بعض الأسباب التى أدت إلى هذا الخطر الذى واجه سياسة الخليفة الأول . نجملها فى عدة نقاط أساسية :

أ - ارتدت بعض القبائل العربية لأن الإسلام لم يكن قد تمكن بعد من قلوبهم ، بل لامس شفاههم فقط والعديد من أفرادها أعلن إسلامه إما تقليداً لزعمائهم « والناس على دين ملوكهم وأمرائهم » ، أو خوفا من مواجهة القوات الإسلامية الظافرة . ولما بدت علامات الشقاق الظاهر فى مؤتمر السقيفة ظن هؤلاء المرتدون إنه الخلاف الذى يؤدى إلى تفتيت وحدة الكلمة الإسلامية ، فقامت قيامتهم ، فأرادوا تحويل الجزيرة إلى جحيم تغلى فى أتونه ألسنة الفرقة والفتن الملتهبة ، لولا رحمة الله .

ب - عودة النعرة القبلية القديمة التى حاول الإسلام بتعاليمه السمحة أن يزيلها من النفوس ، إلا أنها عادت فور وفاة المصطفى الأعظم ﷺ ، تلك النعرة الهادمة التى أضعفت شأن البطون العربية وشتتتها فى حروب مستعرة لا طائل من ورائها . وهى التى جعلت بنى حنيفة ينضمون - دون تفكير - إلى مسيلمة الذى ادّعى النبوة فى أرض اليمامة وساندوا دعوته على الرغم من معرفتهم بعدم صدقه وإنه غاش حتى إن بعضهم كان يردد أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمداً صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر (١) . وكانت تلك العصبية موجهة بالدرجة الأولى ضد قريش بعد انتخاب أبى بكر فاعتقدوا أنه لو تمكن من أمر الخلافة - بعد وفاة الرسول القرشى - فسيحكم وفق هواه مغلباً مصلحة قومه على سائر القبائل الأخرى ، فترجح كفة الميزان السياسى داخل الجزيرة وخارجها لصالح قريش .

جـ - ساعد على إثارة ذلك الخطر المدمر تضافر جهود أعداء الإسلام الذين

---

(١) المسعودى / مروج الذهب ج ٢ ص ٤٠٩ . قالها عيينة بن حصن سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٢٧٢

وجدوها فرصة ذهبية لعودة أمجادهم المضيعة ، فتولى تحريك ألسنة النيران كلما خمدت عدد كبير من الدول والإمبراطوريات فضلا عن اليهود الناقمين على منجزات الإسلام فى الشام واليمن وآسيا وأوروبا وأفريقيا ، كما قام بها بنصيب وافر الغساسنة بأطراف الشام والمناذرة بالعراق ، وكان الهدف الظاهر دون ريب تدمير القوى الإسلامية ومحاولة وقف مسيرتها الظافرة المتدفقة .

د - وهم خلود النبى : اعتقد الكثير ممن لا عقل لهم أن الرسول مخلد لا يموت ، حتى وصل حد الإفتئات والظلم فقالوا « لو كان محمد نبيا لما مات » إلا أن الجارود بن المعلى فى قرية بحرينيه اسمها « جواثا » تصدى لقومه قائلا يا بنى عبد القيس إنى سائلكم سؤالا فإن علمتم جوابه فأجيبوا وإن لم تعلموا فلا تجيبوا (قال) أتعلمون إنه كان قبل محمد أنبياء ؟ قالوا : نعم ، قال : فأين هم ؟ قالوا ماتوا (قال) فإن محمد قد مات وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، قالوا ونشهد أن لا إله إلا وأن محمد رسول الله ، وأنك أفضلنا وسيدنا [1] .

هـ - تحقيق أمجاد شخصية وزعامات كاذبة لرؤوس الفتن مسيلمة بن حبيب والأسود العنسى وطليحة الأسدى والكاهنة التميمية سجاح [2] ولا يهم مبلغ الخسائر التى أريقت فيها الدماء واستنزاف المؤن الكثيرة والأموال الطائلة التى كانت تحتاجها ميزانية دولة فتية - دولة الإسلام - المهم أن يصلوا إلى أطماعهم ، وقد ساعدهم على الاستمرار انضمام بعض القبائل وزعمائها وعرب البوادى الحاقدين على الدعوة الهادية وأصحابها ، فادعوا جميعا النبوة وأحاطوا أنفسهم بهالة بازغة من القدسية الزائفة . واحترفوا

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٣٤٦

(٢) أرادت أن يكون للمرأة دوراً فى هذا العصر وأن يرتفع صوتها لجا بالتنبوءات الكاذبة .

الكهانة وادعوا علم الغيب وأن الشياطين (١) تخبرهم بأمور الناس ، ولا يهم بعد ذلك أن تشرد الأسر العريقة فى الحضارة أو تهدم تلك الدولة أو يستشهد الجواهر النادرة من خيرة الرجال - حملة القرآن دستور الدعوة الإسلامية - المهم أن تحل دعاويهم الباطلة محل الدعوة الراشدة . وأن يظفروا بزعامة العرب على جثث الأبرياء غصباً واقتداراً .

وهنا ظهرت شخصية الصديق فى وضح نهار التاريخ عظيمة تسفر عن معدنها الأصيل الذى تصوغها نيران الأحداث . فى تلك الأحداث الخطيرة التى تضافرت فيها عوامل الشر الوبيل وقف الرجل - ليكون أسوة حسنة لمن دونه من الحكام والولاة - فى بأس يفوق أعتى القوى وحزم لا يلين أبداً وشجاعة وإيمان بأن النجاح سوف يكون حليف القضية التى يحارب للمحافظة عليها . فوطد عزمه على مقاتلتهم وإخماد حركاتهم مهما كانت النتائج ، فوجه الحملات التى أرسلت إلى المرتدين فغطت أنحاء شبه الجزيرة العربية كما استعان بماله الخاص الذى بلغ أربعين ألف دينار ذهبى أنفقها فى تجهيز تلك الجيوش وتسييرها (٢) كما أنه وقف فى مواجهة بعض مستشاريه الذين طلبوا منه فى غضون الأزمة أن يلتزم السكينة لقلة عدد المخلصين ، وحتى لا يقول من كان خارج أرض الإسلام من الأعداء أن العرب يقاتل بعضهم بعضا . فلم يلتفت إلى هذا الرأى وصمم على القضاء على المتنبئين والمرتدين ومانعى الزكاة ، وقد تجمعت العداوات وكثرت الإهاجات وانتهى كل ذلك بتفوق القادة الذين اختارهم - بعبقريته الحربية - فرمى بهم أعداءه واجتاز أخطر المصاعب بعد أقل من عام وبعض عام من وفاة النبى الأكرم ﷺ . ولا يقدح من جهوده الموفقة عدم التفاف القبائل الجانحة

---

(١) اختاروا لأنفسهم الوسائل المناسبة التى تمدهم بالضلال .

(٢) ابن كثير / المرجع السابق ج ٤ ص ٣٢٩

إلى الارتداد فى كيان واحد وذلك بسبب طبيعتها البدوية ونعرتها التى تقسمتها الخلافات وفتنتها الأهواء [1] بل إن ذلك كان رحمة من الله لعبده الصالح أبى بكر الذى جيش زحوفه المتماسكة كالبنيان المرصوص يشد بعض أركانه البعض الآخر ، بل لم يتوقف لحظة واحدة ومعه التاريخ يستحثه للفتح خارج أرض الجزيرة حتى تزداد رقعة دولة الإسلام مع صفحات مشرقات فى تاريخ الجهاد الإسلامى الذى يقتضى المزيد من البطولات وكلها إنجازات تحققت طفرة واحدة ولدت وقت الأزمة وحرك أبو بكر الدفة لصالح الدولة التى اختاره المسلمون ليحكمهما ، وسوف يبين الفصل القادم أن أبا بكر قد وصل بجهده إلى ما أراد من إظهار تعاليم الإسلام فى العراق والشام ، فازدادت رقعة الدولة ، والحمد لله .

* * *

---

(١) جروينباوم / حضارة الإسلام ص ١١٨

الفصل الخامس
الفتوحات الإسلامية فى عهد أبى بكر

لا يختلف اثنان على أن أبا بكر كان له الفضل الكبير فى تدعيم صروح الإسلام وتوطيد قوى العرب ، وجعل للدولة التى يحكمها هيبة سياسية وسلطة نافذة وجيشاً كبيراً حقق من خلاله الأسس الموضوعة للفتوحات وذلك بعد أن اطمأن خاطره إلى عودة الدولة الإسلامية إلى سابق بريقها وقوتها ورسوخ مكانتها كما هو العهد بها قبل وقوع الفتن السابقة ، ولا شك أن الحماسة المتدفقة التى أودعها الرسول ﷺ وخليفته من بعده فى روح الأبطال المسلمين ، كانت من العوامل المؤثرة فى تدعيم الفتح الإسلامى واستمرار البعوث لأطراف الجزيرة العربية وتخومها والبلاد الواقعة خارجها لإحياء كلمة الإسلام فى تلك البلاد ونشر تعاليمه بين ربوعها والتى كان أهلها يجهلون حقيقة ذلك الدين القيم . كما أن هناك حقائق ماثلة تحقق رغبة خاصة عند الخليفة الأول أبى بكر تتواكب مع طلائع الفتح المبين ، فى الأقاليم المتعددة الجهات والجبهات فى أرض العراق والشام ، استقيناها من بين ثنايا الأحداث المضطرمة السابقة . وقد أثبتها الطبرى وابن الأثير وابن سعد والسيوطى وابن خلدون فى أسفارهم المعتبرة [1] فكان لزاماً أن نبرزها أولا .

(١) صرف أنظار الأنصار عن التفكير فى شأن الخلافة : تلك التى كانت من نصيب المهاجرين ، خاصة عندما وجد الخليفة أبو بكر أن

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ، الكامل ج ٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٦ ، وطبقات ابن سعد ج ٤ ، تاريخ ابن خلدون مع المقدمة .

سكوت البعض كان على مضض [1] وأن زعماء المعارضة قد هددوا فى مؤتمر السقيفة بحمل السلاح وفى مقدمتهم سعد بن عبادة وأهله حتى يعود إليهم ما اعتقدوا أنه من حقهم [2] .

(٢) الميل الفطرى للقتال : والذى كانت تتميز به بطون العديد من القبائل العربية حيث كانت تقاس أمجاد الرجال بما حققوه من انتصارات شخصية وفى حروب داخلية ، فكان الرجل يفاخر بعدد ما أذل من الأعناق وكم من الأبطال تصدى فى منازلاته وما إليه من الأمجاد الخاصة التى تتضاءل بجانبها كل ما عداها من مكتسبات الحياة ، فبدلا من استنزاف الجهود فى منازعات داخلية استفاد الخليفة أبو بكر من هذا الميل بتوجيهه إلى أرشد السبل وخدمة الدين لنشر مبادئه السامية فى أرجاء المعمورة الأرض ، ودفاعاً عن الإسلام ضد أعدائه المتربصين به .

(٣) توبة المرتدين : إن الإرادة القوية التى أحاطت بالعديد ممن بقى من المرتدين على قيد الحياة وإعلانهم عن تقديم كل ما من شأنه أن يزيل من النفوس الإسلامية تلك الآثار السيئة التى أحدثوها . وانقلاب صنيعهم فجاهر العديد منهم بصدق النية فى الانضمام إلى صفوف الطلائع الإسلامية طمعاً فى نيل الشهادة فى ميادين القتال حتى يكفروا عن بعض خطاياهم التى ارتكبوها فى حق الله ورسوله وذلك بعد أن تخلصوا من تراكمات الأحقاد التى غلفت قلوبهم ، وكان الموت فى سبيل الله أحب

---

(١) مثل الحباب بن المنذر الذى نادى على بشير بن سعد فور بيعته داخل السقيفة فقال له : «عاقك عائق ؟ ما اضطرك إلى ما صنعت ؟ أنفست على ابن عمك الإمارة » .

(٢) قيل إن الحباب قام إلى سيفه فأخذه فبادروا إليه فأخذوا السيف منه فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة ، فقال الحباب : فعلتموها يا معشر الأنصار ، فقال له أبو بكر : أمنا تخاف يا حباب ؟ (قال) ليس منك أخاف ولكن ممن يجئ بعدك » طبرى ج ٢

إليهم من الحياة ، صحيح أن أبا بكر قد صمم على إطالة مدة الحظر من استخدامهم حتى يحول بينهم وبين هذا الشرف الذى اشرأبت إليه نفوسهم كنوع من العقوبة النفسية استمرت إلى قبيل وفاته بمقولة إن الإسلام ليس فى حاجة إلى من كانوا حربا عليه إلى فك هذا الحظر وبدت بطولات رجال منهم كطليحة الأسدى الذى انضم إلى جيش خالد ليقاتل معه وقد أشار أبو بكر على خالد أن يستشيره فى شئون القتال ولا يؤمره [١] . وسوف تسجل صفحات مجيدة للبطولة والإقدام فى يوم اليرموك للعديد منهم فى مقدمتهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى وقيس بن مكشوح وطليحة أيضاً .

(٤) تحقيق الوحدة : حيث رغب أبو بكر فى إنجاز عظيم هو تأليف القلوب وتلاحمها على الحب والمؤازرة فى وحدة عربية متماسكة تحت راية الإسلام لا فرق بين قرشى وغير قرشى ، وكان الهدف المرجو نشر الدين الإسلامى - كما قلنا - خارج شبه الجزيرة العربية والإنسان خارج وطنه يحس بتشابك المشاعر القلبية مع أبناء جلدته ، وقد ظهر ذلك واضحا فى حالة الحروب - التى سوف تغطيها الصفحات القادمة - ضد الفرس والرومان ، فلم يعتر المجاهد المسلم شعور بالوحشة عندما كان يحارب فى العراق والشام لأن القطرين كان يقيم بهما بعض القبائل العربية العريقة . حيث يوجد بالعراق قبائل مثل بكر وتغلب وبالحيرة المناذرة ، أما فى تخوم الشام فكانت قبائل قضاعة والغساسنة تتخذان منها مكانا لإقامتهما ، فغزو هذين الإقليمين هو فى واقع الأمر غزو الجندى العربى لأرض عربية فلم يحس بغربة أو وحشة إطلاقاً .

---

(١) ابن كثير البداية ج ٦ ص ٣١٩

● فتح العراق :

بعد أن فرغ الخليفة أبو بكر من القضاء على كل فتن الردة شرع فى إرسال الزحوف وتحشيد القوات الإسلامية للذهاب إلى العراق والشام دفعة واحدة . فما كاد الجند ينصرفون من بلاد البحرين بعد انتصارهم على فلول الارتداد حتى أتته الأنباء برغبة بعض القبائل - بكر وربيعة - لإتمام الزحف نحو العراق خاصة وان العديد من القبائل نظرت إلى الدولة الإسلامية بعيون الإكبار والإعجاب ، وأن تلك القبائل قطعت كل جسور التعامل مع الدولة الفارسية سياسيا واقتصاديا ، الأمر الذى شجع أبا بكر على الاستنفار للذهاب لمعاونة تلك القبائل والتى كان على رأس سادتها القائد المظفر « المثنى بن حارثة الشيبانى » من قبيلة بكر بن وائل المتاخمة لبلاد فارس (١) فأجابهم الصديق إلى ما طلبوا وأمَّرَ عليهم المثنى بعد أن نجح فى حشد مجموعة من خيرة رجاله الذين بلغ عددهم ثمانية آلاف مقاتل وقد ساعد على إتمام الفتح هناك أن الأوضاع داخل أرض العراق كانت مهيأة بعد الظلم الواقع من أكاسرة الفرس للأهلين (٢) كذلك كانت أوامر الخليفة محددة إلى قواده بالعراق « أن لا ينالوا من هؤلاء العرب ولا يتعرضوا لهم بسوء » فأرسل المثنى إلى أبى بكر كتابا يعلمه فيه ضراوته بفارس وينبئه بوهن القوم ويسأله أن يمده بجيش دعماً له ليؤثر فى فارس (٣) ولقى المثنى ترحيبا من أبى بكر (٤) على التوجه إلى فارس

---

(١) الطبرى تاريخ الأمم ج ٣ ص ٣١٨

(٢) المرجع السابق ص ٣١٨

(٣) البلاذرى فتوح البلدان ج ٢ ص ١٠٨

(٤) بعد أن استمع إلى تزكية قيس بن عاصم المنقرى للمثنى قال : « هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد هذا المثنى بن حارثة الشيبانى » الدينورى الأخبار الطوال ص ٦٤

فواصل زحفه ناحية الشمال . وأصبحت على عاتقه مسئولية ضخمة بتلك القيادة « ففور وصوله إلى نهر الفرات جاءه كتاب الخليفة يشجعه على مواصلة الزحف فى النواحى مما يليه وقد التقى عند مصبات النهر بقوات فارسية تفوقه عددا وعدة وفى قتالهم بما معه من جنود قليلين أمر فيه مخاطرة كبيرة » (١) .

أضف إلى ذلك :

أ - إن جهود كل من معه من الجند قد استنفذتها حروب البحرين أثناء قتال المرتدين .

ب - كانوا أثناء سيرهم على ساحل الخليج إلى الشمال حتى وصلوا إلى جنوبى العراق كل ذلك تم مراجلة على الأقدام دون راحة على الطريق . صحيح أن الحماسة الدينية قد غلبتهم حتى وصلوا .

ج - أن بأس الفرس بينهم شديد - هذا صحيح - لكنهم لن يفرطوا فى العراق وهم غير تاركى المثنى القائد العربى يضيع ملكهم بسهولة (٢) .

والجدير بالذكر أن المثنى لما وجد المقاومة الضارية ضده من الحاميات الفارسية المستحكمة هنا اتبع خطة عسكرية موفقة مؤداها « الدفاع عن مراكزه التى بسط يده عليها » وكانت تلك خطة أولى على طريق فتح العراق « وقد ترامت الأنباء بأن المثنى قد وضع يده على القطيف وهجر حتى بلغ مصب دجلة والفرات وأنه قضى فى مسيرته هذه على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين فى البحرين . كما أنه نزل فى قبائل العرب

(١) أبو حنيفة الأخبار الطوال ص ٧٨

(٢) راجع ابن دحلان الفتوحات الإسلامية ص ٨٨

الذين يقيمون بدلتا النهرين (١) من بنى لخم وتغلب وإياد والنمر فتحدث إليهم وتعاهد معهم (٢) . أما الخطوة الحاسمة على طريق الفتح فتمت عندما طلب القائد العربى المثنى بن حارثة المدد من الخليفة أبى بكر . فدعمه بكتيبة على رأسها خالد بن الوليد ، عدتها خمسمائة مقاتل ، وكان جنود خالد قد قل عددهم أثر حرب اليمامة مع بنى حنيفة . وقد انضم إليه - فوق ما معه - متطوعون كثيرون رغبة منهم فى نيل الشهادة . وقد كانت أوامر الصديق لقائده خالد الاستعداد للذهاب إلى العراق ، وقد إهتم بذلك الأمر فور منصرفه من أرض اليمامة (٣) وكانت خطة الصديق لخالد : « أن سر إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند (٤) وهى

---

(١) دجله والفرات .

(٢) هيكل الصديق أبو بكر ص ١٩٨

(٣) أخرج البيهقى فى سننه ، عن إسحاق فى قصة خالد بن الوليد حين فرغ من اليمامة قال : وكتب أبو بكر إلى خالد وهو باليمامة « من عبد الله أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى خالد بن الوليد والذين معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، سلام عليكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فالحمد لله أنجز وعده ونصر عبده وأعز وليه وأذل عدوه وغلب الأحزاب فردا ، فإن الله الذى لا إله إلا هو قال ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ﴾ وكتب الآية كلها وعداً ممن لا خلف له ومقالا لا ريب فيه وفرض الجهاد على المؤمنين » فقال « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » حتى فرغ من الآيات (قال) فاستتموا بوعد الله إياكم وأطيعوه فيما فرض عليكم وإن عظمت فيه المؤونة واستبدت الرزية وبعدت المشقة وفجعتم بالأموال والأنفس فإن ذلك يسير فى عظيم ثواب الله . فاغزوا فى سبيل الله يرحمكم الله - خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم - وكتب الآية ألا وإنى وقد أمرت خالد بن الوليد بالمسير إلى العراق فلا يبرحها حتى يأتيه أمرى ، فسيروا معه ولا تتثاقلوا عنه فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر ممن حسنت فيه نيته وعظم فى الخير رغبته . وإذا وقعتم بالعراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمرى كفانا الله وإياكم مهمات الدنيا والآخرة والسلام عليكم » كنز العمال ج ٢ ص ٢٨٤

(٤) الفرج موضع الخلل والمخافة .

الإبلة (١) وتألف أهل فارس ومن كان فى ملكها من الأمم . كما طلب منه أن ينظم جيشه بعد استنفاره وأن يسير لنجدة المثنى بن حارثة ليضم جيشه إلى قوات بكر وربيعة (٢) وأسرع خالد فور فراغه من أمر بنى حنيفة وذلك فى المحرم من السنة الثانية عشر من الهجرة ليكون دعما للمثنى متبعا الجانب الغربى للفرات متجنبا البطائح والمستنقعات وبلغت قوات تلك الجبهة - آنذاك - عشرة آلاف من الجنود البواسل احتشدوا فى جيش واحد بعد انضمام جيش خالد إلى جند المثنى وما تبعه من المتطوعة ، وبعد أن استقرت القوات وصل إلى خالد كتاب الخليفة أبى بكر وفيه ينبئه بتعيينه قائداً عاماً على قوات المسلمين بفارس وفيه يخبره بأنه قد أمده بالقعقاع بن عمرو . وقيل لأبى بكر : أتمده برجل واحد ؟ قال لا يهزم جيش فيه مثل هذا يقصد القعقاع (٣) وقسم خالد ذلك الجيش إلي ثلاث فرق تولى هو قيادة واحدة وأعطى لواء الفريقين للمثنى وعدى بن حاتم الطائى على أن يسير الأخير بفرقته إلى كلدة (٤) لضمها إلى بلاد الإسلام وأنفذ الفرقة الثانية بقائدها المثنى إلى بلدة الإبلة على مصب الفرات - وكانت ذات أهمية تجارية فائقة حيث تسير منها القوافل إلى السند والهند وترد إليه منهما إلى العراق - ورابطت الفرقة الأولى بقيادته على الفرات ثم سار إلى بلدة تسمى الحفير (٥) - بين بلاد فارس وبلاد العرب - ثم كتب القائد خالد إلى هرمز عامل الفرس على كلدة والفرات رسالة ملخص مضمونها :

---

(١) الإبلة بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل منه إلى مدينة البصرة وهى أقدم من البصرة - المعجم ج ١ ص ٧٧

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٢٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٨

(٤) من منازل طرق مكة الى الكوفة .

(٥) الحفير : أول منزل من البصرة لمن يريد مكة (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤) .

« أما بعد أسلم تسلم واعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر الجزية وإن أبيتم فإن معى قوما يحبون القتل فى سبيل الله كما تحب فارس الخمر (١) واتصل هرمز بملك الفرس اردشير بعد وصول كتاب خالد بن الوليد إليه وأخذ يجهز جيشه ويجمع جموعه واتخذ فى بلدة الكواظم معسكراً لجيشه استعداد لملاقاة العرب بقيادة خالد ، وعندما أتته الأخبار بأن الطلائع الإسلامية قد حطت رحالها عند الحفير أسرع بجنده فنزل بالقرب منهما ، وكانت المواجهة الحاسمة التى أفاضت كتب التاريخ فى ذكر تفاصيل أحداثها وبطولات رجالها فى المعارك الجزئية التى خاضوها ويحسم ضد القوى الفارسية الضخمة .

• معركة ذات السلاسل :

كتب القائد العام لجيش المسلمين خالد بن الوليد إلى المثنى وعدى والقعقاع وغيرهم وواعدهم على الاجتماع فى منطقة الحفير ليكون فى اجتماعهم على الهيئة عدة لجيش الإسلام وقوة له .

وجعل خالد على ميمنته - أثناء القتال فى تلك المعركة - عدى بن حاتم وميسرته فرقة بقيادة المثنى بن حارثة « أما هرمز الذى كان من أخبث الناس وأشدهم دهاء وأعظمهم نكاية تضرب العرب به المثل فى الكفر والخبث فيقولون « أكفر من هرمز » لما كان منه من سوء الجوار لهم (٢) فكانت ميمنته معقودة لقباذ وميسرته أسندها للأمير أنوشجان وهما من بيت الملك فى بلاد فارس (٣) وإن القائد الفارسى قبل أن تتلاحم قواته مع

---

(١) ابن دحلان الفتوحات ص ٩٨

(٢) البلاذرى فتوح البلدان ج ٢ ص ١١١

(٣) الطبرى ج ٣ ص ١٠٦

جند العرب فى تلك المناوشات العنيفة قد جعل رجالاً فى أيديهم السلاسل كل فرقة فى سلسلة حتى يكون ذلك أدعى للثبات فلا سبيل إلى الفرار أو التراجع فظهرت جموعهم فى مواقعهم بهذه الطريقة وفى مقدمتهم راكبوا الفيلة ، والجدير بالملاحظة أن السلاسل والفيلة كانتا من العوائق التى برزت للقائد العربى حيث الخيول العربية التي يركبها فرسان الإسلام كانت تحجم ولا تسرع وأحيانا تتوقف عند رؤية الفيلة التى لا عهد لهم بها فى حروبهم داخل الجزيرة العربية هذا فضلا عن أن هرمز قد اتخذ المنطقة التى نزل بها عند الكواظم وهى منطقة استراتيجية بها غدير ماء ليشرب منها عسكره . أما خالد فقد نزل قبله فى معسكر يعز فيه الماء عندما أشار إليه بعض الجنود العرب إلى هذا الفارق قال « ألا انزلوا وحطوا أثقالكم ثم جالدهم على الماء فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين [1] . وما هى إلا سويعات حتى أرسل الله سحابة فأغدرت وراء صف المسلمين وهم ركبان على خيولهم فقويت قلوبهم وفرحوا ببشارة مولاهم [2] وفيها اتبع خالد سبيل الحرب الخاطفة الفجائية فى جبهة متسعة شملت مناطق الحيرة وكلدة وأرض الجزيرة والجسر الأعظم والكواظم [3] ومؤداها أن يظهر أمام العدو ثم يختفى فجأة وينتقل من موقع إلى آخر بسرعة خاطفة أذهلت عسكر خصومه حتى ظنوه يحاربهم فى وقت واحد فى المناطق المذكورة [4] أما ساعة الصفر فقد علا جهيرها عندما نادى هرمز على خالد أن ينازله ويبارزه

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٣٨

(٢) ابن دحلان الفتوحات ص ٩٨ ، ٩٩

(٣) البلاذرى المرجع السابق ص ١٢٢

(٤) عباد . نظم الحرب فى الإسلام ص ٧٨

وكانت الخطة الفارسية [1] حيث اتفق هرمز مع أصحابه على الغدر بخالد وقت المبارزة فبرز إليه خالد ومشى نحوه راجلا ونزل هرمز أيضا وتضاربا فاحتضنه خالد وحمل أصحاب هرمز على خالد ليفتكوا به غدرا فلم يلتفت إليهم خالد ولم يشغله ذلك عن قتله إلا أن القعقاع بن عمرو كان مع مجموعة من المقاتلة قد أزاحوهم وبعد أن أجهز خالد على هرمز بطعناته القاتلة دارت رحى المعركة وولت قوات الفرس مدبرة منهزمة وفى مقدمتهم قباذ وانوشجان ، وركب المسلمون الفرس واقتحموا الجسر الأعظم يتعقبون من بقى من الفرس وأخذ خالد سلب هرمز وكانت قلنسونه تقدر بمائة ألف [2] وبعث خالد بالفتح والأخماس إلى أبى بكر الصديق [3] أما المثنى : فقد كانت مهمته فى تلك المعركة مطاردة المنهزمين والقضاء على أى بقيه من الجيوش الفارسية التى كان يراودها الأمل فى تنظيم لقوات تنازل المسلمين فاستطاع المثنى أن يحاصر حصن المرأة [4] ففتحه وقد ترك المثنى أخاه المعنى على حصار هذا الحصن فحاصر زوجها فى حصنه فقض الحصن على من فيه وأعمل فيه سيوفه واستفاء أموالهم ثم استمر يطارد بقية الجيش ولم يتعرض خالد وصحبه إلى الفلاحين لأن الخليفة أبا بكر أمرهم بذلك وتركهم وعمارة البلاد بعد دفع الجزية التى بلغت مائة وعشرين ألف دينار ذهبى [5] .

---

(١) لا تعرفها أخلاق الفروسية العربية الأصيلة وهى الضرب من الخلف على أمل أن يدب هذا العمل الوهن فى صفوف القوات الإسلامية فهرمز يعرف أن قتل خالد بأى صورة تضمن له الظفر الذى يتطلع إليه ، ويكتب لمعسكره الفارسى الغلبة على الجند المسلمين مهما كانت حماستهم .

(٢) يقال إن هرمز كان قد تم شرفه فى الفرس والعادة المتبعة إذا تم شرف الرجل بينهم تكون قلنسوته بمائة ألف .

(٣) الخضرى إتمام الوفا ص ٥٦ .

(٤) وهو حصن كانت تقيم فيه أميره قادسية وأسلمت فتزوجها المثنى بعد قتل زوجها .

(٥) ابن دحلان الفتوحات ص ١٠٠ .

● المذار [1] :

ثم تقابل خالد بمساعدة المثنى ومعقل بن الأعشى قوات فارسية أ الرد على هزيمة هرمز فقد تجمعت بقيادة قارن بن فريانس فى موقعة عر بالمذار حيث وصلت المعلومات إلى جيش الإسلام أثناء تحركه بأمر هذ التجمعات الجديدة فلم ترتبك قوات خالد لهذه المفاجأة وقد عرف المثنى مهمته وأدرك مسئوليته الدقيقة فى مواجهة تلك القوات التى كادت أن تطوق الجيش الإسلامى فبدأ بفرقته يشغل قارن عن مسعاه فى الوقت الذى ظهرت فيه قوات خالد فى الميدان . واقتتل الفريقان . وقتل قارن وانوشجان وقباذ [2] كما قتل من الفرس ثلاثين ألفا سوى من غرق ، وما منع المسلمين من مطاردتهم غير مياه الثنى . وبعد قتل أمراء الفرس أقر خالد للفلاحين الجزية وغنم فى تلك الوقعة مغانم كثيرة حتى زاد سهم الواحد على ثلاثين ألفا وقسم خالد الأنفال على أهل البلاء وتبحبح الجند وصارت كل واقعة أنكل على الفرس من التى قبلها [3] .

● وقعة الولجة [4] :

بعد أن تطايرت أنباء هزيمة المذار إلى أدرشير أعد جيشاً كثيف العدد على رأسه « الأندر زعر » كان فارسا من مولدى السواد . وأرسل بهن

---

(١) المذار ، تقع فى منطقة ميسان بين واسط والبصره وهى قصبه ميسان بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام .

(٢) بادر الشجعان من الأمراء للمنازلات حيث نجح معقل بن الأغشى فى قتل قائد الجيش قارن . كما قتل عدى بن حاتم منازله قباذ . أما أنوشجان فكان حتفه على يد عاصم بن عمرو التميمى .

(٣) ابن الأثير مرجع سابق جـ ٢ ص ٣٢ .

(٤) الولجة موضع بأرض العراق كان بينها وبين القادسية فيض من مياه الفرات وهى بأرض كسكر بين البصرة والكوفة .

جازويه إمداد له فى أثره بجيش . ولم ينتظر خالد حتى يقتحم « الأندر » جنده بل زحف هو بعد ما أقام على المذار قوة تحميه من الخلف كما ادخر قوة أخرى تكون على هيئة كمين يفاجئ قوات الفرس أثناء الاشتباك . والتقى الجيشان عند الولجة بأرض كسكر وقد أمر خالد قوات الاندر حيث قاتلهم قتالاً عنيفاً وشن عليهم الغارة حتى ظن الفريقان أن الصبر قد نفذ واستبطأ خالد كمينه فلما بلغ القتال أشده خرج الكمين على الفرس من ناحيتين فانهزمت الأعاجم وأخذ خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم فقتل منهم خلقاً كثيراً وقد أصيب العدد الوافر من نصارى بكر بن وائل ومات الأندر زعر عطشاً فى الصحراء الغربية وتم ذلك فى شهر صفر عام اثنتى عشرة من الهجرة وصار الفلاحون ذمة للمسلمين كما سبى ذرارى المقاتلة ومن والاهم من قبائل العرب فى مقدمتهم جابر بن بجير وإبنا لعبد الأسود بن بكر بن وائل (١) .

● وقعة اليس (٢) :

لم يمضى طويل وقت على موت « الأندر زعر » حتى أسندت رئاسة الجند إلى داهية آخر اسمه بهمن جاذويه الذى جمع أشتاتاً مخلطة من نصارى العرب الموتورين خاصة عبيد الأسود والعجلى (٣) وممن له ثأر من جند فارس استغل قائد الفرس حماسهم لرد بعض الاعتبار لتلك الهزائم المتوالية . فأسرع خالد الذى لم يكن فى تلك الليالى يبيت إلا على تعبئة كاملة فاستشعر الخطر ، فعاجل التحالف الجديد عند اليس شمالى المذار .

---

(١) ابن الأثير مرجع سابق جـ ٢ ص ٢٧ .

(٢) أليس موضع فى أول أرض العراق من ناحية البادية وهى قرية من قرى الأنبار .

(٣) وقد تصدى لهؤلاء النصارى مجموعة من مسلمى بنى عجل منهم عتبة بن النهاش وسعيد ابن مره وفرات بن حيان والمثنى بن لاحق ومذعور بن عدى وكانوا أشد الناس على قتال هؤلاء النصارى .

وكان قائد فارسى اسمه جابان قد أعد طعاماً لجنده فى سماط وعند وصل خالد رفعوا أيديهم عن طعامهم . وقد أمرهم قائدهم أن يضعو السم فى هذا الطعام فانشغلوا عنه . وعندما حط خالد أنفاله طلب مبارزة عبد الأسود وابن أبجر ومالك بن قيس فبرز إليه مالك من بينهم فقتله خالد بعد أن سخر منه فقال جابان ألم أقل لكم ما دخلنى من مقدم جيش وحشة إلا هذا ! . واقتتلوا قتالاً شديداً وقد أمعن جند المسلمين فيهم تقتيلاً وقدرت خسائرهم بسبعين ألف مقاتل فصدقت فراسة خالد الذى قال « اللهم إن هزمتهم فعلى أن لا أستبقى منهم من أقدر عليه حتى أجرى من دمائهم نهرهم » . وسمى النهر بنهر الدم (١) وبعد أن أنزل الله نصره للمسلمين أكب خالد على هذا السماط الذى وضعه الأعاجم فى اليس فقال لجنده : هذا نفل - غنيمة - فانزلوا فكلوا . فنزل المجاهدون فأكلوا الطعام وكان فيه مرققاً لم يعرفه أهل البادية فصاروا يسألون ما هذه الرقع ؟ فقيل لهم إنه رقيق العيش فقالوا بلى قالوا فهذا هو رقيق العيش (٢) .

● وقعة أمغشيا (٣) :

ثم سار خالد إلى أمغشيا بعد أن فرغ من الوقعة الأخيرة فأجلى أهلها عنها ثم خرب مبانيها بعد أن حاز ما بها من مؤن ومتاع وحيوان وسلاح . وبعث بخمس الغنائم إلى الخليفة أبى بكر بالمدينة حيث أصاب ما لم يصيبوا مثله . فقد بلغ سهم الفارس ألفا وخمسمائة درهم سوى النفل (٤) الذى أعطاه خالد لأهل البلاد . ولما جاء الخبر مع الخمس إلى أبى بكر مع جندل

---

(١) فتوح البلدان جـ ٢ ص ١١٥ . (٢) ابن كثير البداية جـ ص ٣٤٧ .

(٣) امغشيا كانت مصر كالحيره وكانت اليس من مسالحها .

(٤) النفل الغنيمة .

من بنى عجل . أخبر قريشا الخبر فقال « يا معشر قريش عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد » [١] .

الهبت هذه الحروب حماسة المسلمين حتى أن المثنى بن حارثة ظل يطارد الجند المنهزمين الفارين من ضربات خالد المحكمة وكأنه يريد أن يتعقبهم حتى أبواب المدائن ومعه قوات فى غاية من قوة البأس وعزيمة صلبة لا تلين وكلما زادت المغانم والسبايا والذرارى فى قبضتهم كلما ملأهم ذلك عزة وشكرا لأنعم الله عليهم [٢] وظل المثنى جنديا يطيع وقائداً يطاع مستمسكا بمبادئه عظيماً فى قتاله حتى توغلت فرقة فى بلاد فارس فى بانقيا وباروسما والحصيد والثنى والبشر والرضاب والقراض . ولقد أدى دوراً كبيراً خطيراً فى هذه المعارك وكان له الفضل فى النتائج التى انتهت إليها [٣] .

● الأنبار وذات العيون [٤] :

أما خالد بن الوليد فقد اتجهت أنظاره إلى الأنبار وعلى المقدمة الأقرع ابن حابس . ولما بلغ الجيش الإسلامى تلك المنطقة وأنشد صاحب المقدمة القتال - وكان قليل الصبر - وتقدم إلى رماته وكانت المدينة متحصنة

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٢ ص ٣٥ . ابن كثير البداية جـ ٦ ص ٣٤٧ .

(٢) النجار الخلفاء ص ٧٧ .

(٣) محمد عبد الجواد الدومى . المثنى بن حارثة ص ٨٧ ، بانقيا : بلدة بين واسط والبصرة . وباروسما : ناحية من سواد بغداد . والحصيد : موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة . والثنى : علم لموضع بالجزيرة قرب رصافة الشام . والبشر : موضع بالجزيرة شرقى الرصافة . والرضاب والقراض : موضعان على حدود تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقى الفرات . ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ، جـ ٤ .

(٤) نسبة إلى ما فيها من أنابير عديدة لحفظ الغلال فى الأهراء ، والعيون لكثرة ما فقأ من العيون . وهى مدينة على الفرات غربى بغداد .

بأسوارها وخندق عميق حفر حولها . وعند أول نقطة للنفاذ أمر خالد بالإبل الضعاف فنحرت وألقيت على المنافذ فسدته واقتحم الجند من فوقها إلى الأسوار فحطموا أبوابها وكانوا على أهبة الدخول إلى المدينة يمضون إليها قتلاً وسبيا (١) .

ومما أضجع المسلمون والكفار فى الخندق فأرسل أميرهم « شيرازاد » (٢) إلى خالد وبذل له كل ما أراد ، فصالحه على أن يلحقه بمأمنه فى جريدة من خيل ليس معهم من المتاع شئ . وقبل خالد وسرح شيرزاد إلى بهمن جازويه فصالح أهل الأنبار وأهل كلوا ذى وصالح من حولهما واستتب له الأمر(٣) وقد قيل إن خالد أمر رماته أثناء تراشق النبل من وراء الأسوار أن يركزوا على أعين الأعاجم وقال « إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها ففقأوا ألف عين ولذلك سميت الموقعة أيضاً بذات العيون » (٤) .

● صلح الحيرة (٥) :

ومن أحسن المفاخر التى يزدان بها جبين الحربية الإسلامية فى عصر أبى بكر ما حدث على أرض الحيرة من حرب وسلم توافقتا معاً ، حيث يقدم المحارب المقدام خالد على هذا العمل العبقرى فيجد التأييد والمباركة من

---

(١) الدينورى الأخبار الطوال ص ١١١ . (٢) صاحب ساباط .

(٣) ابن الأثير كامل جـ ٢ ص ٩٩

(٤) ابن كثير البداية جـ ٦ ص ٣٥٠ ، والجدير بالتسجيل ما ينقله الطبرى فى موسوعته فى شأن تعلم الصحابة الكتابة العربية من عرب الأنبار (قال) كان بختنصر قد أباح الأنبار للعرب فنزلوها ولم يزالوا بها حتى فتح خالد الأنبار وسأل الناس ما أنتم ؟ فقالوا قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا فتعلمنا الخط من أباد ثم أنشدوه قول الشاعر « قومى إباد لواتهم أمم . ساروا جميعاً واللوح والقلم » ، تاريخ الأمم جـ ٢ ص ٥٧١ .

(٥) مدينة كبيرة بعراق العرب على الضفة اليمنى لنهر الفرات .

السياسى البارع أبى بكر فيما أنجز وأبرم وهى من الحكم البليغة التى تعد من المحاسن الغراء للحاكم القائد على الإطلاق . ومرد ذلك أن الازادبة «مرزبان الحيرة » بعد أن وجد انتصارات المسلمين فى المواجهات الفارسية السابقة أيقن أن الدور على إقليمه قد حان لعمل حربى تدور معه الأنباء فى كل الأنحاء ، فتهيأ للحرب ، وأعد تجهيزاته العسكرية لتكون على الأهبه « وقدم ابنه أمامه ثم خرج فى أثره على عسكر من الحيرة وأمره بسد الفرات وتفجير الأنهر التى تستمد منه الماء [(١)] وكان خالد قد حمل فى السفن مع الأنفال والأثقال فلم يفاجأ إلا والسفن جوانح . فارتاح المسلمون وقال لهم الملاحون إن الفرس قد فجروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ولايجرى الماء إلينا إلا بسد الأنهار فنهض خالد فى خيل نحو ابن الأزاذبه فلقى خيلا من خيله وقد فاجأهم وهم آمنون من غاراته فى تلك الساعة فأنامهم ثم نهض من فوره وسبق الأخبار حتى لقى بجند ابن الأزاذبه على فرات بادقلى فقاتلهم وقتل ابن الازاذبه بعد هزيمته . ثم سلك الماء سبيله بعد سد الأنهار وبعد أن استلحق خالد عسكره ثم يمم الحيرة حتى نزل بين الخورنق والنجف [(٢)] وما لبث خالد بعد هذه الانتصار المبدأى إلا أن وضع يده على قصرى الخورنق والنجف [(٣)] وكانا مصيف أمراد الحيرة فى الوقت الذى عسكر فيه جنده أمام أسوار الحيره أما المرزبان الأزاذبه ففر تاركاً ولايته متأثراً بمقتل ابنه إلا أن أهل الحيرة قد قرروا اتخاذ كل السبل فى المقاومة واتخذوا العده الكاملة للدفاع عنها وذلك بالتحصن خلف القلاع المستحكمة والأسوار العالية فأرسل خالد السرايا تحاصر حصون الحيره بعد أن اختار القوم المنابذة وعمدوا لرمى المسلمين بالحذف . فرشقهم

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٥٨١

(٢) فتوح البلدان جـ ٢ ص ١٢١ .

(٣) على نحو ميل من الحيرة القصران .

المسلمون بالنبل وتوالت غاراتهم ففتح القوم الدور والديارات فنادى القسيسون يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم . فنادى أهل القصور يا معشر العرب قبلنا واحدة من ثلاث تكفوا عنا . وخرج رؤساء أهل القصور إلى خالد فخلا بأهل كل قصر ولامهم ومالوا إلى الصلح وأول من طلبه منهم عمرو بن عبد المسيح ثم تبعه بقية الرؤساء وأهدوا لخالد الهدايا الثمينة ورضوا بالجزية وتعاهدوا على دفع أربعمائة ألف درهم عاجلة (١) . ومما يجدر ذكره أن خالد قد بعث بأمر الفتح وما عاقد عليه أهل الحيرة والهدايا إلى أبى بكر فقبل أبو بكر الهدايا على أن تكون من الجزية وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتهم من الجزاء وخذ بقيه ما عليهم فقوّ بها أصحابك (٢) .

وعندما خرج أهل الحيرة وأشرافها مع إياس بن قبيصة الطائى وكان أميراً عليهم بعد النعمان بن المنذر وأخرج إليهم بيان الصلح الذى لم يخرج عما جاء فى مضمون الوثيقة : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد إياس بن قبيصه وعمرو بن عبد المسيح وعدياً وعمرو ابن عدى وحيرى بن أطال وهم نقباء أهل الحيره ورضى بذلك قومهم أمروهم به ، عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسيهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسا عن الدنيا تاركاً لها وعلى المنعة وإن لم يمنعهم فلا شئ عليهم حتى يمنعهم وإن غادروا بفعل أو قول والذمة منهم برئية (٣) وأقام خالد بمدينة الحيرة (٤)

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٢ ص ٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٩٤ .
(٣) الطبرى تاريخ الأمم جـ ٢ ص ٥٧٢ .
(٤) وبعد فتح مدينة الحيرة هناك قصة طويلة بطلها صحابى اسمه - شويل - كان يرغب من الزواج من ابنة عبد المسيح بن قيس أحد زعماء الحيرة وكان ذلك أيام النبى ﷺ وكان شويل عند رسول الله لما ذكر استيلاء امته على ملك فارس والحيرة فسأله شويل أن يعطى « كرامة ابنة عبد المسيح » فوعده الرسول ذلك . فلما فتحت الحيرة طلبها شويل من خالد وشهد له شهود بوعد =

وطلب من جنده أن يعاملوا أهل الأنحاء بما عاهدهم عليه من الأمان والحفاظ على الأرواح والأموال والأعراض ثم « جعلها مركز قيادته وكانت أول عاصمة إسلامية خارج بلاد العرب . على أنه ترك أمر إدارتها لزعماء من أبنائها لذلك اطمأنوا إلى حكمه ونشروا حولهم جواً من السكينة إليه ورأوا عدلاً شاملاً بعد أن ترك الفلاحين يعملون فى الأرض لم يتعرض لهم بل رفع عنهم ما كان نازلاً بهم من ظلم دهاقين الفرس وحفظ عليهم كل حقوقهم (١) .

● موضوع خالد بن الوليد وتركه للعراق :

إن الخليفة أبا بكر قد طلب من خالد بن الوليد أن يترك جبهة العراق ونقله بكتيبة المقاتلة - نصف الجيش - إلى جبهه الشام التى احتاجت مجهوداته ويجعل قيادة الجيش الإسلامى بالعراق إلى المثنى بن حارثة مرة أخرى . وصادف ذلك أن خالد قد ترك عسكره بعد بعض المعارك الجزئية (٢) فى خمس بقين من ذى القعدة من السنة الثانية عشر من الهجرة ومضى إلى الحج فى عدة من خاصتة نحو المسجد الحرام فسلك طريقاً من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته وصار يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل فكانت غيبته عن الجند قصيرة ولم يعلم أحد بحجه حتى رأوه وأصحابه محلقين رؤوسهم

= النبى . فاشترط خالد أن تسلم كرامة إلى شويل فامتنعوا عن تسليمها وقالوا ما تريد إلى امرأة بنت ثمانين سنة ؟ قالت كرامة لقومها إدفعونى إليه فإنى سأفتدى منه إنه قد رآنى وأنا شابة فسلمت إلى شويل ولما خلا بها قالت ما تريد إلى امرأة بنت ثمانين سنة ؟ وأنا أفتدى منك فاحكم بما أردت . قال والله لا أفديك بأقل من عشر مائة . فاستكثر ذلك لتخدعه . فافتدت نفسها منه بألف درهم فلامه الناس فقال شويل : ما كنت أظن أن عددا أكثر من عشر مائة وذهب إلى خالد يشكو له (قال) أردت أكثر العدد فقال خالد أردت أمرا وأراد الله غيره ، ابن كثير البداية جـ ٦ ص ٣٤٨ .

(١) هيكل الصديق أبو بكر ص ٢١٨ .　　(٢) معركة الفراض قبيل صلح الحيرة .

ومقصرين [١] وأدرك أمر الساقة وقد وافاهم مع شجر بن الأعز صاحب الساقة . فقدما معاً ومشيا فى جيشه المتجه إلى الحيره قبل أن يصلوا إليها [٢] وقد ترامت الأنباء إلى المدينة فالتقطتها أذن الصديق . وعدها من السقطات التى توجب العتب والعقاب « لتركه الجيش ومسيره إلى الحج فصرفه إلى الشام وقد وافاه كتاب أبى بكر وهو بالحيره يقول الكتاب : أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا واشجوا وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك فليهنأ أبا سليمان النية والحظوه فأتمم يتم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتذل وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولى الجزاء » [٣] والمتأمل لهذا الكتاب يجد أن الخليفة لا يريد أن يغمد سيفاً سله على الكفار والمشركين فلم يغفل عنه قط أثر ابتعاد القائد عن عسكره وسط معمعة القتال الدائر بل اعتبرها الصدّيق من الأمور التى تغفو فيه النفوس إلى الاعتزاز والخيلاء والميل إلى الإصغاء إلى ما يطرق الأذن من آيات الإعجاب وضروب الزهو الذى يعقب ذلك كله فتفسد الشخصية العسكرية [٤] وقد أمره - فى الكتاب - بعد أن قاربه وباعده أن ينتقل بجنده من العراق إلى الشام حيث تحرجت أمور أبطال المسلمين فى الشام عند ماء اليرموك ورأى أبو بكر بهذا العمل أن يصيب غرضين بحجر واحد . أولهما أن يعاقبه بشئ ملفت بإبعاده عن ساحات الانتصارات التى أوجبت عتبه . وثانيهما أن يرسله مددا لإخوانه فى البلاد الشامية .

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٥٨٤ .　　(٢) ابن كثير البداية جـ ٦ ص ٣٥٢ .

(٣) الطبرى جـ ٢ ص ٥٨٤ .

(٤) إن الناقلين إلى الخليفة أعلموه بأن خالداً قد وضع على عمامته بعض العلامات فور انصرافه من الأراضى المقدسة كعلامة تميزه وسط الجم من أصحابه . وربط الخليفة ذلك بما اتيح له من انتصارات والاستهانة بشأن عدوه فلم لا يكون ذلك من إمارات العجب ؟

ولبى خالد نداء الخليفة ووجدت الموعظة مكانها من قلب الفارس الأريب الذى تلقى أوامر الصديق « أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا » فجسمها بالطاعة وكامل الإخلاص فسار خالد على رأس كتيبته فى صفر سنة ١٣ هـ من الحيرة إلى تدمر ومنها إلى الشام حتى وصل إلى مياه اليرموك على غير الطريق المستطرق لأجل أن يخفى سيره مخترقا الصحراء الجرداء التى بين العراق والشام فى بضعة أيام وهى من روائع الحركات الحربية فى التاريخ (١) .

كان لرحيل خالد عن العراق أثر كبير فى عودة الآمال الفارسية فى استرجاع نفوذهم وهيبتهم وظنوها فرصة ذهبية يستطيعون فيها تأديب العرب المسلمين وإخضاعهم . ولم يكن المثنى ليخفى عليه أمر بدهى كهذا بخلو مكان خالد ومعه نصف الجيش . فأعد نفسه وجنده لمواجهة المسئوليات والتحديات وشتى الاحتمالات ، وأقام بالحيره « تاج أرض العراق الإسلامى » ووضع المسلحة وأذكى العيون والمراصد فعلم أن ملك الفرس حشد جيشاً كبيراً فى محاولة لاسترداد المدن والحاميات التى أخذها العرب ولكن المثنى انسحب إلى الوراء قليلاً وتحصن فى مركز مأمون يعد أن شعر بحرج موقفه ، لهذا أرسل المثنى إلى المدينة يطلب المدد . وفى رواية أنه وصل بنفسه إلى يثرب ليخبر أبا بكر بما تم ويعلمه بالحال ويستأذنه فى الاستعانة بأهل الردة ممن ظهرت توبته وندمه (٢) وكان المثنى قد خلف على من كان معه « بشير بن الخصاصيه » ووافق انصراف المثنى

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٢ ص ١٧٥ ، وابن دحلان الفتوحات الإسلامية ص ١٠٢ .

(٢) ابن الأثير المرجع السابق ص ١٧٦

اضطراب الفرس فى شأن ملكهم فشغلهم ذلك عن المثنى وجيشه (١) ولما قدم قائد الجبهة الشرقية على أبى بكر وجده قد اشتد به المرض . « فلما أخبره الخبر طلب أبو بكر عمر بن الخطاب وظل يوصيه بأمر المسلمين بالعراق وأن يمد المثنى بما طلب فنفذ عمر وصية أبى بكر كلها فمكث ثلاثة أيام يجهز الجيش وهيأ القدرات وأمدهم بالسلاح وأمَّر عليهم أبا عبيدة مسعود الثقفى دعماً للمثنى بعد أن رفع الحظر عمن عادوا إلى الإسلام من المرتدين لينهضوا إلى حرب فارس (٢) وعاد المثنى الشيبانى إلى عسكره فور وفاة الخليفة الأول وقد تمكن من إعادة الهيبة لهؤلاء الجند الذين تأثروا بانتقال الأعداد الكبيرة منهم إلى مكان آخر وقد وجد من رعاية الخليفة أبى بكر – يرحمه الله – ما يدعم مركزه فى تلك البلاد .

● فتح الشام (١) :

أما لفتح الشام فقد جهز الخليفة أبو بكر أربعة جيوش لهذا الغرض . وكان على رأس كل جيش قائد من أعظم قواد العرب هم سيوف الإسلام والأعلام عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة الذين جلى وجه التاريخ الإسلامى عن صفحاتهم المشرقة فى مجال حروب الردة وصولاتهم فى مقاومة الخطر النازل بالمسلمين . وأضافوا إلى سجل المفاخر مجد الفتوح وإعلاء كلمة الإسلام خارج أرض الجزيرة العربية . وقبل أن تخرج تلك الطلائع الإسلامية إلى وجهتها جمع أبو بكر أهل المشورة والخبرة من كبار الصحابة لاستجلاء آرائهم فى سير تلك الجيوش المجاهده لإعلاء كلمة الله على أرض الشام . فدعا عمر

---

(١) ابن كثير البداية جـ ٦ ص ٣٥٤ .

(٢) ابن الأثير الكامل جـ ٢ ص ١٧٨ .

(٣) كانت بلاد الشام تابعة للامبراطورية الرومانية .

وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد وأبا عبيدة بن الجراح وعدداً من وجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم . فدخلوا عليه (١) فقال أبو بكر لمن حضر منهم « إن الله عز وجل لا تحصى نعماؤه ولا تبلغ جزاءها الأعمال فلله الحمد قد جمع الله كلمتكم وأصلح ذات بنيكم وهداكم إلى الإسلام . وقد رأيت أن أستنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين ويجعل الله كلمته العليا مع أن للمسلمين فى ذلك الحظ الأوفر لأنه من هلك منهم هلك شهيدا وما عند الله خير للأبرار ومن عاش عاش مدافعا عن الدين مستوجباً على الله ثواب المجاهدين . وهذا رأيى الذى رأيته فليشر علىّ امرؤ برأيه » (٢) .

فجاءت الآراء التى انتظرها الخليفة فكان عمر أسبقهم فى الإدلاء برأيه فقال : « الحمد لله الذى يخص بالخير من شاء من خلقه ، والله ما استبقنا إلى شئ من الخير قط إلا استبقنا إليه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . قد والله أردت لقاءك بهذا الرأى الذى رأيت فما قضى أن يكون حتى ذكرته فقد أصبت أصاب الله بك سبل الرشاد . سرِّب إليهم الخيل فى أثر الخيل وابعث الرجال بعد الرجال والجنود تتبعها الجنود . فإن الله ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله (٣) وقد تجمعت آراء عثمان وأبى عبيدة والزبير وسعد وطلحة وسعيد بن زيد ومن حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار وكان إجماعهم على : « إننا نرى أنك ناصح لأهل هذا الدين شفيق عليهم فإذا رأيت رأياً تراه لعامتهم صلاحاً فاعزم على إمضائه فإنك غير ظنين (٤) ثم أعقبهم عبد الرحمن بن عوف الذى قال لأبى بكر

(١) تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر جـ ١ ص ١٢٦ . (٢) المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٣) الواقدى . فتوح الشام جـ ١ ص ٥٧

(٤) ابن عساكر المرجع السابق ص ١٢٧

مستهدفا خلاصة فكره : قال « يا خليفة رسول الله إنها الروم وبنو الأصفر حد حديد وركن شديد ما أرى أن نقتحم عليهم اقتحاماً ، ولكن ابعث الخيل فتغير فى نواحى أراضيهم ثم ترجع إليك وإذا فعلوا ذلك بهم مرارا أضروا بهم وغنموا من أدانى أراضيهم فقعدوا بذلك من عدوهم » (١) وتلفت الصديق ناحية على بن أبى طالب فأخذ يستحثه لإنفاذ رأيه . قال أبو بكر ماذا ترى يا أبا الحسن ؟ قال على « أرى أنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت عليهم إن شاء الله » فقال أبو بكر : بشرك الله بخير ومن أين علمت ذلك ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى يقوم هذا الدين وأهله ظاهرون . فقال أبو بكر : سبحان الله ما أحسن هذا الحديث ، لقد سررتنى به سرك الله » ثم إن أبا بكر قام فى الناس فذكر الله بما هو أهله وصلى على نبيه ﷺ ثم قال « أيها الناس إن الله أنعم عليكم بالإسلام وألزمكم بالجهاد وفضلكم بهذا الدين على كل دين فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام فإنى مؤمر عليكم أمراء وعاقد لكم ألوية فأطيعوا ربكم ولا تخالفوا أمراءكم لتحسن نيتكم وأشربتكم وأطعمتكم ﴿ فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (٢) . وفى الوقت الذى بلغت فيه الحماسة الغالية أوجها والتجهيزات وتحشيد القوى على قدم وساق بدأت التجمعات مثنى وفرادى حتى تتكون الفرق بسلاحها ثم ينضمون إلى معسكرهم من عشرة وعشرين وثلاثين وأربعين وخمسين ومائة كل يوم حتى اجتمع أناس كثيرون (٣) وقبيل اختياره لقواده الأربعة تذهب الكثير من الرويات بأن أبا بكر « خرج ذات يوم ومعه رجال من الصحابة حتى انتهى إلى معسكرهم فرأى عدة

---

(١) الواقدى مرجع سابق جـ ١ ص ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .
(٣) المتقى كنز العمال جـ ٣ ص ٢٩٨

حسنة لم يرض عدتها للروم فقال لأصحابه : ما ترون فى هؤلاء أن ارسلتهم إلى الشام فى هذه العدة ؟ فقال عمر : ما أرضى هذه العدة لجموع بنى الأصفر . فقال أبو بكر لأصحابه : ماذا ترون أنتم ؟ فقالوا نحن نرى ما رأى عمر [1] فقال الصديق مرة أخرى : ألا أكتب كتاباً لأهل اليمن ندعوهم فيه إلى الجهاد ونرغبهم فى ثوابه ؟ فرأى ذلك جميع أصحابه فقالوا نعم ما رأيت افعل . فكتب أبو بكر « بسم الله الرحمن الرحيم من خليفة رسول الله إلى من قرئ عليه كتابى هذا من المؤمنين المسلمين من أهل اليمن سلام عليكم . فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد . فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . والجهاد فريضة مفروضة والثواب عند الله عظيم وقد استنفرنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام وقد سارعوا إلى ذلك وقد حسنت بذلك نيتهم وعظمت حسبتهم فسارعوا عباد الله إلى ما سارعوا إليه ولتحسن نيتكم فيه فإنكم إلى إحدى الحسنيين إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة فإن الله تبارك وتعالى لم يرض لعباده بالقول دون العمل ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يدينوا بدين الحق ويقروا لحكم الكتاب حفظ الله لكم دينكم وهدى قلوبكم وأزكى أعمالكم ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين » [2] وتوالت التجمعات تفد بأعداد وافرة إلى المدينة بعد سماعهم لأنس بن مالك الذى ندبه الخليفة لهذا الأمر قارئاً كتاب أبى بكر فى المساجد والأماكن التى يتجمعون فيها « وقد خف ذو الكلاع الحميرى إلى فرسه وسلاحه ونهض فى قومه ومن عسكر معه فى جموع اليمن وسار يطلب المدينة . كذلك خف قيس بن هبيرة المرادى فى مذحج وجندب بن عمرو الدوسى فى الأزد وحابس بن سعد الطائى فى طيئ بينما كان رسول أبى بكر إلى اليمن قد بلغها وأقام يتحدث إلى

---

(١) المرجع السابق ، الطبرى جـ ٣ ص ١٥٤ .	(٢) كنز العمال جـ ٣ ص ٢٩٩ .

جموع من أهلها بينما كان أبو بكر يستنفر إليه من حوله من المهاجرين والأنصار وأهل مكة وغيرهم يجمعهم على الذى جمعه أهل اليمن ليوفدهم إلى الشام [١] واعتزم الصديق فى أمر الروم فعقد الألوية الأربعة لخير القواد لتتجه إلى فلسطين وحمص ودمشق والأردن فعين لكل قائد منهم الطريق الذى يسلكونه والجهة التى ينزلونها ثم التى تليها بعد أن يتم الله نصره بالفتح فجعل ليزيد بن أبى سفيان دمشق ولشرحبيل بن حسنة الأردن ولأبى عبيدة بن الجراح حمص ولعمرو بن العاص فلسطين وكان ذلك فى خريف سنة ١٢ هـ [٢] ولم تكن قوات العراق خلصت من قتال الفرس فى نواحيها [٣] .

● قوة استطلاعية :

ومع أن الخليفة الصديق - القائد الأعلى - قد أنفذ ألويته المعقودة لأربعة جيوش مهيأة بأحسن تجهيز حيث أراد أن يحمى حدود الجزيرة العربية المتاخمة لبلاد الشام ولمواجهة القوات الرومانية التى يعلم مدى قوتها واتساع رقعة ممالكها بالشرق . إلا أنه أرسل قوة استطلاعية بقيادة خالد بن سعيد بن العاص . وقد طلب منه الخليفة أن ينزل بمنطقة تيماء [٤] ليحمى بها مقدمة كل الجيوش الزاحفة - فيما بعد - وقال لخالد هذا [٥]

---

(١) الأزدى فتوح الشام ص ١٠٧ .   (٢) الموافق سنة ٤٣٢ م .

(٣) الأزدى مرجع سبق ص ١٠٧ .

(٤) تيماء بليدة فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق .

(٥) قيل إن خالد بن سعيد وصل إلى المدينة من اليمن بعد وفاة المصطفى ﷺ وعليه جبة ديباج فلما رآه عمر أمر من معه من الناس بنزعها منه وتحريقها فغضب خالد هذا وقال لعلى مهيجا ضد عمر وأبى بكر يا أبا الحسن أغلبتهم يا بنى عبد مناف عن الإمرة . فقال له على : أمغالبة تراها أو خلافة ؟ فقال له خالد لا نغالب على هذا الأمر أولى منكم فقال له عمر اسكت فض الله فاك والله لا تزال كاذباً تخوض فيما قلت ثم لا تضر إلا نفسك وأبلغ عمر أبا بكر بما كان من أمر خالد فلم يتأثر الخليفة بذلك وعقد له أول لواء يسير إلى الشام ولم يزل عمر بأبى بكر حتى حمل أبا بكر أن يأمر خالداً بالسير إلى تيماء والانتظار بها فقط ولم يأمره بالسير إلى داخل الشام .

أنت أمير الناس جزاك الله خيرا من أخ وخليل فقد كنت أسلمت مرتغبا وهاجرت محتسباً وقد كنت هربت بدينك من الكفار لكيما ترضى الله ورسوله وتعلو كلمته فسر يرحمك الله (١) . فنزل خالد بن سعيد وجنده حيث أمره الخليفة وقد أمر الصديق بلالاً فأذن فى الناس : أن انفروا أيها الناس إلى جهاد الروم والناس لا يشكون أن أميرهم خالد بن سعيد (٢) وعمر يقول لأبى بكر فى شأن خالد الأموى إنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب . إلا أن أبا بكر قد عقد عزمه لإرساله ليكون ردءا للمسلمين بتيماء (٣) .

وعندما نزلها خالد وجد هناك عسكرا للروم كثيرة أعدادها وقد عرف أن السلطات البيزنطية قد دعت الغسانيين ومن نفر إليها من بهراء وكلب وتنوخ ولخم وجذام وغيرها من القبائل المقيمة ببادية الشام ليقفوا فى وجه المسلمين واجتمع من هذه القبائل عدد عظيم لا يقل عمن اجتمع حول خالد ابن سعيد الذى كتب إلى الخليفة أبى بكر باجتماع الروم ومن نفر إليهم من القبائل العربية وأنهم مقدمون للهجوم على قواته (٤) . فرأى الخليفة أبو بكر أن ينصح قائده بعدما عرف بأن القوات الرومانية قد أسرعت بقذف جلمود بجلمود بقصد غل قوات هذا الجيش الإسلامى قبل أن يتكاثر أعداده بانضمام بعض القبائل التى كان هواها مع أبناء جلدتها من العرب مثل جزام وبهرام فكتب إلى خالد : أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله . وطلب منه أن يحافظ دائماً على خط رجعته وأن لا يتوغل كثيراً فى بادية الشام (٥) فنهد إليهم خالد فى جموعه فلما دناهم تفرقوا وأعروا منزله فنزله ودخل

---

(١) كنز العمال جـ ٣ ص ٣٠٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠١ .

(٣) الطبرى جـ ٢ ص ٤٠٨ .

(٤) الأزدى مرجع سابق ص ١٠٩ .

(٥) ابن الأثير الكامل جـ ٢ ص ٨٧ .

عامة من تجمع له فى الإسلام وكتب إلى أبى بكر مرة أخرى بما كان ، فكتب إليه : أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك وأرسل إليه مددا فيه الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبى جهل (١) . وسار خالد فيمن كان خرج معه من تيماء ومن لحق به حتى نزلوا بين آيل وزيزاء والقسطل فسيرت الروم إليه عسكراً بقيادة بطريق منهم يدعى « ماهان » فهزمه خالد وفض جموعه التى فرت إلى دمشق . وكان خالدا يرى أن توالى نكايته بالروم ينبههم إلى شأنه والجد فى أمره يستمده حتى لا يفاجئه العدو بجيش لا قبل له به (٢) .

واستمر خالد الأموى فى مناوشاته مع فلول تلك القبائل التى ناوأته وتربصت به فحقق النصر المطلوب وهكذا ظفر خالد الشام ما ناله خالد العراق من فوز ونصر . وعلى الرغم من هذا الانتصار الذى سجله التاريخ إلا أن بعض الباحثين يرى أن خالدا قد هزم بقواته بدليل أن الصديق قد عزله وعقد الألوية للقواد الأربعة الذين تم لهم فتح بلاد الشام وأن الهزيمة سببها أن القائد المذكور لم يكن من المهارة بحيث يرتاح الخليفة إلى خططه وتصرفاته العامة (٣) وأنه قد استهواه النصر وتسرع فى التقدم قبل أن تصل إليه النجدات واندفع فى ملاحقة العدو حتى مرج صفر ولما رأى القائد الرومانى تقدم خالد بن سعيد راح يخادعه ويستدرجه إلى الابتعاد عن مراكزه الأولية وما كادت القوات العربية تصل إلى منطقة حوران حتى داهمتها قوات رومانية من خلفها وفتكت بالجزء الأعظم منها . وعاد خالد ابن العاص بمن بقى معه من الجند ، وأمر أبو بكر ألا يدخل المدينة حتى

---

(١) ابن كثير البداية جـ ٧ ص ٤ .

(٢) الشيخ النجار الخلفاء الراشدون ص ٩٣ .

(٣) د / عبد الحميد بخيت . عصر الخلفاء الراشدين ص ٨٦

لا تؤثر هزيمته فى قوة المسلمين المعنوية (١) والحقيقة أن خالداً لم ينتظر وصول جيش المسلمين وجموعهم فتسرع بالسير إلى دمشق ليكون له فخر الزهو بتحقيق النصر الذى لا يأتى إلا بترتيب وهو ما فعله الخليفة الصديق بتخطيطه وحسمه . حيث جعل لخالد مهمة محدده من شقين :

أ - حماية حدود الجزيرة العربية من الغارات الخارجية وقت الفتوحات العراقية .

ب - إنها قوة استطلاعية تقف بحق على التجهيزات الحربية للحاميات الرومانية ببلاد الشام وقد أدت مهمتها وإنها تعاملت حربياً ضد قوات ماهان التي نزلت منطقة آبل وفضت جموعه التى أتت لعمل الكمائن للجيوش العربية . وإن سر ارتداد قوات ابن سعيد إلى منطقة ذوى المروه - بوادى القرى - كان بإشارة من الخليفة المحنك البصير بأحوال تلك البلاد ومبلغ علمه بأن القوات الرومانية سوف تضطر إلى منازلة القوة بالقوة وسوف يحاصروه حتى لا تتكاثر أعداد جيشه فجعل أبو بكر عكرمة فى الناس ردءا - بما معه من قوة - للمسلمين يمنع من يطلبهم (٢) . أما بالنسبة لاختيار الخليفة أبى بكر لأربعة من خيرة قواد المسلمين لهم جد وهمة وصولات مع جيش كبير بلغت عدته خمسة وثلاثين ألف مقاتل فإن بلاد الشام كانت فسيحة مترامية الأطراف وتحتاج إلى جهود كل هؤلاء حيث شملت المساحة كل البلاد الواقعة غربى الجزيرة ومناطق كلدة وقيصرية على البحر وأريحا والكلس وعسقلان وغزة ويافا وعكا وصور شمالى فلسطين وسوريا التى من أهم مدنها دمشق وحمص وحلب وفحل وأنطاكية . وفى كل تلك الأماكن معاقل حصينة تحرسها حاميات رومانية قوية ومجهزة

---

(١) النجار مرجع سابق ص ٩٤ .   (٢) ابن كثير مرجع سابق جـ ٧ ص ٤ .

بأنواع الأسلحة (١) ولا أعتقد أن خالد بن سعيد بتسرعه يستطيع أن ينجز ذلك بقوته الاستكشافية أن تنفرد بهذه الحاميات كلها وقد لخص أبو بكر رأيه فى خالد بن سعيد ويحسن بنا أن نورده هنا : « فلعمرى إنك مقدام محجام نجاء من الغمرات لا تخوضها إلى حق ولا تصبر عليه » (٢) وقد أتبع أبو بكر قوة خالد بقوات أخرى جاوزت الحدود بعد أن حشدها بكل المستنصرين من اليمن ومكة وجمعت كل من عاد من أرض تهامة وعمان والبحرين والسرو أواخر سنة ١٢ هـ .

• إرسال القوات الإسلامية الأربعة إلى بادية الشام :

كانت الخطة التى وضعها الخليفة أبو بكر بالمدينة لقواته الأربعة أن ينزل أبا عبيدة بن الجراح بالجابية وجعل ليزيد بن أبى سفيان الإقامة بالبلقاء (٣) وعمرو بن العاص بوادى عربة وشرحبيل بن حسنة يقيم بطبريه - بالقرب من البحيرة - وهؤلاء القواد هم فى الأصل قرشيين عدا شرحبيل فإنه كندى(٤) أخرج البيهقى أن أبا بكر لما بعث الجنود نحو الشام مشى أبو بكر مع أمراء جنده يودعهم حتى بلغ منية الوداع . فقالوا يا خليفة رسول الله تمشى ونحن ركبان ؟ فقال إنى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله فجعل يوصيهم فقال « أوصيكم بتقوى الله اغزوا فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله فإن الله ناصر دينه ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تجبنوا ولا تفسدوا فى الأرض ولاتعصوا ما تؤمرون فإذا لقيتم العدو من المشركين إن شاء الله فادعوهم

(١) راجع الأزدى فتوح الشام ص ١٠٨ - ١٢٢ .

(٢) الطبرى تاريخ الأمم جـ ٦ ص ٥٩٠ .

(٣) الجابية : قرية من أعمال دمشق قرب مرج الصفر فى شمالى حوران وتدعى جابية الجولان والبلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى .

(٤) الطبرى جـ ٤ ص ٢٩ .

إلى ثلاثة فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم وادعوهم إلى الإسلام فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين فإن هم فعلوا فأخبروهم إن لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . وإن هم دخلوا فى الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى فرض على المؤمنين وليس لهم فى الفئ والغنائم شئ حتى يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا أن يدخلوا فى الإسلام فادعوهم إلى الجزية فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم وإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله ولا تغرقوا نخلا ولا تحرقوها ولا تعقروا بهيمة ولا شجرة تمر ولا تهدموا بيعة ولا تقتلوا الولدان والشيوخ ولا النساء وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين اتخذوا للشيطان فى أوساط رءوسهم أفحاصا فإذا وجدتم أولئك فاضربوا أعناقهم إن شاء الله » (١) .

وكان يزيد أول الأمراء خروجا إلى الروم فأسدى أبو بكر إليه خلاصة نصحه ومنحه براءة تعيينه التى لم تخرج عن مضمونها البليغ (٢) وعندما

---

(١) كنز العمال ج ٢ ص ٢٩٥

(٢) مما قاله لقائده الأموى يزيد : إنى قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك وإن أسأت عزلتك فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل ما يرى من ظاهرك وإن أولى الناس بالله أشدهم تولية له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله وإياك وعيبة الجاهلية فإن الله يبغضها ويبغض أهلها وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه وإذا وعظت فأوجز وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصلِّ الصلاة لوقتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها . وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون . ولا تجعل سرك بلاعنيتك فيختلط أمرك وإذا استشرت فأصدق الحديث تصدق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك وأسمر الليل فى أصحابك تأتيك الأخبار وتنكشف عندك =

وصلت الجيوش الإسلامية إلى أماكنها التى حددت لها بعد أن اطمأن الخليفة إلى كفاية قواده وقوة جنده الذين كانوا خلاصة أفلاذ أكباد المسلمين فى مكة والمدينة والطائف واليمن وملأ قلب أبى بكر إيمانا بأن نصر الله قريب ، وكان يزيد بن أبى سفيان - أيضا - أول القادة مواجهة للجيش الرومانى وعلى اللواء أخوه معاوية يحمله فجرت بينه وبين سرجيوس بطريك قيصرية وقعة شديدة الوطأة فى وادى عربة جنوبى البحر الميت وانتهت هذه المعركة بقتل سرجيوس والقضاء على قوته المضطربة فى سنة ١٣ هـ ٤ فبراير سنة ٦٣٤ م ثم أتبعه القائد الداهية عمرو بن العاص فزحف بجيشه من إيلة - العقبة - وشن الغارات تلو الغارات فى كل النواحى الجنوبية من فلسطين حتى استولى على إقليم قيصرية (١) بعد أن هزم القوات الرومانية به الذين فاجأتهم هجمات عمرو واستطاع - بفضل تدبيره - أن يبسط يده على جنوب فلسطين لتكون قوة عربية فى أرض الشام بلغت ثمانية آلاف مقاتل (٢) .

وبعد تلك الهجمات عرف الرومان جد المسلمين فى حروبهم فتأهبوا للتحرك السريع حيث كاتبوا هرقل فقدم إلى حمص ليكون على مقربة من ساحة الميدان وأمر قواده أن يشغلوا القوات الإسلامية حتى لا تجتمع قوتهم فى جيش واحد وأرسل لهذا بإزاء كل أمير جيشاً أكثر من جيشه

= الأستار وأكثر حرسك فى عسكرك وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن محرسه أدبه وعاقبه فى غير إفراط ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ولاتجس عليهم فتفضحهم ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء وأصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس . واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر » ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ١٠٤ .

(١) وهو موقع إستراتيجى هام حيث كانت به حامية مستحكمة عالية الأسوار مجهزة بالعدة والقوة وسقوطه فى يد قوات عمرو يعطى قوة للجيوش الإسلامية فى بلاد الشام .

(٢) راجع مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ١٣٨ ، الدولة الإسلامية لمصطفى زياده ص ٢٧

وأعظم قوة فجمعت الروم جموعهم وقالوا « واللّه لنشغلن أبا بكر عن أن يورد الخيول إلى أرضنا » ، فعسكر بإزاء قوات عمرو تسعين ألفا بقيادة « تذارق » تيودور . كما أرسل الإمبراطور جيشاً ثانياً من ستين ألفا وأمر عليه جرجة بن بوذيها ليحارب يزيد بن أبى سفيان . كما بعث جيشاً عدته ستون ألفا على رأسه القيقلان بن نسطورس لينازل أبا عبيدة أما شرحبيل فانتدب الدراقص بقوة أربعين ألفا ليحاربه بها وكان قائدهم تذارق الذى غلب الأعاجم من قبل (١) .

ورأت القوات الإسلامية ببادية الشام بعد إعمال الفكر والنظر فى أمر تلك المقاومة الرومانية التى لم يكن فى حسابهم أن يكون لها هذا التنظيم وعلى هذه الدرجة من الإعداد والتجهيز المحكم وأنهم لا قبل لهم بالجيش المناظر ، فتكاتبوا وتشاوروا وأرسلوا إلى أبى بكر بالمدينة وإلى عمرو بن العاص بقيصرية لحسم الأمر والموقف جد خطير ، فبعث إليهم عمرو برأيه وينبئهم بإمكان هزيمة هذا الجيش القوى بالاجتماع « لأن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب عن قلة وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحد مما استقبلنا وأعدلنا لكل طائفة لنا » (٢) .

كما طلع عليهم كتاب الخليفة أبى بكر الذى جاء إليهم بعد ورود كتاب عمرو . قال الصديق فى كتابه لأمراء جنده بالشام « اجتمعوا وكونوا عسكراً واحداً والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين . فإنكم أعوان اللّه واللّهُ ناصرٌ من ينصره وخاذل من كفره ولن يؤتى مثلكم عن قلة وإنما يأتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم فاحترسوا من الذنوب وليصل كل منكم بأصحابه واللّه ناصركم إن شاء اللّه (٣) .

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٨

(٢) الطبرى تاريخ الأمم ج ٦ ص ٥٩٠

(٣) المرجع السابق ج ٦ ص ٥٩٠

ولما اجتمع المسلمون بلغ عددهم أكثر من ثلاثين ألفاً ، ولما علم هرقل باجتماع المسلمين كتب إلى قواده أن يجتمعوا أيضا وبلغت أعدادهم بعد هذا أربعين ومائتى ألف مقاتل . وقد كان من السهل على هذا الامبراطور تجميع هذا العدد الوافر حيث كان يدين له بالولاء ويقع تحت نفوذه مناطق آسيا الصغرى ومصر وفلسطين وأفريقيا وسوريا والأردن وكل إقليم به حاميات تستطيع أن تمده بما يطلب من مؤن وسلاح ورجال براً وبحرا وفى أى وقت يريده وتحتاج إليه ساحات القتال .

● موقعة اليرموك : (١)

اجتمع المسلمون على شاطئ اليرموك وفى طليعتهم زهرة شباب المهاجرين والأنصار فيهم ما يزيد على ألف من أصحاب رسول الله ﷺ بل فيهم من شهدوا بدراً ، وتدعم بالملائكة المسومين وقد تواثبت إمدادات الجند إليهم فى مقدمتهم هاشم بن عتبة وسعيد بن عامر بن جذيم وبلال بن أبى رباح وحمزة ابن مالك الهمدانى وحبيب بن مسلمة الفهرى تتابع قدومهم بمجموعاتهم إلى عسكر المسلمين الذين سُروا بمجيئهم واستبشروا بهم خيراً ، وكل واحد من هؤلاء الخمسة له استنفار وجدٌ فى الخروج لكى يكون على أهبة المدد هو ومن معه . فكان أولهم هاشم الذى دعم قوات المسلمين بألف من المسلمين فسلم على أبى بكر وودعه وخرج من غده وسار يضرب فى المسالك والطرق حتى لحق بالجيوش المتأهبة ، أما سعيد الذى صدقت نيته فى الجهاد وتقديم كل العون لإخوانه فى الشام ، فعندما بلغه أن أبا بكر يريد أن يبعثه لينضم إلى طلائع المجاهدين يقول ابن جرير إن ابن عامر لما أبطأ على أبى بكر إرساله ومكث أياما لا يذكر له ذلك أتاه فقال : يا أبا بكر والله لقد

(١) اليرموك . واد بناحية الشام فى طرف الغور يصب فى نهر الأردن ثم يمضى إلى البحيرة المنتنة - المعجم ج ٥ ص ٤٣٤

بلغني أنك كنت أردت أن تبعثني في هذا الوجه ، ثم سكتَ ، فما أدرى ما بدا لك في ؟ فإن كنت تريد أن تبعث غيرى فابعثنى معه وإن كنت لا تريد أن تبعث أحدا فإنى راغب في الجهاد فأذن لى رحمك الله كيما ألحق بالمسلمين ، فقد ذكر لى أن الروم جمعت لهم جمعاً عظيماً . فقال له الخليفة أبو بكر : رحمك الله أرحم الراحمين يا سعيد . فأمر بلالا ، فنادى في الناس أن انتدبوا أيها المسلمون مع سعيد بن عامر إلى الشام . فانتدب معه سبعمائة رجل في أيام ، فلما أراد سعيد الشخوص جاء بلال إلى الخليفة وقال له « يا خليفة رسول الله إن كنت إنما أعتقتنى لله تعالى لأملك نفسى وأتصرف فيما ينفعنى فخل سبيلى حتى أجاهد في سبيل ربى فإن الجهاد أحب إلىّ من المقام ، فأذن له الصديق ، ففرح بلال وتأهب للخروج وقال لأبى بكر : جزاك الله من ولى نعمة ومن أخ في الإسلام خيرا فوالله ما أمرك لنا بالصبر على الحق والمداومة على العمل بالطاعة ببدع [1] .

ويقول ابن الأثير إن رجلا اسمه حمزة بن مالك قدم على المدينة في جمع من قومه بلغوا ألف مجاهد فلما رأى أبو بكر عددهم وعدتهم سرّه ذلك فقال : الحمد لله الذى صنعه للمسلمين ما يزال الله تعالى يرتاح لهم بمدد من أنفسهم يشد به ظهورهم ويقصم به ظهور عدوهم . ثم سرّحه الصديق بما معه إلى جهة الشام . وما زال الخليفة يرسل كل راغب في الجهاد خاصة بعدما بلغ بجمع الأعاجم إذ لم يكن شئ أعجب إليه من قدوم المجاهدين عليه من أرض العرب فيستقبلهم ويرتبهم ويبين لهم وجهتهم ويودعهم فكانوا كلما قدموا عليه سرّح الأول فالأول وجاءت القبائل بالرجل الواحد والمئات من بنى سليم وكعب وأسلم وغفار ومزينة ، حتى رأى أهل مدائن الشام أن

(١) تاريخ الأمم ج ٦ ص ٥٩٢

العرب قد جاشت عليهم من كل وجه وكثرت جموعهم فاستبقوا يفزعون إلى الحشد ما يعتقدون أنه يضيق به الأرض الفضاء [١] .

وتوافدت قوات الروم بحشدهم الهائل وعسكروا على الشاطئ الآخر من نهر اليرموك وكانت جيوشهم أكبر عددا وأكثر عتادا عند الواقوصة [٢] بقيادة « تيودوريك » أخي هرقل في أرض منبسطة تحيط بها الجبال من ثلاث جهات وعسكروا في هذا المكان الذي يتسع لجموعهم وعندما رأى عمرو بن العاص نزول جيش العدو في هذا المكان هتف قائلا : « أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير [٣] وكان على مقدمتهم جرجة وعلى المجنبة باهان وعلى المجنبة الأخرى الدراقصي [٤] وعلى الحرب الفيقار [٥] وقد عسكر العرب في موقع استراتيجي هام يفضل موقع الروم حيث نزلوا باذرعات [٦] الذي تمر منه الطرق الرئيسية المؤدية إلى قلب فلسطين ويحميهم من الخلف روافد اليرموك العميقة وإذا ما قدر للمسلمين الهزيمة - والعياذ بالله - أمكنهم الانسحاب إلى الصحراء والرجوع إلى يثرب من أخصر طريق [٧] وقد عبر المسلمون النهر

---

(١) الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٩٠ ، ٩١ ، وقد ارتاحت سريرة الخليفة أبي بكر عندما وصلته الأنباء بوصول هذه الإمدادات المتوالية وقد تلاحمت جهود المسلمين في الجيوش الأربعة في عسكر واحد - كما أراد - وهذا يضمن لهم النصر المؤزر وإن إنكسار الروم بعد هذا الجمع أصبح وشيكا .

(٢) الواقوصة ، واد بالشام في أرض حوران .

(٣) الطبري مرجع سابق ج ٦ ص ٥٩٢

(٤) مجنبتي الجيش جوانبه أي ميسرته وميمنته .

(٥) ابن كثير البداية ج ٧ ص ١١٢

(٦) أذرعات شرقي الأردن وجنوب شرقي وادي اليرموك وشمال البلدة التي تعرف الآن بدرعة ويتوسط أخصب بقاع الشام .

(٧) زيادة الدولة الإسلامية ص ٢٧

إلى معسكر الروم فوقفوا بإزائهم . وظل الفريقان يتناوشان ويختبر كل معسكر قوة خصمه بطريق الهجوم المباغت فإذا خرج الروم من جهتهم ردتهم القوات الإسلامية فيرجعون إلى مكانهم وإذا غامر بعض الأبطال المسلمين بالهجوم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتراجعون بعدها مخافة الحصار والهزيمة . وهكذا نرى أن القوتين قد هابت كلتاهما الأخرى واستمر الحال على ذلك مدة ثلاثة أشهر وتحرج الأمر وعرف أبو بكر ذلك الموقف المتأزم فضاق به وضجر منه ومل الانتظار الطويل حيث أقام المسلمون شهر صفر من سنة ثلاث عشرة من الهجرة وشهرى ربيع الأول والثانى لا يقدرون منهم على شئ من الوادى والخندق . ثم لما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر الصديق أيضا (١) وبينما الخليفة أبو بكر يفكر انكشفت له الحقيقة جلية أن المسلمين لم ينتصروا يوما بكثرة عددهم وإنما انتصروا دائما بمهارة القيادة وقوة الإيمان ، والإيمان لا ينقص جيوش الشام لا بد أن تكون العلة إذن فى القيادة . فهذا الموقف يحتاج إلى القائد الجسور الذى لا يعرف الهوادة ولا يهاب الموت . وأبو عبيدة على مقدرته رجل رقيق القلب ، وابن العاص على دهائه فى السياسة هياب غير مقدام ، وعكرمة مداور مقدام إلا أنه تعوزه دقة التقدير وسائر القواد لم يقودوا بعد المعارك الكبرى ثم إن هؤلاء الأمراء جميعا لا يقرون لواحد منهم بالتفوق على سائرهم تفوقا يكفل بسلطانه وحدة القيادة . تكشفت تلك الحقيقة للخليفة أبى بكر فوقع اختياره على خالد بن الوليد (٢) فأرسل إليه أن يقدم إلى الشام لينجد الجيش الإسلامى باليرموك ويأتى إليهم ومعه نصف الجيش وقيل أتى ومعه تسعة آلاف وخمسمائة مجاهد وقد أعلن الصدِّيق ساعتها :

---

(١) ابن دحلان الفتوحات الإسلامية ص ١٠٧

(٢) هيكل . الصديق أبو بكر ص ٢٥١

والله لأنسين وساوس شيطان الروم بخالد بن الوليد [1] وعندما جاء كتاب الخليفة إلى خالد كان فور منصرفه من الحج السرى - كما أبنا ذلك من قبل فى موضوع سبب ترك خالد للعراق - وسلك خالد أسرع الطرق للوصول إلى اليرموك [2] .

أنس القواد الأربعة المخلصون لطاعة الخليفة أبى بكر لتعيينه خالد قائدا عاماً على جيوش المسلمين بالشام وهو قرار يمس صميم قوتهم بل مصير الحرب فى تلك الجبهة كلها خاصة وأن الجهد بلغ بهم مبلغه وربما يتأرجح الموقف ويصل إلى الحرج وجاء خالد رجل الساعة الحصيف والقائد المقدام وسط مجاهديه من أرض العراق فوجد أن قساوسة الرومان قد مكثوا شهرا كاملا يحرضون قواتهم على النزال ويعبئون روحهم المعنوية فى حماسة دينية منقطعة النظير [3] .

لم تعذ القوات الإسلامية - بالطبع - تلك التعبئة الروحية التى تولاها القراء الحفاظ والخطباء المبرزون فى استنهاض يحرك الخامد ويوقظ الخامل وكان على رأس « الجهاز التعبوى » المقداد بن عمرو وأبو هريرة وبلال بن أبى رباح والذين سنوا فى الناس سنة رسول الله ﷺ بعد بدر فكان يقرأ

---

(١) ابن دحلان مرجع سابق ص ١٠٨

(٢) وقصد الشام عن طريق لم يسلكه جيش قبله وكان دليله رافع بن عمير الطائى فسار عن طريق قرافر وهو ماء لقبيلة كلب بالسماوه إلى « سوى » ثم أرك وأتى تدمر ورأى أعاجيب الأفعال والأبنية فى كل مفاوزه ومدنه لمعالجة العطش للرحاله والفرسان والخيل والإبل إلى أن بلغ القريتين . بلد تقرب حمص فى البرية ثم حوارين والعقاب ومرج راهط وبصرى . وقصم وفى كل موقع من هذه المواقع الرومانية وجد خالد وجند المسلمين مقاومة فأغار خالد عليهم وساق أمامه السبايا والمغانم الكبيرة وبعث بأخماس كل ذلك إلى أبى بكر بالمدينة ثم لحق بالمسلمين باليرموك فوجد الجند محاصرون على حالتهم التى كاتبوا الخليفة أبا بكر يطلبون إمداده . فأمدهم به .

(٣) ربما لا يعادلها فى كثافتها إلا ما حدث أثناء الحروب الصليبية التى جرت معاركها على أرض المشرق العربى - دحلان مرجع سابق ص ١٠٩

سورة الجهاد عند اللقاء وهى الأنفال (١) وكان أبوسفيان يقف على كل كردوس ويقول : إنكم زادة العرب . الله الله إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك ، وأهلك زادة الروم وأهل الشرك (٢) .

وأثناء تلك التعبئة أعاد خالد التشكيلات الحربية تحت ألوية الإسلام والتى أسندت لأربعة من خيار القواد وأعظمهم جلدا فى ساحة القتال وذلك قبل أن ينتهى شهر جمادى الآخر سنة ١٣ هـ ولا بد من اجتماع الكلمة وتوجيه الضربات إلى الروم وبسرعة حتى لا يفت التأخير فى عضد القوات التى أصبح أميرا عاما عليها فاستخدم أسلوب الكراديس (٣) التى حارب بها فى الجبهة الشرقية وجعل على كراديس الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأمَّر على قوات الميسرة يزيد بن أبى سفيان وأسند القلب إلى أبى عبيدة بن الجراح وأقام على الجيش أربعين كردوسا تاماً بالتجهيزات الإدارية والمعنوية ينتظرون ساعة اللقاء ولا ضير أن يقاتل هؤلاء عددهم الذى يفوق أعدادهم وعتادهم التى تملأ السهل والجبل « وإنما تكثر القوات بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال » وأثناء تنظيم الألوية كان

---

(١) الطبرى مرجع سابق ج ٦ ص ٥٩٥

(٢) الازدى فتوح الشام ص ١١٠

(٣) الكردوس : الجماعة من العسكر فكان رؤساء الكراديس القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى ودحية بن خلف الكلبى وعمرو بن عنبسة وجارية بن عبد الله الأشجعى وقباث بن أشيم وسعيد بن خالد وأبو الأعور بن سفيان وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو وابن ذى الخمار ولقيط بن عبد القيس وجندب بن عمرو وحبيب بن مسلمة وصفوان بن أمية ويزيد بن يحنس وزياد بن حنظلة وعياض ابن عنم وعاشم بن عتبة وامرؤ القيس وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن فلان والزبير بن العوام وضرار ابن الازور وعصمة بن عبد الله وحوشب ذو ظلم ويزيد بن أبى سفيان وقيس بن عمرو بن يزيد وشرحبيل ابن حسنة وعمارة بن مخش ، وغيرهم الذين كان تمامهم أربعين كردوسا كما أوردهم ابن الأثير ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣

خالد ينظر فى كراديس جيشه فمال إلى أبى عبيدة وقال له : إنى مشير بأمر . قال أبو عبيدة « قل ما أمرك والله أسمع لك وأطيع » . قال خالد : إن هؤلاء القوم لا بد لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها وإنى أخشى على الميمنة والميسرة حتى إذا صدموا كانوا لهم ردءا فتأتيهم من ورائهم . قال أبو عبيدة لخالد : نعم مارأيت . فكان خالد فى إحدى فرق الخيل من وراء الميمنة وكان قيس بن هبيرة فى الخيل الأخرى وراء الميسرة وأمر أبا عبيدة أن يتأخر عن القلب إلى وراء الجيش كله ووضع سعيد بن زيد مكانه بالقلب ، وجعل لنساء المسلمين على رأسهن أسماء بنت أبى بكر والخنساء بنت عمرو وهند بنت عتبة موقفهن من وراء الجيش معهن عدد من السيوف وغيرها من الأخشاب والأشواك والحديد والحجارة وقال لهن من رأيتموه موليا فاقتلنه (١) .

وبعد أن اطمأن خالد على غاية ترتيباته قام فى الجند خطيباً محدداً لهم ما يريد أن يقوله كقائد عام وفى جعبته الكثير قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه « إن هذا اليوم له ما بعده لا ينبغى فيه الفخر والبغى ، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ولا تقاتلوا قوماً على غير نظام وتعبية على تساند وانتشار فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى وإن مَن وراءكم لو يعلم عملكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته قالوا : فهات فما الرأى ؟ قال إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ولو علم الذى كان ويكون لما جمعكم . إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من إمدادهم ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم فالله الله فلو أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه إن دان له وإن

---

(١) ابن عساكر التهذيب ج ١ ص ١٢٥

تأمر بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا [1] .

وفى صبيحة آخر يوم من جمادى الآخر سنة ١٣ هـ سنة ٦٣٤ م وقعت المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم وقد قام بعض البدو النازلين فى الأصقاع بنقل الأخبار وأعمال الجاسوسية لكلا المعسكرين ومن خلال هذه الأنباء التى وصلت فسطاط خالد تعرّف من خلالها على ثغرات العدو وبنى خططه على أساسها كما وصل إلى سمعه فزع الأمراء البيزنطيين حينما علموا بوجوده بين جند المسلمين وإن الخلاف دب بين صفوف الروم مع انتشار روح التمرد فى الجند [2] وقد استمر القتال طوال النهار إلى جنوح الشمس إلى المغيب فتطارد الفرسان وخرست الألسن وصمت الأذان إلا من قعقعة السيوف وتراشق النبل من أقواس الأبطال تحت ظلال الرايات المرفوعة ، وعندما صدرت الأوامر بالزحف نحو المسلمين كان القائد البيزنطى المسمى « جرجه » بجيشه فى الطليعة فتلقاه خالد وفسح له ولعسكره طريقا وظن فيلق من الروم أن قائدهم فى حاجة إلى المدد فانقضوا على المسلمين فأزاحوهم من مواقعهم وحملوهم على التراجع . وثبتت فى تلك الآونة بطولات معادن الإسلام المتفردة البطولة الذين تصدوا لوابل السهام وملاحقات الطعان « فى مقدمتهم الزبير بن العوام الذى كان من أفضل من شهد المعركة فقد اخترق الصفوف الرومانية مرتين . أما عكرمة الذى كان على الكردوس الذى تلقى الصدمة الأولى فصاح فى جنده : من يبايع على الموت فقد قاتلت مع رسول الله ﷺ فى كل موطن وأفر اليوم ؟ إن ذلك لن يكون . فبايعه أربعمائة من أهل النجدة والغناء من وجوه

---

(١) ابن كثير البداية ج ٧ ص ١٤

(٢) محمد فرج . السلام والحرب فى الإسلام ص ٥٨

المسلمين وقاتلوا جميعا قدام فسطاط القائد وهو فى وسط القلب حتى أثخنوا جميعا جراحا وقتلوا إلا من برأ منهم فى تلك المعارك ، وقد قيل إن الحارث بن هشام أثناء إصابته دعا بماء ليشرب فنظر إليه عياض بن ربيعة فقال ادفعه إلى عكرمة فلما أخذه عكرمة نظر إليه عياش فقال ادفعه إلى الحارث ، فما وصل إلى عياش حتى مات ولا وصل إلى واحد منهم حتى ماتوا رضوان الله عليهم (١) .

وظهرت مواهب المقدام « عمرو بن معديكرب » الذى قاتل قتالا شديداً وثبت احتسابا بعد أن انكشفت زبيد - قبيلته - وكان عمره آنذاك مائة وعشرين سنة إلا أن همة الشجاعة كما يقول ابن أعثم الكوفى كانت متيقظة فيه (قال) فلما نظر إلى قومه قد انكشفوا صاح فيهم يا آل زبيد يا آل زبيد أتفرون من الأعداء ترمون أنفسكم بالعار والذلة والشنار فما هذا الإنزعاج من كلاب أعلاج أما علمتم أن الله يطلع على المجاهدين الصابرين فإذا نظر إليهم قد لزموا الضبر فى مرضاته وثبتوا لقضائه أمدهم بنصره وأيدهم به فأين تهربون من الجنة ؟ أرضيتم بالعار وغضب الجبار ؟ فلما سمعت زبيد كلام سيدها عمرو تراجعوا إليه كعطفة الأم واجتمعوا من حوله وحملوا على الروم حملة واحدة وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان فأزالوا الروم عن مواقعهم (٢) وتحركت الحمية فى النفوس الأبية فانتهزها خالد وعزم على مناجزة « تيودور » وعبأ العرب تعبئة جديدة رائعة وأحكم خطة القتال فوضع جانبا من جنوده فى الناحية الشرقية من ساحة القتال وقطع طريق الاتصال بين قوات الروم وحاميتهم بدمشق . كما احتل

---

(١) ابن الفلاح بن العماد . وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٤ ص ١١٨

(٢) الفتوح . ج ١ ص ٢٥٩

الجسر القائم فوق وادى الرقاد ليسهل عليه عبور هذا الوادى الرحيب فى سهولة ويسر فحال بين الرومان وبين إمكان تراجعهم إلى الغرب [1] . وكان المكان واسعاً للنزال ولكنه ضيق المهرب وتضايقت خيل الروم وقد وجدت منعرجا فذهبت تسرع إلى الصحراء وكان الجنود المسلمون فى إثر فرسانهم يلاحقونهم وهم يهربون ومن يثبت منهم فى الواقوصة أخذته سيوف الكمائن فى الكراديس ، ومن حاول النجاة من تلك السيوف أغرقته تيارات أمواج نهر اليرموك . وبهذه الخطة المحكمة أبيد معظم الجيش الرومانى فى الواقوصة وقد زاد من خسارتهم أنه كان منهم كثير من المسلسلين أو المقيدين إذا هوى واحد منهم فى النهر هوى بقيتهم بهويه ، فتهافت فى الواقوصة مائة وعشرون ألفا منهم ثمانون ألفا مقترن وأربعون ألف مطلق سوى من قتل فى المعركة من الخيل والرجل ، ولما رأى « الفيقار » قائد الروم مع أشرافهم ما حل بهم قالوا ما نحب أن نرى يوم السوء إذا لم نستطع أن نرى يوم السرور وإذا لم نستطع أن نمنع النصرانية فتجللوا برانسهم فأصابهم المسلمون قتلا فأصبح خالد فى اليوم الثانى للمعركة فى فسطاط أخى الملك بعد أن قضى عليه وهو يقاتل المسلمين نهار الأمس مع ليلة اليوم الثانى إلى الصباح فهزم الله الروم وجنى المسلمون العقبى وأصابوا ما فى المعسكر فكان سهم الفارس من المسلمين يومئذ ألفا وخمسمائة [1] .

وقد استشهد نحو ثلاثة آلاف مجاهد بينهم العدد الوافر من أعلام الصحابة فى مقدمتهم عبد الرحمن بن العوام أخو الزبير وعامر بن أبى وقاص ، وعياش بن أبى ربيعة المخزومى والنضير بن الحارث وسعيد بن الحرب ونعيم بن عبد الله التمام العدوى وأبو الروم بن عمير العبدرى

---

(١) د . مصطفى زياده . الدولة الإسلامية ص ٢٨

(٢) ابن كثير البداية ج ٧ ص ١٥ ، ابن أعثم الكوفى الفتوح ج ١ ص ٢٦٠

وكليب بن عمير وهشام بن العاص والطفيل بن عمرو وجندب بن عمرو وسلمة بن هشام وعكرمة بن أبى جهل وابنه عمرو وأبان بن سعيد ، فى الجنة مستقرهم جميعاً (١) .

وفى النهاية : يجب أن نضع بعض النقاط نوردها مع النتائج الهامة لتلك المعركة الحاسمة لبلاد الشام والتى تعد من مفاخر الحربية الإسلامية فى تاريخ الإسلام وفى عهد أبى بكر الصديق على وجه الخصوص :

أ - بعد هزيمة القوات البيزنطية ارتحل هرقل وهو دون مدينة حمص ، إذ تقرر أمر الشام لمصلحة الدولة الإسلامية فعلى أثر اليرموك تم للقوات الإسلامية فتح دمشق قصبة البلاد الرئيسية .

ب - بعد أن خلت المعركة دخل المسلمون « المعسكر الرومانى » فوجدوا الكثير من الأسلاب والغنائم فاستقر خالد فى رواق تذارق وغنم المسلمون كل ما فى معسكر الروم . ومن الرواق الذى أقام به شقيق قيصر خلال ثلاثة أشهر وهو من الديباج مد خالد بصره إلى الميدان الذى فر منه الروم فأصبح خلاء ليس لهم فيه نبأة ولا هسيس ثم رفعه إلى السماء شكراً لله على نعمائه (٢) .

ج - أن جيشاً بلغ عدد رجاله أربعين ألف مجاهد ينازل جيشاً كثيف العدد فيه خمسة أمثاله ويحقق النصر عليه لدليل على أن الكثرة والقلة ليستا مدار النصر والهزيمة وإنما مدارها الصبر والثبات وخلوص النوايا وتحقيق قول الله تعالى ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ (٣) .

---

(١) ابن اعثم المرجع السابق ص ٢٦١

(٢) هيكل . الصديق أبو بكر ص ٢٦٤

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٩

د - كان جيش المسلمين فيه العدد الوفير ممن درب على الحرب وإيقاع الخصوم فى مصائد الهزيمة فساعدوا خالداً بإنزال الضربات التى تتميز بالضراوة سواء كانت فى الجزيرة ضد المرتدين أو فى جبهة العراق فى مواجهة الفرس أم كانت تساعد فى إنزال ألوية الدولة البيزنطية المنهزمة فى بادية الشام .

هـ - لم تنهزم القوات الرومانية بسبب الضعف العام فى دولتهم كما قال المرحوم العقاد « لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطمها ما قد حطم الفرس من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباخت عقائدها فى صدورها لفرط ما أرثها من الجدل العقيم واستكانت إلى الذلة مرغمه حتى رضيت بالجزية تؤديها » (١) بقدر ما كانت الريادة - فى رأيى - فى تلك المناطق تسلم مفاتيح النصر والظفر لفرسان دولة الإسلام المغاوير خالد وعمرو ويزيد وشرحبيل والوليد بن عقبة وابن الجراح وأسماء عكرمة والنضير وعياش والتمام ومن نهج مناهجهم فى صحائف الصالحين .

و - وقد حدثت وفاة الخليفة أبى بكر قبيل التحام القوتين العربية والرومانية ووصلت الأخبار إلى القائد العام ، « خالد » ، فكتمها حتى تم له النصر النهائى ثم أذاعه . وكان مضمون الكتاب الذى وصل إلى خالد بواسطة منجمة بن زنيم والذى كان قد أسرَّ فى أذنه بأن الصديق قد توفى واستخلف عمر وتم إسناد الإمارة على جيوش الشام إلى أبى عبيدة بن الجراح (٢) وقد وجد خالد أنه من المصلحة أن لا يلتفت إليه وقتها . وبعد أن نفذ الخطة الحربية التى وضعها وتم له ولجنده الفوز سلم الأمر إلى أبى عبيدة وأعطاه مرسوم التقليد الذى جاء به البريد من الحجاز وعليه نقش

---

(١) عبقرية الصديق ص ١٤٥

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٥٩٢

خاتم الخليفة الجديد عمر بن الخطاب . وينضم خالد الذى تربى فى ساحات ميادين القتال بطلا مغواراً ودانت له أعتى الجيوش وفتحت له العواصم حتى أن القواد من الخصوم الذين كانوا يتحاشون منازلته يقولون « إن الله أنزل على الرسول ﷺ سيفا من السماء أعطاه لخالد فلا يسله على قوم إلا هزمهم حيث سمى « سيف الله المسلول » أخذ بالقلوب والنواصى [1] ومع هذا كله لم يتضجر ابن الوليد لهذا العزل كعهدنا بأرباب الفروسية بل طلب من أبى عبيدة - القائد الجديد - بعد أن هنأه أن ينضم إلى جيش الشام تحت قيادته كفرد عادي يلاقى أعداء الله لينال الشهادة التى تمناها بعد مئات الجراحات والطعنات التى هى فى الحقيقة أوسمة يكرَّم بها الأبطال ، ولكن الأمنية الغالية تمنعت ولم تكتب له ، يقول المرحوم عبد الوهاب النجار « إن خالدا كان واسطة عقد قواد الفتوحات وزينة تاريخ أبى بكر » وبانتهاء وقعة اليرموك تمت الأعمال الكبرى التى قامت بين دولة الإسلام فى مقابلة دولتى الفرس والروم فى عهد أبى بكر وقد عدَّ المؤرخون اليرموك من أعمال عهد أبى بكر لأنها بدأت وتهيأت فى زمنه وبعمله . وإن الأعمال الكبرى التى تمت فى هذا التاريخ القصير الذى لم يمتد إلى أكثر من سنتين وأربعة أشهر وهى مدة خلافة أبى بكر تشهد بأن الرجل كان صادق العزيمة قوى الإرادة كبير الهمة لأنه لا يحمل العظيم من الأمور ويستقبل به إلا العظيم [2] .

* * *

---

(١) المرجع السابق ج ٦ ص ٥٩٢

(٢) الخلفاء الراشدون ص ١٠٢

الفصل السادس
لطائف مزدهرة من أعمال أبى بكر

• جمع القرآن :

وإذا كان أبو بكر قد تم له الحفاظ على الدين الإسلامى مما تعرض له من الناقمين والحاقدين فى فتنة الردة فجمع الله على يديه شتات ما تفرق وانضمام فروع ما تشعث . فإنه يذكر له بكل الإجلال أنه تمكن من جمع القرآن فى دفة واحدة خوفاً عليه من الضياع أو الزيادة فى آياته أو جريان النقص وفق الأهواء كما حدث فى الكتب المنزلة التى سبقته ، فاهتم - رضى الله عنه - بجمعه وتدوينه بعد ما استحر القتل فى كثير من حفّاظ القرآن فى معركة اليمامة ضد المرتدين من بنى حنيفة ، والمطلع على تاريخ نزول وتدوين ذلك الكتاب الكريم يجد أنه نزل شفويا على رسول الله ﷺ وهو ذلك النبى الأمى فلم يخط منه حرفاً ثم حفظه طائفة من الصحابة الأعلام . فسمح لهم المصطفى الكريم ﷺ بأن يكتبه من يشاء منهم بالكيفية التى رآها وتعلمها فى ذلك التاريخ امتثالاً لأمر الرسول أو تطوعا منهم فكانوا يخطون الآية والآيات على ما يصادفهم من أديم أو جريد أو عظام أو رقاع أو غير ذلك مما يصلح للكتابة وحرص بعضهم على حفظه واستظهاره [1] وتقول الروايات الموثوقة فى هذا السبيل إن عمر بن الخطاب فى عهد أبى بكر قد سأل يوما عن آية من كتاب الله فقيل كانت مع فلان قتل يوم اليمامة فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون . فطلب من أبى بكر

---

(١) الحافظ السجستانى . كتاب المصاحف ص ١٨

أن يجمع القرآن [1] . إذن السبب المباشر فى هذا العمل الجليل من تدوين آيات القرآن فى كتاب واحد لكيلا يضيع منه شئ ، لما مات العدد الكثيف فى حروب الردة كما مات غيرهم من القراء والحفاظ فى زمن النبى . فوافق أبو بكر على ذلك وأمر زيد بن ثابت أن يكتبه وضم إليه من يساعده من زعماء الإسلام ورؤوس الدعوة الهادية ممن كان منهم على قيد الحياة . فكتب زيد ومن معه نسخة جامعة لكل القرآن حفظت عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر . فكان أبو بكر أول من جمعه وحفظه [2] وفي البخارى عن زيد بن ثابت أنه قال : أرسل إلىّ أبو بكر عقب مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال إن القتل قد استحر بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقال زيد لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ؟ قال عمر هذا والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ورأيت فى الذى رأى عمر ، قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ؛ فتتبّع القرآن فاجمعه (قال زيد) فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن . وجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ إلى آخر براءة [3] وقال على بن أبى طالب « أعظم الناس فى المصاحف أجراً أبو بكر » رحمة الله على أبى بكر هو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين [4] .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ١٦٧

(٢) أبو عبد الله الزيجانى ، تاريخ القرآن ص ١٠١

(٣) النووى شرح صحيح البخارى ص ٥٢٢

(٤) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٧٧

وبما ساعد زيد في مهمته وجود عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل ممن يستظهرون القرآن ويحفظون آياته حفظاً جيداً . فضلا عن الأعلام الأثبات مثل عمر وطلحة وسعيد بن زيد وصهيب بن سنان وبلال وغيرهم من الورعين المأمونين ممن لا يلمح عليهم شبهة أو شك في يقين ومعظمهم والحمد لله كانوا يلازمون النبى ﷺ ملازمة متصلة حتى زمن هذا التدوين [1] .

أما طريقة زيد بن ثابت - المنوط به العمل الجليل - فإنه قد جمع ما أستطاع جمعه من الآيات والسور المدونة وكان يسأل ثقات الصحابة ما فى صدورهم من القرآن حتى تم له تدوين جميع القرآن فى أوراق وبطبيعة الحال كان يحتاط لما نسخ من الآيات والسور وكان يراجع فى هذا الصحابة حتى يستوثق له الأمر وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان على صدق ما يقول . وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بجمع ما وجده مكتوبا من القرآن حتى يشهد به من تلقاه سماعا وكان يفعل ذلك مع أنه من الحفاظ مبالغةً فى الاحتياط [2] وزيادة فى التدقيق والتحرى طلب أبو بكر من عمر وزيد أن يحرصا على الاستيثاق فقال لهما « اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين من كتاب الله فاكتباه » . وكان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدى رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ [3] .

وما أقدم عليه الخليفة أبو بكر من جمع القرآن فى ضميمة واحدة لهى آية من آيات المنجزات الصائبة التى تسجل لهذا العصر الذى يسارع إلى

---

(1) السجستانى مرجع سابق ص ١٩

(2) المرجع السابق ص ١٩

(3) الزنجانى تاريخ القرآن ص ١٠٢

فعل الخيرات ، فينفرد أبو بكر بهذا الفضل الجزيل أولاً ليسهل الأمر لمن جاء بعده عند استنساخ المصاحف التى كتبت منها الأعداد التى وزعت على الأمصار الإسلامية فى عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، فجزاؤهما لما عملا عند الله مدخر .

● اجتهادات أبى بكر وفتاويه أثناء خلافته :

كان للحضور الذهنى والإحاطة الكاملة بأمور التشريع الإسلامى الأثر البالغ فى تلك الاجتهادات الموفقة التى تدرج على بيانها الخليفة الأول أبو بكر لكل من جاء يطلبها فى حضور مجلسه ، فكانت الإجابات عمّا غمض فهمه من الحقائق وأغلبها يستدعى جرأة وحسما لا يقدر عليها إلا من كان راسخ العقيدة والمبدأ والمكانة كأبى بكر ، من ذلك ما أخرجه البخارى قال : « جاءت الجدة إلى أبى بكر الصدِّيق تسأله ميراثها فقال : ما لك فى كتاب الله شئ وما علمت لك فى سنة نبى الله ﷺ شيئاً ، فارجعى حتى أسأل الناس ، فسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة حضرت رسول الله ﷺ فأعطاها السدس فقال أبو بكر هل معك غيرك ؟ فقام محمد بن مسلمة فقال مثل ما قال المغيرة ، فأنفذه لها أبو بكر » وقيل إن جدتين أتتا أبو بكر تطلبان ميراثهما : أم أم وأم أب فأعطى الميراث لأم الأم فقال له عبد الله بن سهل الأنصارى - وكان ممن شهدا بدراً - يا خليفة رسول الله أعطيت التى لو إنها ماتت لم يرثها ؟! فقسمه بينهما (١) . وقد سئل الصدِّيق فى معنى قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « النظر إلى وجه الله تعالى » (٢) وقال البيهقى : إن الصدِّيق سأله رجل من النصارى عن

---

(١) النووى شرح صحيح البخارى ص ٣١٥

(٢) النووى رياض الصالحين ص ١٠٩

الكلالة فرد قائلا فى تواضع وروية إنى سأقول فيها رأيى فإن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان : أراه ما خلا الولد والوالد » « ولما استخلف عمر قال : إنى لأستحى أن أرد شيئا قاله أبو بكر » . وعن ابن مليكة قال سئل أبو بكر فقال أى أرض تسعنى وأى سماء تظلنى إذا قلت فى كتاب الله ما لم يرد الله ؟ (١) وروى إن أبا بكر قال : أطيعوا الله فيما أمركم به من الزواج ينجز لكم ما وعدكم به من الغنى فإنه تعالى يقول ﴿ وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾ (٢) ومن خلاصة اجتهادات الصديق ما أخرجته أسفار السير والسنن والفقه والتى منها « ما قيل إن أبا بكر كره بيع اللحم بالحيوان » وقيل إنه جعل الجد بمنزلة الأب يعنى فى الميراث . وعن مالك « أن رجلا من أهل اليمن قدم على المسجد زمن أبى بكر وهو أقطع اليد اليمنى شاكيا ظلم أمير اليمن له وادعى إنه يصلى الليل ، فقال أبو بكر - على الأمارة التى ظهرت له - وأبيك ما ليلك بليل سارق » . أما البراهين الخفية فقد ظهرت له عندما اختفت حلياً لأسماء بنت عميس أمرأته . وقد أمر أبو بكر الرجل أن يطوف مع الرجل للعثور على ما فقد فوجدوا الحلى عند صائغ زعم أن الأقطع جاء به فاعترف الأقطع أو شهد عليه فأمر به أبو بكر فقطعت يده اليسرى » . وقد سيق إليه رجل آخر قد سرق بعد تعدد جرائمه حيث قطعت جميع قوائمه فقال أبو بكر ما أجد لك شيئا إلا ما قضى فيك رسول الله ﷺ يوم أمر بقتلك فإنه كان أعلم بك . فأمر بقتله (٣) . وروى السيوطى ما نقله عن سيف مأخوذاً عن

(١) رياض الصالحين ص ١٠٩

(٢) سورة النور آية ٣٢ - ابن حزم أصحاب الفتيا من الصحابة ص ١٠٨

(٣) ابن عبد البر الاستيعاب ج ٣ ص ٢٥٦

شيوخه فى كتاب الفتوح « إن أمير اليمامة المهاجر بن أمية » قد رفع إليه امرأتان مغنيتان ، غنت إحداهما بشتم النبى ﷺ فقطع يدها ونزع ثنيتها وغنت الأخرى بهجاء المسلمين فقطع يدها ونزع ثنيتها . فكتب إليه أبو بكر قال : « بلغنى الذى فعلتَ فى المرأة التى تغنت بشتم النبى ﷺ فلولا ما سبقتنى فيها لأمرتك بقتلها لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود ، فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو محارب غادر . أما التى تغنت بهجاء المسلمين فإن كانت مما يدعى الإسلام فأدب وتعزير دون المثلة وإن كانت ذمية فلعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم ولو كنت تقدمتُ إليك فى مثل هذا لبلغت مكروها فاقبل الدعة وإياك والمثلة فى الناس فإنها مأثم ومنفرة إلا فى قصاص » (١) .

وأخرج البيهقى عن أبى حازم قال جاء رجل إلى أبى بكر فقال إن أبى يريد أن يأخذ مالى كله فقال لأبيه « إنما لك من ماله ما يكفيك . قال الرجل يا خليفة رسول الله أليس قد قال رسول الله ﷺ « أنت ومالك لأبيك » ؟ قال نعم وإنما يعنى ذلك النفقة (٢) .

وهكذا نجد أن أبا بكر بما وفق من جليل المسائل فضلا عن يسيرها قد دل على قدرته العقلية الفائقة وفهمه الصادق لقانون السماء وشرع رب العالمين ورعايته للحقوق العامة الملائمة لمتغيرات الزمن أما الملابسات التى جدّت فى عصره فقد وضعها فى ميزان صادق من معيار القياس على ما سبق فعله فى العصر الزاهر للنبوة . إن الثقافة الرفيعة - الروحية والدينية والفكرية - قد ملكها أبو بكر تلك التى جعلته يمضى أموره وفق ما أملاه ضميره العلمى والاجتهادى الذى يزن كل شئ .

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٦٧

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٦٦

● براعة الصديق السياسية :

إن الصديق أبا بكر قد خصه الله من بين أصحاب المزايا وأرباب المواهب بالعديد من السجايا التى بدت عنوانا خالدا على صدق عبقريته السياسية التى أكسبته حب الجميع هؤلاء الذين دانوا بالطاعة والإخلاص والاقتناع به حاكماً رشيداً سعى وجاهد فى النهوض بمسئولية الخلافة التى أسندت إليه بعد وفاة النبى ﷺ مباشره فقام بتلك الواجبات الأعباء الجسام التى كان وفياً بحقها جسوراً فى اتخاذ القرارات المناسبة التى يحتمها الحسم والحزم معا فى السير على المنهاج الذى رسمه الرسول الأعظم ﷺ فى السلم والحرب والذى نقل العرب من خشونة البداوة إلى نور الحضارة وللسيادة والريادة فى كل مجالات الحياة . فها هو الصديق من خلال تعاليم الإسلام السمحاء يوحد الكلمة ويجمع الشمل الإسلامى على سواء ؛ فالمتتبع لسياسة أبى بكر يجد الجزء الفريد من خلافته قد استجلى جواهر النظام الأساسى على ضوء فهم القرآن للالتزام بتعاليمه الحكيمة . وصورة النبى محمد ﷺ فى صميم ذاكرته عند إدارته وسياسته ، ولم يبرح خاطره إطلاقاً - وهو المحمدى المنهج - السر الخالد للوفاء والتسامح والإشفاق على الضعفاء واحترام أهل الكتاب بإعطائهم الحرية فى معابدهم والأمان على أموالهم وأعراضهم ، والعدل والمساواة وصيانة الحقوق ومحاربة البغى والعدوان . كما كان يرى الرسول يحكم دولته الإسلامية . ألم يقل أبو بكر فى أهل ولايته « قد وليت أمركم ولست بخيركم ولكنه نزل القرآن وسن النبى ﷺ السنن وعلمنا فعلمنا إنما أنا متبع ولست بمبتدع » (١) إلخ تلك الكلمات القلائل التى جمعت أصول الحكم الصالح واستوفت قواعد الرياسة الراشدة فى كل نظام يأخذ بكل أسباب الحرية فى هذا البناء الشامخ والخطبة

---

(١) ابن سعد طبقات جـ ٣ ص ٢١٣ .

نفسها يوردها العلامة السيوطى ويثبت فى ختامها قول الإمام مالك « لا يكون أحد إماماً أبداً إلا على هذا الشرط » [1] فكان هذا شأن أبو بكر حاكماً قوياً حازماً فى مواقف تستدعى ذلك دون هواده . كما كان لين الطباع رؤوفا وفيا عطوفاً فى مواقف أخرى جديرة بالتقدير [2] وفى كليهما ما يرام من الخير للقيادات فى تتبع القوانين الإدارية الواعية والسبيل الأنجع فى تفهمها مما يعد نبراساً لهم جميعاً على مدار الأزمان .

وقد ظهرت معدن شخصية هذا الصحابى الجليل ، عربيه أبيه كعون بارز لأمجادنا التالدة آثرت أن أستجليها فى صور متلاحقة من المناقب الأصلية والتى تأكد بعد أن عرفت روحه حقائق الإسلام وظهرت جلية بعد أن تصدى لأمانة حكم المسلمين خليفة للرسول الأمين محمد ﷺ فمما اشتهر من مكرمات عطائه المعنوى ككل صالح بر أنه رجاع إلى الحق حين يلوح وتظهر براهينه كاشفة عياناً مثل مسألة « الفئ » والذى كان يأتيه من ساحات الكرامة فى حربى الردة وفتوح العراق بعد ما أشرقت فى يمينه رايات النصر فيهما وكان قواده يتبعون الأمر الإلهى الذى أنزله فى محكم بيناته فى هذا الخصوص ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شئ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شئ قدير ﴾ [3] ، يقول طه حسين [4] « وكان هؤلاء المجاهدين يقسمون أربعة أخماس الغنيمة على الجذور وربما نفلوا [5] أصحاب البلاء من الخمس ثم يرسلون ما بقى منه إلى أبى بكر يقسم ما يصل إليه بين المسلمين لا يفرق بينهم فى

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٧٢ .

(٢) أبو الأعلى المودودى نظرية الإسلام وهديه فى السياسة ص ٥١ .

(٣) سورة الأنفال آية ٤١ . (٤) الشيخان ص ٩٨ .

(٥) نفلوا : زادوا .

القسمة وإنما يعطيهم جميعاً على السواء يعطى الرجال والنساء والأمراء والرقيق ولما كلم فى شأن السابقين إلى الإسلام والمجاهدين مع رسول الله ﷺ قال : إن أجرهم على ذلك عند الله وإنما الدنيا بلاغ » .

كما أن هذا الخليفة الصادق السريره والذى ما أن انتهى أمره بحرق «بجير بن إياس » ذلك الظالم الغشوم فى ناحية المصلى جزاء ما اقترف من الإثم . والجزاء من جنس العمل . إلا أن الصديق كان يصارح نفسه بصورة فريدة من النقد الذاتى الذى لا تصلح الحياة السياسية إلا به . فكان أبو بكر يذكر ذلك العمل ويتمنى لو أنه أتى بفعل أخف غير تلك النهاية التى حدثت يروى البلاذرى بسنده عنه رضى الله عنه « ثلاث تركتهن وودت إنى لم أفعل : وددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس ضربت عنقه فإنه تخيل إلى أنه لا يرى شرا إلا سعى فيه وأعلن عليه . ووددت أنى يوم أتيت بالفجاءة - بجير بن إياس - قتلته ولم أحرقه . ووددت أنى حيث وجهت خالدا إلى الشام وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فأكون قد بسطت يمينى وشمالى جميعا فى سبيل الله [1] .

وقد كان - رحمه الله - يبتعد عن كل ما فيه شبهة وضرب المثل الرائع فى التعفف عما فيه ريبة من طعام أو شراب أو غيرهما . إن فى ذلك لعبرة للذاكرين من الحكام والأمراء والأشخاص على وجه العموم الذين يغفلون عن عظائم الأمور ويستسهلون ما صغر مما قدمت أيديهم « وكل النار من مستصغر الشرر » فإن يقظة الضمير من مطلوبات الحياة . من ذلك ما رواه البخارى « أن أبا بكر كان له غلام فأتاه ليلة بطعام ، فأكل منه أبو بكر . فقال له الغلام : كنت تسألنى كل ليلة ولا تسألنى الليلة ؟ قال حملنى على ذلك الجوع . ثم سأله : من أين جئت بهذا ؟ . قال : مررت

---

(١) فتوح البلدان جـ ٢ ص ١١٢ .

بقوم كنت أرقى لهم فى الجاهلية فأعطونى هذا الطعام مع عرس لهم هذا اليوم (قال) ويل لك إن كدت لتهلكنى . فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شئ فى بطنه [1] وابن عبد البر يقول بأن أبا بكر دعى بطست من ماء فجعل يشرب ويقئ ما فى بطنه . فقيل له : يرحمك الله يا خليفة رسول الله تفعل كل ذلك من أجل لقمة ؟ قال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به [2] .

وقد روى أنه قرأ الآية الكريمة : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [3] أثناء خطبة له فقال أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتؤلونها على خلاف تأويلها ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ [4] وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من قوم عملوا بالمعاصى ومنهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده [5] .

وكان أبو بكر موال امرأة عجوز عمياء فى هداة الليل فربما لا تجد ما سد الرمق بعد أن عدا عليها الدهر وعمر شاهد على تلك اللفتة الطيبة التى حدثت فى قاصية المدينة حيث أخرج ابن عساكر قال « إن عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً كبيرة عمياء فى بعض حواشى المدينة من الليل فيسقى لها ويقوم بأمرها . فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت . فجاءها غير مرة كيلا يسبق إليها . فرصده عمر فإذا هو بأبى بكر الذى يأتيها وهو يومئذ خليفة فقال عمر : أنت هو لعمرى ! [6] .

---

(١) النووى شرح صحيح البخارى ص ٣٤٨ .
(٢) الاستيعاب جـ ٣ ص ٢٧٩ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٩ .
(٤) سورة المائدة آية ١٠٥ .
(٥) ابن عبد البر المرجع السابق ص ٢٨٢ .
(٦) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٨٠ .

وقد بلغ من حب أبى بكر لنبيه محمد ﷺ أنه كان يفرط فى تقديم آيات الإكبار وعظيم التقدير لأهل البيت وفى مقدمتهم علىّ بن أبى طالب وزوجته السيدة فاطمة الزهراء بنت المصطفى وأم السبطين المعزّين . وحاول استجلاب محبتهما طوال حياته بالخلافة . وبسط حلمه ما وسعته الهمة فى أمور - هما وهو - أقرب ما يكونوا إلى الاجتهاد الموصل لاستجلاء الحقائق عياناً للعامة والخاصة وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . وهى مواقف لا تتعارض إطلاقاً مع عزة النفس بل تعد محمده فى دروب لين الطباع المستمد من دماثة الخلق الرفيع الذى لا خلاف عليه فى تقييم هذا الموضوع الذى عرف فى التاريخ « بقضيه ميراث الرسول » فى مواجهات نجح فيها الخليفة أبو بكر أيما نجاح . أخرج أبو نعيم قال « جاء الحسن بن على إلى أبى بكر وهو على منبر رسول الله ﷺ فقال انزل عن مجلس أبى فقال : صدقت إنه مجلس أبيك وأجلسه فى حجره وبكى . فقال على : والله ما هذا من أمرى . فقال : صدقت والله ما أتهمك [1] وعندما جاءت السيدة البتول فاطمة الزهراء إلى مجلس الخليفة مطالبة بميراث أبيها فى أرض فدك وفى سهمه من خيبر فرد عليها أبو بكر بقوله « سمعت رسول الله ﷺ يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة إنما يأكل أهل محمد فى هذا المال وإنى والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا أصنعه [2] وتزيد رواية البخارى « وإنى والله لا أغير شيئاً من صدقات النبى ﷺ التى كانت عليها فى عهد النبى ﷺ ولأعملن فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ فتشهد علىّ . ثم قال : إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك وذكرا قرابتهم من رسول الله وحقهم . فتكلم أبو بكر فقال : والذى نفسى بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلىّ أن أصل من قرابتى [3] . وغضبت الزهراء

(١) السيوطى المرجع السابق ص ٨٠ . (٢) ابن كثير البداية جـ ٣ ص ١٨٩ .

(٣) النووى شرح صحيح البخارى ص ٥١٨ .

من هذا الموقف وقاطعت أبا بكر كما قاطعت عمر بن الخطاب . « ولقد بلغ من ألم أبى بكر وصاحبه عمر أنهما ذهبا إليها المرة تلو المرة وكلما عليا فى الاستئذان لهما بالدخول لمقابلتها ورفضت . فقال أبو بكر « لئن ظلت ابنة الرسول وأم السبطين غضبى لأعتزلن الخلافة . واضطر على أن يلح عليها حتى أذنت لهما وأخذ أبو بكر يترضاها (١) من ذلك ما رواه أحمد بن الطفيل أن السيدة فاطمة قالت لأبى بكر فى حضور عمر وعلى « أأنت ورثت النبى أم أهله ؟ فقال : لا بل أهله فقالت : فأين سهم رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله إذا طعم نبياً طعمة ثم قبضه جعله للذى يقوم من بعده » فرأيت أن أرده على المسلمين . قالت فأنت وما سمعت من رسول الله ﷺ (٢) . وهكذا نجد أن أبا بكر قد ترضى فاطمة ولاينها قبل موتها فرضيت رضوان الله عليها وقد حسم الحافظ ابن كثير تلك القضية قال : « وأما تغضب فاطمة على أبى بكر فما أدرى ما وجهه فإن كان لمنعه إياها ما سألته من الميراث فقد اعتذر إليها بعذر يجب قبوله وهو ما رواه عن أبيها رسول الله ﷺ أنه قال « لا نورث ما تركناه صدقة » وهى ممن تنقاد لنص الشارع الذى خفى عليها قبل سؤالها الميراث كما خفى على أزواج النبى حتى أخبرتهن عائشة بذلك ووافقنها عليه (٣) أما ابن عبد البر فقال : « ولسنا نظن بفاطمة أنها اتهمت أبا بكر فيما أخبرها به . حاشاها وحاشاه من ذلك ، كيف وقد وافق على رواية هذا الحديث عمر وعثمان وعلى وابن عوف والزبير والعباس وطلحة وأبو هريرة وسعد وغيرهم وكان رأيه فيما يشبه الاعتذار وإنى والله لا أدع أمراً كان يصنعه فيه رسول الله ﷺ إلا أصنعه (٤) .

---

(١) ابن عبدالبر الاستيعاب جـ ٢ ص ٢٣٥ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٣٦ ، وعن مالك بن أوس أن عمر قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب . فكانت للنبى خاصة . فكان ينفق على أهله نفقة سنة وما بقى جعله فى الكراع والسلاح عدة فى سبيل الله »

(٣) البداية جـ ٢ ص ٣٥٣

(٤) الاستيعاب جـ ٢ ص ٢٣٧ وروى البيهقى قال : « قال زيد بن على بن الحسين : أما أنا فلو كنت مكان أبى بكر لحكمت بما حكم به أبو بكر فى فدك » .

ومن لطائف المواقف التى تستدعى الحسم ما نقلته أسفار التاريخ إبان الفتوحات الإسلامية فى أرض العراق وذلك بعد ما انتهت معركة ذات السلاسل بهزيمة الفرس ومقتل قائدهم الداهية هرمز « فبعث خالد خمس الغنائم إلى أبى بكر بالمدينة وبعث معها قلنسوة هرمز وفيلاً أصابه المسلمون فى الحرب ولم يكن أهل المدينة قد رأوا فيلا قبل ذلك بل لم تر بلاد العرب فيلا قبل ذلك إلا فيل أبرهه الحبشى حين حاول هدم الكعبة . ولما طاف قائد الفيل به فى المدينة عجب أهلها لمنظر الحيوان الضخم وتولى بعضهم الريب فى أمره . بل لقد جعلت ضعيفات النساء يقلن ومن خلق اللّه هذا أم من صناعة فارس ؟ [1] ورأى أبو بكر بواسع مداركه وبعد نظره وخوفا من زيادة الافتتان أنه لا نفع فيه فرده إلى العراق مع قائده . وقضى بعمله الحاسم هذا على كل ما من شأنه أن يتيه بالناس فى ترهات الأراجيف وسد هذا الباب الذى يثير الشكوك من أساسه . إن خصلة التواضع من شيم الكرام ذكى الخليفة الأولى بها نفسه الصافية . وإن العفة من الأمانة والبر هى مسكهما وجامعتهما فى النفس . وإن الأمانة من البر ، والعفة هى كمال هذه الفضائل . وأقصد بالعفة هنا التعفف عن مال الرعية التى عدَّها الصدِّيق فى درجات الأمانة والتواضع النزول إلى مستوى ما يحتاجه الناس وكلها عنده درجات لحقيقة واحدة . غير أن بعضها أسمى من بعض فى الشأن والمنزلة . ومن درجات التعفف على درب المسئولية ما نقل من « أن زوجته اشتهت حلوا فقال لها ليس لنا ما نشترى به فقالت إنا استفضل من نفقتنا عدة أيام ما نشترى به قال : افعلى ففعلت ذلك فاجتمع لها فى أيام كثيرة شئ يسير . فلما عرَّفته ذلك ليشترى به حلوا أخذه فرده إلى بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط

---

(١) ابن اعثم الكوفى . الفتوح جـ ١ ص ٢٦١ .

من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه من بيت المال من ملك كان له (١)
هل تجد نفساً بهذا السمو الغريب غير هؤلاء الأخيار الذين أجهدوا أجسادهم وحرموها من متع لا يجد الكثير غضاضة في التخلي عنها . وهو درس للإنسانية العامة في فلسفة السياسة فهل أطمع في وصولها إلى القلوب المتفتحة من أصحاب الأمر والنهى والأمانة ويتصدرون سياسة بلادهم الإسلامية وأدعوهم إلى التطلع الفاضل إلى كتب التراث ، عبرة لنا ولهم .

وقال الطبرى في موسوعته الشاملة : قالت عائشة كان منزل أبى بالسنح وكان قد حجر عليه حجرة من سعف ، فما زاد على ذلك حتى تحول إلى منزله بالمدينة . فأقام هناك بالسنح بعد ما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه إلى المدينة وربما ركب على فرس له وعليه إزار ورداء فيوافى المدينة فيصلى الصلوات بالناس فإذا صلى العشاء رجع إلى أهله بالسنح (٢) . وكان رجلاً تاجراً فكان يغدو كل يوم السوق فيبيع ويبتاع . وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو نفسه فيها وربما كفتها فرعيت له . وكان يحلب للحى أغنامهم فلما بويع له بالخلافة . قالت جارية من الحى : الآن لا تحلب لنا منائح دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال : لعمرى لأحلبنها لكم وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه فكان يحلب لهم ، وربما قال للجارية من الحى : يا جارية أتحبين أن أرعى لك أو أصرح فربما قالت ارع وربما قالت صرح فأى ذلك قالته فعل (٣) ونظر أبو بكر في أمره فقال لا والله لا تصلح أمور الناس على التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر وكان الذى فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم فلما حضرته الوفاة قال « ردّوا ما عندنا من مال

---

(١) ابن كثير مرجع سابق ص ٣٥٤ .
(٢) تاريخ الأمم جـ ٤ ص ٢٨ .
(٣) ابن سعد طبقات جـ ٣ ص ١٨٧ .

المسلمين فإنى لا أصيب من هذا المال شيئاً وإنى أرضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم (١) وعن الحسن بن على قال : لما احتضر أبو بكر قال يا عائشة انظرى اللقحة التى كنا نشرب من لبنها والجفنة التى كنا نصطبغ فيها القطيفة التى كنا نلبسها (٢) فإنا كنا ننتفع بذلك حين كنا نلى أمر المسلمين فإذا مت فارددیه إلى عمر . فلما مات أبو بكر أرسلت به إلى عمر فقال عمر رحمك الله يا أبا بكر لقد أتعبت من جاء بعدك (٣) . وكان بيت المال فى بيته فقيل له : ألا تجعل عليه من يحرسه ؟ قال أبو بكر لا . فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى فيه شئ . فلما انتقل إلى المدينة جعل بيت المال معه فى داره وقد انفتح معدن بنى سليم فيضعها فى بيت المال فكان يسوى فى قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الإسلام وبين الحر والعبد والذكر والأنثى . وكان يشترى الأكسية ويفرقها فى الأرامل عند الشتاء . ولما توفى أبو بكر جمع عمر الأمناء وفتح بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً غير دينار سقط من غراره فترحموا عليه (٤) .

ومن براعته السياسية الاجتهاد فى الأحكام الدنيوية ينال المثوبة حتى وإن أخطأ . وهى من الحكم البليغة التى لها مرماها البعيد وتجدها مطواعة رحيبة فى ذلك النسج المتكامل من سياسة أبى بكر مندرجة تحت مسألة شائكة خاض فيها الكم الهائل من الباحثين فى الشرق والغرب - موضوع مقتل مالك بن نويره على يد خالد بن الوليد والبناء بزوجته بعد ذلك ! . وقد عملت الأقلام الاستشراقية « من الحبة قبة » وأدخلوها فى مقام قوة

---

(١) الطبرى تاريخ الأمم جـ ٤ ص ٢٨٠ .

(٢) اللقحة : الناقة . والقطيفة : ما يلبس فوق الثوب .

(٣) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٧٨ .

(٤) ابن سعد طبقات جـ ٣ ص ٢١١ - ٢١٣ ، الغرارة : الكيس .

الفروسية وسط ساحات المبارزة والفوز بقلب الحسناء الجميلة لمن كانت له الغلبة والتفرد بالنصر فى تلك المباراة .

والحقيقة أن مالك بن نويره قد تورط فى اتباعه المتنبئة الكاذبة « سجاح التميمية » فوادعها ثم انتقلت هذه المرأة إلى أرض اليمامة وعقدت حلفاً دينياً مع مسيلمة - كما قلنا من قبل - وهنا تجمع الروايات بأن مالكاً قد ندم على ما قدّمت يداه » وسار حتى قدم البطاح [1] فلم يجبه أحد فقال مالك « يا بنى يربوع إنا قد عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين وبطأنا الناس عنه فلم نفلح ولم ننجح وإنى قد نظرت فى هذ الأمر فوجدت الأمر لم يتأت بغير سياسة وإذا الأمر لا يسوسه الناس فإياكم ومناوأة قوم صنع لهم . فتفرقوا إلى دياركم وادخلوا فى هذا الأمر . فتفرقوا على ذلك إلى أموالهم وخرج مالك حتى رجع إلى منزله [2] ولما ورد خالد منطقة البطاح جاءته السرايا بمالك فى نفر من قومه من بنى تميم فوضعهم القائد فى المحبس . وقد أجيبوا إلى داعى الإسلام وهو الأذان وقيل إن قوم مالك لم يؤذنوا فأقبل عليه خالد يحاوره فسمحَ بالصلاة والتوى بالزكاة فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون الأخرى ؟ فقال : قد كان صاحبكم يقول ذلك فقال له خالد أهو صاحبنا وليس بصاحبك ؟ والله لقد هممت أن أضرب عنقك » ثم تجادلا فى الكلام فقال إنى قاتلك فقال له أوَ بذلك أمرك صاحبك ؟ قال : وهذه بعد تلك لا أقالنى الله إن لم أقتلك . فأمر به وبأصحابه فقتلوا [3] . وفى رواية أخرى مختلفة المضمون « فاختلفت فيهم . وفيهم أبو قتادة الأنصارى فكان فيمن شهد أنهم قد أذنوا وأقاموا وصلوا فلما اختلفوا فيهم أمر بهم فحبسوا فى ليلة باردة لايقوم لها شئ

---

(١) البطاح : ماء فى ديار بنى خزيمة فى نجد .

(٢) ابن كثير البداية جـ ٦ ص ٣١٩ .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٣ .

وجعلت تزداد برداً فأمر خالد منادياً فنادى « أدفئوا أسراكم » . وكانت كناية فى لغة كنانة عن القتل ، فقتلوهم وقتل ضرار بن الأزور مالكاً . ولما فرغوا منهم قال خالد « إذا أراد الله أمراً أصابه » وقد اختلف القوم فيهم فقال أبو قتادة : هذا عملك . فزجره خالد ، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر ، فغضب عليه أبو بكر حتى كلمه عمر فيه . فلم يرض إلا أن يرجع إلى خالد فرجع إليه حتى قدم معه المدينة [1] وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال وتركها لينقضى طهرها [2] فلما علم ذلك عمر بن الخطاب قال لأبى بكر « إن فى سيف خالد رهقاً فإن لم يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده » وأكثر عليه فى ذلك وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولا وزعته فقال : هيه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد . وودى مالكاً فقال « لا أشم سيفاً سله الله على الكفار [3] . وكتب إلى خالد أن يقدم عليه فلما قدم خالد أخبر أبا بكر خبره فعذره وقبل منه وعنفه فى التزويج الذى كانت تعيب عليه العرب .

وحين دخل خالد المسجد كان يلبس درعه ويضع فى عمامته النشاب المضمخ بالدماء فقام إليه عمر وانتزع النشاب من عمامته فكسرها وقال له أرياءاً قتلت امرءاً مسلماً ونزوت على امرأته ؟ وخالد لا يجيبه [4] .

وهكذا حلت تلك المشكلة الدقيقة بقبول العفو وآثره الخليفة على ما عداه بعد ما قدم القائد كل المبررات الداعية إلى تبرئته من كل ما ارتكبه فى حق مالك وكلها أعذار مقبولة عند أبى بكر الهين اللين وأنا مع العلامة العقاد فى تصوره أن أبا بكر قد استشار هنا طبيعة الاقتداء وطبيعة الإعجاب بالبطولة وطبيعة الإغضاء ، وهى تشير عليه بالإعفاء عن الحساب أو بالإمهال به إلى حين فهو لا يعزل قائداً من قواد رسول الله ﷺ وسيفاً من

---

(1) ابن كثير مرجع سابق ص ٣١٩ .

(2) كانت العرب تكره نكاح النساء فى الحرب وإن الزواج فى هذه الحالة لما يعير ويعيب .

(3) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٤ . (4) ابن كثير مرجع سابق جـ ٦ ص ٣٢٣ .

سيوفه ، وهو لاينسى بطولة خالد وإن زل وأخطأ التأويل . وهو يؤثر اللين لأنه فى عامة أحواله مطبوع عليه ما لم يمسه الأمر مما يثير [1] وقد سارع أبو بكر فى دفع دية مالك وساق الإبل إلى أخيه « متمم بن نويره » وقومه من بنى تميم ، وانقشعت بذلك تلك الغيوم التى عكرت صفو الحياة السياسية فى ذلك العصر النبيل إلى حين .

● مرض الخليفة الأول :

مرض الخليفة الأول أبو بكر بالحمى لسبع خلون من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ ، وقيل عن سبب هذا المرض أنه اغتسل فى يوم بارد ، واستمر يعانى منه مدة خمسة عشرا يوماً لا يخرج إلى الصلاة [2] . وقيل إنه سم فقد روى الزهرى أن أبا بكر والحارث بن كلدة كانا يأكلان خزيرة [3] أو حريرة أهديت لأبى بكر فقال الحارث - وكان طبيباً - لأبى بكر : ارفع يدك يا خليفة رسول الله ؛ والله إن فيها لسم سنة وأنا وأنت نموت فى يوم واحد ، فرفع يده . فلم يزالا عليلين حتى ماتا فى يوم واحد عند انقضاء السنة [4] . ولما اشتد به المرض وأوهنه الضعف فى الأيام الأخيرة من حياته دخلوا على أبى بكر وقالوا له : يا خليفة رسول الله ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك ؟ قال قد نظر إلىَّ . فقالوا : ما قال لك ؟ قال : قال : إنى فعال لما أريد [5] . وكان أبو بكر يأمر عمراً فى مرضه أن يصلى بالناس وكان يدخل عليه الناس يعودونه وهو يثقل كل يوم وكان نازلاً فى داره

---

(١) عبقرية الصديق ص ٨٠ .

(٢) أبو الفلاح بن العماد شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٠٧ .

(٣) الخزيرة طعام وهو الحساء من الدسم والدقيق وأحياناً تنصب بلحم يقطع صغاراً على ماء كثير فإذا أنضج در عليه الدقيق ولا تكون الخزيرة إلا وفيها لحم » .

(٤) ابن حجر الإصابة جـ ٣ ص ٢٥٦ .

(٥) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٠٠ .

التى قطع له رسول الله ﷺ . وكان عثمان ألزمهم له فى مرضه [1] وأخذ يوصى لمن حوله بعده وصايا أولها الحفاظ على حق الجنين فى ميراثه والذى حملت فيه زوجته ابنة خارجة . أخرج مالك عن عائشة أن أبا بكر نحلها جداد عشرين وسقا من ماله الغالية فلما حضرته الوفاة قال : أى بنية إنك كنت أحب الناس إلىّ وأعزهم ، وإنى كنت نحلتك أرضى التى تعلمين بمكان كذا وكذا وأنا أحب أن ترديها علىّ . فلو كنت جددته واحترزته كان لك وإنما هو اليوم مال وارث وإنما هو أخواك وأختاك ، فاقسموه على كتاب الله ، فألقى ربى حين ألقاه ولم أفضل بعض ولدى على ولدى . فقالت : يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته إنما هى أسماء فمن الأخرى ؟ قال ذو بطن ابنة خارجة ، فقد ألقى فى روعى أنها جارية [2] . كما أوصى بكفنه وغسله فعن ابن أبى مليكه أن أبا بكر أوصى أن تغسله امرأته أسماء بنت عميس ويعينها ابنه عبد الرحمن بن أبى بكر ثم قال لعائشة « اغسلى ثوبى هذين وكانا ممشقين وإبتاعوا لى ثوباً آخر قالت يا ايه إنا موسرون قال أى بنية الحى أحق بالجديد من الميت إنماهما للمهلة والصديد [3] ثم أوصى - رحمه الله - بمن يصلى عليه ومكان دفنه فقد أخرج أحمد عن عائشة قالت إن أبا بكر لما حضرته الوفاه قال أى يوم هذا ؟ قالوا يوم الاثنين قال فإن مت من ليلتى فلا تنتظروا بى لغد فان أحب الإيام والليالى إلىّ أقربها من رسول الله ﷺ وقد أوصى بخمس ماله وقال آخذ من مالى ما أخذ الله من فيئ المسلمين [4] وكان يخشى ربه وقد اقترب من لقائه فقال الصدِّيق وددت أنى خضرة تاكلنى الدواب » أما عائشه لما ثقل أبوها تمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يغنى الثراء فى الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق به الصدر

---

(١) ابن عبد البر الاستيعاب جـ ٣ ص ٢٥٥ .   (٢) ابن سعد الطبقات جـ ٣ ص ٢.٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢.٨ .   (٤) نفسه جـ ٣ ص ٢.٧ .

فكشف عن وجهه وقال ليس كذلك ولكن قولي ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ وبعدها قال أي يوم توفي رسول الله ؟ قالت عائشه : يوم الاثنين . وأوصى أن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ وكان نقش خاتمه « نعم القادر الله » وقيل « عبد ذليل لرب جليل » [1] .

● استخلاف عمر بن الخطاب :

عهد الخليفه أبو بكر فى مرضى موته بالأمر من بعده إلى عمر بن الخطاب مؤثرا بذلك رفع الحرج عن الناس فى وقت حاسم بمن هو جدير بالخلافه فى تلك الظروف الحاسمه فالحرب فى أرض العراق والشام تواجه فيهما القوات الإسلامية الجيوش الرومانية والفارسية فضلاً عن أن العديد من القبائل العربية داخل الجزيره قد حاولت أن ترفع عن كاهلها أدران الردة وغوائلها . فكان المسلمون فى حاجة إلى رجل قوى شديد فى الحقد قادر على أن ينهض بالأعباء الجسام التى تركها أبو بكر . « فعزم على أن يعهد بالمسئولية إلى عمر إلا أنه آثر المشورة في هذا الأمر . فاستدعى عبد الرحمن بن عوف وقال له أخبرني عن عمر بن الخطاب فقال : يا خليفه رسول الله هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظه فقال أبو بكر : « ذلك لأنه يراني رقيقا ولو أفضى إليه الامر لترك كثيراً مما هو عليه ويا أبا محمد قد رمقته فرأيتني إذا غضبت على رجل فى شئ أراني الرضاء عنه وإذا لنت له أراني الشدة عليه » ثم دعا عثمان فقال : يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر ؟ قال أخبر به فقال أبو بكر : على ذاك يا ابا عبد الله قال عثمان : اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله . قال ابو بكر رحمك الله يا أبا عبد الله لا تذكر مما ذكرتُ لك شيئاً . ثم شاور أبو بكر عنه سعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهما من المهاجرين

(١) ابن كثير البداية جـ ٦ ص ١٠٥ .

والأنصار فقال أسيد : اللهم أعلمه الخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط الذى يُسر خير من الذى يعلن . ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه (١) وعندما سمع الكثير من المسلمين امر هذا الاستخلاف يقولون لأبى بكر ما هذا أتخلف علينا فظا غليظا لو قد ملكتنا كان أفظ وأغلظ ؟ فما تقول لربك إذا لقيته وقد استخلفت علينا عمر وأنت ترى غلظته ؟ قال أبو بكر أجلسونى فقال لهم « أتخوِّفوننى بربى . خاب من تزود منكم بظلم . أقول اللهم استخلفت علهم خير أهلك » (٢) .

ثم دعا الصدِّيق ذا النورين عثمان بن عفان فقال له اكتب عنى « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة وهو فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها وعند أول عهده بالآخره داخلا فيها حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب . انى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا وإنى لم أل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً فإن عدل فذلك ظنى به وإن بدَّل فلكل امرئ ما اكتسب من الاثم والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته » (٣).

ثم ختم أبو بكر كتاب الاستخلاف وبعدها رفع بصره إلى السماء آملا راجياً أن تحقق فراسته فيمن وقع اختيارهُ عليه فقال « اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنه فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم واقواهم عليهم وأحرصهم على ما أيرشدهم » . وقد حضرنى من أمرى ما حضر فاخلفنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٢٠٣   (٢) الطبرى جـ ٣ ص ٤٢٩

(٣) ابن سعد مرجع سابق جـ ٣ ص ١١٩

أصلح اللهم ولاتهم واجعلهم من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته » [1] .

ثم أمر أبو بكر عثمان أن يعلن للناس بما فى هذا الكتاب وخرج معه عمر وأسيد بن سعد القرظى قال عثمان للمسلمين اتبايعون عن هذا الكتاب ؟ قالوا نعم وقال بعضهم علمنا به . ثم أقر السامعون بهذا العهد ورضوا به وبايعوا عمر [2] وكان الصديق اثناء إعلان عثمان بما فى الكتاب يشرف على الناس من داره وأسماء بنت عميس زوجته تسانده وهو يقول أترضون بمن استخلفت عليكم ؟ فانى والله ما آلوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة وإنى قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . فقالوا سمعنا وأطعنا [3] .

ثم يرسل الخليفة إلى عمر فيأتيه فيقول له : يا عمر أوصيتك بوصيه إن حفظتها لم يكن شئ أحب إليك من الموت وهو مدركك وإن ضيعتها لم يكن شئ أبغض إليك من الموت . فاتق الله يا عمر واعلم أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل وعملا بالليل لا يقبلة بالنهار . وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدى فريضة ألم تر يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامه باتباعهم الحق فى دار الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يكون فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا فإن أنت حفظت وصيتى فلا يك غائب أحب إليك من الموت ولست تعجزه . يا ابن الخطاب إنى إنما استخلفتك نظرا لما خلفت ورائى وقد صحبت رسول الله ﷺ والله ما نمتُ ولا حلمت ولا توهمت فسهوت وإنى لعلى السبيل وإن اول ما أحذرك يا عمر نفسك [4] .

---

(1) ابن عبد البر الاستيعاب جـ ٣ ص ٢٥٦ ، بالسيوطى مرجع سابق ص ٨٢

(2) ابن سعد المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩٩ (3) الطبرى مرجع سابق جـ ٣ ص ٤٣٠ .

(4) شذرات اذهب جـ ٦ ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

• وفاة أبى بكر :

توفى أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخره سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية (١) بين المغرب والعشاء وقد غسلته زوجته اسماء بنت عميس مع ابنه عبد الرحمن وفق وصيته (٢) ، وقد صلى عليه عمر بين القبر والمنبر وكبر عليه أربعا وصلى وراءه المسلمون كما كانت وصيته . كما ألح على عائشه أن يدفن إلى جنب المصطفى ﷺ فلما توفى حفر له وجعل رأسه عند كتف رسول الله ﷺ بعد أن أصجع خلفه وألصقوا اللحد بلحد النبى ﷺ فكان قبره مع قبر النبى فى حجرة عائشه ونزل فى حفرته اثناء دفنه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن أبى بكر (٣) قال ابن عمر أردت أن أنزل فقال عمر كفيت وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ايام وهو فى الثالثة والستين من عمره ودفن ليلا وأنه استوفى بخلافته بعد رسول الله ﷺ سن النبى الاكرم (٤) .

وانتشرت أنباء وفاة أبى بكر حتى غمرت أرجاء المدن الاسلاميه وكل بقاع فيها زحوف للاسلام ، فهزت كل نفس وانسكبت الدموع لهذا الفقد غزيرا . وعند الباب وقف على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - باكيا قائلا والحق يسبقه مودعا رجل السياسة الشيخ الوقور : « رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم إسلاما واخلصهم ايمانا واشدهم يقينا وأعظمهم غنى وأحدبهم على الاسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقا وفضلا وهديا وسمتا ؛ فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله وعن

---

(١) الموافق ٢٣ اغسطس سنة ٦٦٤ م

(٢) « وقبل ان اسماء كانت صائمة فعزم عليها ان تفطر فان ذلك اقوى لها قالوا وذكرت يمينه آخر النهار فدعت بماء ، وشربت وقالت والله لا اتبعه اليوم حنثا »

(٣) ابن سعد مرجع سابق جـ ٣ ص ٢٠٦ (٤) ابن عبد البر مرجع سابق جـ ٣ ص ٢٥٦

المسلمين خيرا فقد صدّقت رسول الله حين كذبه الناس وواسيته حين بخلوا وقمت معه حين قعدوا وسماك الله فى كتابه صديقا فقال ﴿ والذى جاء بالصدق وصدّق به ﴾ يريد محمدا ويريدك كنتَ والله للإسلام حصنا وللكافرين ناكبا ولم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك وكنت كالجبل لا تحركه العواصف . كنت كما قال الرسول ضعيفا فى بدنك قويا متواضعا فى نفسك عظيما جليلا فى الأرض كبيرا عند المؤمنين . لم يكن لاحد عندك مطمع ولا هوى فالضعيف عندك قوى والقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القوى ويأخذه الضعيف فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك » (١) .

أما عمر فقد أعجزه الموقف عن الاسترسال فى رثاء صاحبه ؛ فقد أخلص كليهما للآخر حبا ووفاء ، فلم تخرج كلمته عن الايجاز الموفق قال « الفراق الفراق يا خليفه رسول الله ﷺ ، قد كلفت القوم بعدك تعبا ووليتهم نصبا فهيهات هيهات مَن شق غبارك فكيف اللحاق بك » ؟ (٢).

* * *

(١) السوطى مرحع سابق ص ٧٩ ، ٨٠.   (٢) زين العماد مرجع سابق جـ ٦ ص ١١٩

الفصل السابع
أبناء أبى بكر الأبرار

كانت ذرية الصديق الأبرار ستة رزقه الخالق بهم من أربع زوجات فضليات . فقد تزوج أبو بكر قبل الإسلام قتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤى فولدت له عبدَ الله وأسماء - ذات النطاقين - ثم تزوج أم رومان بنت عامر بن عمير فولدت له عبد الرحمن وعائشة - أم المؤمنين - أما فى الإسلام فقد تزوج من أسماء بنت عميس (١) فولت له محمدا وبعدها تزوج بحبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية الأنصارية . وكانت حاملا حين توفى الصديق فولدت له بعد وفاته بنتاً هى أم كلثوم . ذلك العقد المتألق بدرر العفة والشرف الرفيع فى سجل أيام الإسلام الغوالى رضى الله عنهم اجمعين .

(١) الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة :

الصديقة الطاهرة . أعلم أهل زمانها بأحكام الدين وأعرفهم بسنة سيد المرسلين ﷺ السيدة عائشه بنت أبى بكر الصديق - أم المؤمنين - زانها الله بكمال الخلال وقوة الجنان وراجح العقل وصائب الرأى (٢) وقد اشتهرت - رضى الله عنها - طوال عمرها المديد الخصيب بغزارة العلم وكثرة البر وعظيم الذكاء والفصاحة وكرم الشيم الموروثة من بيت ابيها التالد العريق والمكتسبة من منزل الوحى حيث استقت فرائد معلوماتها من المدرسة

(١) كانت ارمله لابن عم النبى ﷺ جعفر بن أبى طالب الشهير بذى الجناحين

(٢) النووى تهذيب الاسماء ص ٢٠١

المحمدية التى تربت على ضوء نفحاتها وكونت مداركها بنفائس حقائق الإسلام الممدودة الاسباب بتعاليم السماء . وقد طوقها المصطفى ﷺ بأرفع وسام لا يدانيه - بالقطع - أكمل الدرر لو وضعتها الصديقة فى جيدها من قوله لعامه المسلمين « خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء .

• فى بيت الصديق :

ولدت عائشة بعد البعثة النبوية بأربع سنين وعاشت أيام طفولتها الباكرة فى بيت أبيها أبى بكر « أول المؤمنين إسلاما وأكرمهم مالا ومعاوناً النبى ﷺ على نشر دعوته وملازمه فى الجهاد وفى كل الأحوال [1] . فضلاً عن أنها ابنة أعلم العرب بتاريخ قريش وأنسابها وأيامها [2] وامها أم رومان من أوليات السابقات إلى الإسلام وكانت إمرأة صالحة تقية مفرطة الذكاء والجمال وقد أوجز وصفها سيد أهل الكمال محمد - ﷺ - قال : من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى ام رومان [3]

فلا عجب أن تتعطر روج تلك المرأة العظيمه منذ نشأتها الأولى بتعاليم الإسلام وتتريض على المشاق مع أختها فتأدبا بالآداب الراقيه والأخلاق الرفيعه وتمت مداركهما على الشمائل والتفتح السديد وهما لا تزالان طفلتان صغيرتان فوجدتا من أبيهما والسيده أم رومان خير معين لنفاذ البصيرة والمسارعة إلى الخيرات يقول العلامة الذهبى عنها منذ طفولتها « كانت عائشة متمسكة بدينها كريمة الخلق حسنة الرأى ومما حملته معها من بيت أبيها من ثقافة واحاطة واسعة بالاخبار الأشعار والانساب والمفاخر حتى أنها كانت تروى القصيده ستين بيتا [1] وكان الرسول ﷺ يوصى

---

(١) العصامى سمط النجوم العوالى جـ ١ ص ٩٣ (٢) ابن عبد البر جـ ٣ ص ٣٥٢

(٣) الذهبى سير اعلام النبلاء جـ ٥ ص ١١١ (٤) المرجع السابق ص ١٠٩

أمها بها خيرا مع العطف عليها فكان يقول « يا أم رومان استوصى بعائشة خيرا واحفظينى فيها » وقد دخل يوما بيت أبى بكر فوجد عائشة مستترة تبكى وعندما سأل عن ذلك قالت أمها « يا رسول الله انها بلغت أبا بكر عنا وأغضبته علينا فقال النبى « وإن فعلت ، ألم اوصيك بعائشة يا أم رومان » قالت : لا جرم ، لا أسوأتها بعد ذلك (١١) .

وعندما توفيت السيده خديجة – رضى الله عنها – فى عام الحزن وفى الوقت الذى جزع فيه المصطفى فيه لفقدها بعث المولى جبريل الأمين بصورة السيده عائشه فى حريرة سندسية تسلية لما أصابه ويذهب بذلك بعض أحزانه الملمة . ويبشره بأن تكون له زوجة وأن فيها خلفا من خديجة وعن عائشه فيما أخرجه أحمد « قال النبى ﷺ أريتك فى المنام ثلاث ليال جاءنى بك الملك فى سرقة من حرير يقول هذه امرأتك فكشف عنها فإذا هى أنت فأقول أن يك هذا من عند الله يمضه (٢) ومن حسن الطالع المتزامن مع تلك الظروف الصعبة على نفس النبى ﷺ أن تأتى السيده خوله بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون قبل هجرتها إلى الحبشه وتجد فى آلام النبى ما تجد على موت تلك البارة الكريمة خديجة . فقالت « يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة . فقال : أجل كانت أم العيال وربة البيت » فقالت أى رسول الله ألا تتزوج ؟ فقال من ؟ قالت إن شئت بكرا وإن شئت ثيباً ؟ » فقال « فمن البكر ومن الثيب ؟ فقالت أما البكر فبنت أحب الناس إليك عائشه بنت أبى بكر . أما الثيب فسوده بنت زمعه أمنت بك واتبعتك » فقال حسن . فتزوج سوده بعد فقد زوجها المسلم وقد بقيت منبوذة من اهلها ولا عائل لها . فضلها النبى ﷺ على الرغم من كبر سنها وتزوجها ، وخطب عائشه لصغر سنها وفاءً لأحب الناس إليه فى الله . أبى بكر (١٣) .

---

(١١) المرجع نفسه ص ١٠٩ . ١١

(٢) ابن حجر شرح صحيح البخارى ص ٥١٨

(١٣) طيفور . بلاغات النساء ص ٩٤

• في بيت النبوة :

وقد وافق أبو بكر على خطبة النبى لابنته عائشة . وتم عقد الزواج المبارك قبل الهجرة بثلاث سنين فى مكه وكانت واسطة العرض السيدة خولة بنت حكيم - كما قلنا - وعمر عائشه آنذاك ست سنوات ولما انتقل الرسول ﷺ إلى يثرب بنى بها فى السنة الثانية بعد خمس سنين من الخطبة بمنزل أبى بكر وعمرها تسع سنين على صداق قدره أربعمائه درهم [١] وقد تم الزواج فى صورة لائقه من البساطة وبيت الصديق أمل فى سرور دائم وخير يحيط عائشة التى تزوجت أكرم مخلوق محمد ﷺ فرفعوا أيديهم بالدعاء والتضرع إلى الله كأنهم يستنزلون الكواكب من عليائها بالسماء لتشاركهم حبورهم بهذا الشرف العظيم الذى أحاطهم به النبى عند مصاهرته لهم وزواجه بعائشه تلك الكريمه المحتد فى سن الأمل والجد . فعن أسماء بنت عميس قالت « كنت صاحبه عائشه التى هيأتها وادخلتها على رسول الله ﷺ ومعى النسوه قالت فوالله ما وجدنا عنده قِرى إلا قدحا من لبن قالت فشرب منه ثم ناوله عائشة فاستحيت الجارية فقلنا لاتردى يد رسول الله ﷺ خذى منه فأخذته على حياء فشربت منه ثم قال : نادى صواحبك فقلن لا نشتهيه . قال لا تجمعن جوعا وكذبا قالت . فقلت يا رسول الله إن قالت إحدانا لشئ تشتهيه لا أشتهيه يعد ذلك كذبا ؟ قال إن الكذب يكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة [٢] .

وعن عائشة قالت « تزوجنى النبى ﷺ وأنا بنت ست سنين فقدمنا المدينه فنزلنا فى بنى الحارث من الخزرج فوعكت فتمرق شعرى فوفى جميمه [٣] فأتتنى أمى أم رومان وإنى لفى أرجوحه ومعى صواحب لى فأتيتها لا أدرى ما تريد منى ، فأخذت بيدى فوقفتنى على باب الدار فإذا نسوة من الأنصار

---

(١) الذهبى المرجع السابق ص . ١١ (٢) فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ص ٥٢١

(٣) تمرق : تساقطت خصلاته .

فى البيت فقلن : على الخير والبركه وعلى خير طائر . فأسلمتنى إليهن فأصلحن من شأنى ثم جاء الرسول ﷺ فأسلمتنى إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين [١] وقد رحب النبى ﷺ بالسيدة عائشة وذلك لصغر سنها ولانها البكر الوحيده التى تزوجها « الارواح جنود مجنده فما تعارف منها ائتلف» وأى ائتلاف ومحبه أصدق من هذا الإعجاب والتقدير لحداثة سن عائشه من أنه ﷺ كان يأتى بالبنات ليلعبن معها . ويروى « إن أبا بكر دخل عليها فى أيام عيد الاضحى وعندها جاريتان تضربان بدفين فقال أبو بكر أمزمارة الشيطان فى بيت النبى ؟! فانتهرهما . فقال له الرسول دعهما يا أبا بكر فان لكل قوم عيدا وان عيدنا هذا اليوم [٢] ورد فى الصحيح : ان الاحباش كانوا يلعبون برماحهم فى المسجد يوم عيد وجاءت أم المؤمنين عائشة فوقفت خلف النبى ﷺ تنظر إلى لعبهم والرسول يشجعهم بكلام حسن جميل [٣] . وكثيرا ما كان المصطفى الأكرم يلاطفها ويضاحكها ويدخل السرور إلى نفسها من ذلك « أنها إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه على موضع فمها وإذا تعرقت عرقاً [٤] اخذه فوضع فمه عليه ، كذلك وقد سابقها فسبقته ، ثم سابقها بعد ذلك عندما كبرت فسبقها فقال : هذه بتلك [٥] وعن عائشه قالت « قال لى النبى ﷺ إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت علىَّ غضبى فقلت : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال اما إذا كنت عنى

---

(١) ابن سعد الطبقات ج ٤ ص ٢٢٤

(٢) النووى ، رياض الصالحين ص ٢١٧

(٣) شرح صحيح البخارى ص ٥٢٨

(٤) أى العظم

(٥) طيور مرجع سابق ص ١٠٠

راضية فإنك تقولين « ورب محمد » وإن كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم (قلت) : أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك [1] .

وقد علق المرحوم العقاد على تلك الملاطفات الطيبات وآثارها النفسية فهى رضوان الله عليها « لم تبلغ عنده - صلوات الله عليه - إلا أنها الزوجة الكفء لبلوغها والمحافظة عليها ، وكانت تعرف من أدب الزواج ما يجمل بمكانها ، وتعرف من ملاطفة الزوج مداخل قلبه ومواطن رضاه ، ولم تترك له وحده مسرة تدليلها فهى الزوجة الموفقة التى تكافئ الزوج فى حياته المنزلية ، والمرأة التى تبادل الرجل ما عنده من شعور والتلميذة التى تتلقى من أستاذ عظيم فتحسن التلقى عنه . وهى من جميع هذه الجوانب مثل صالح للنشأة البيئية فى أسرة الصدِّيق » [2] .

وكانت معيشة السيدة عائشة غاية فى التواضع ملبساً ومأكلاً وفرشاً حيث لم يَعْدُ طعامها التمر واللبن والماء وأحيانا اللحم وإنه لم يكن لديها إلا فراش واحد ، ثم رزقت بفراش آخر بوسادة من أدم محشوة ليفا [3] . وقد رأى عمر بن الخطاب النبيَّ ﷺ فى حجرة عائشة ولم يكن بينه وبين الأرض إلا حصير يترك أثره فى جنبه ، فذرفت عيناه بالدموع ، قال : يا رسول الله كسرى وقيصر عدوا الله يفرشان الديباج والحرير وأنت نبيه وصفيه وليس بينك وبين الأرض إلا حصير ووسادة محشوة ليفا فقال له النبى ﷺ : ياعمر أولئك عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا [4] .

وكانت عائشة مع تلك البساطة فى حياتها سعيدة تظللها البشاشة راضية

---

(١) بلاغات النساء / ص ١٠٠

(٢) عبقرية الصديق / ص ١٨٠

(٣) الشيبانى تيسير الوصول ص ١٠٧

(٤) الذهبى / تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٠

غاية الرضى . وهى التى تروى أنه لما سألها عبد الله بن الزبير (١) عن حياة رسول الله ﷺ قالت : كنا نرى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين ولم توقد فى بيته قدر وإنما الأسودان : التمر والماء (٢) وكانت زوجات النبى ﷺ يعشن هذه العيشة ، ولم تكن بالقطع حياة ترف ورفاهية وسعة فى المأكل والمشرب ، وتمنت بعضهن - بعض - المتع الدنيوية فقال تعالى : ﴿ يا نساء النبى إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن اللهَ ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ (٣) وعندما نزلت هذه الآيات دخل الرسول ﷺ على عائشة وقال لها : « لا عليكِ ألا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك » . فقالت عائشة : فى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد اللهَ ورسوله والدار الآخرة (قالت) : ثم فعلت أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلتُ (٤) .

● البريئة المبرأة من فوق سبع سماوات :

إن الصدِّيقة الطاهرة عائشة قد تلقبت « بالبريئة المبرأة » إثر تلك الإشاعة التى روّجها بعض الطَّغام ، وكان مصدرها العديد من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ، رموا تلك المحصنة النقية بما لفقوه من تهمة باطلة وفرية ظالمة وهو ما عرف فى التاريخ باسم « حديث الإفك » وكان القصد تعكير صفو النبى ﷺ المحبوب عند المسلمين لكرم شمائله بأن يفجعوه فى أعز أزواجه إليه السيدة عائشة ابنة أخلص الناس إليه أبى بكر

---

(١) ابن أختها أسماء ذات النطاقين .

(٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٠

(٣) سورة الأحزاب آية ٢٨ - ٢٩

(٤) شرح صحيح البخارى ص ٥١٢

الصديق . ومن يكون هؤلاء ؟ إنهم بعض من رددوا مقولة بعض المنافقين والداسين للإسلام ، والذى تولى كبره رأس النفاق فى الجزيرة عبد الله بن أبى ابن سلول (١) ومرد ذلك الإفك والافتراء الذى جاءوا به « أن الرسول إذا أراد السفر أقرع بين نسائه وأخذ من وقعت عليها القرعة . وفى الحملة التى كان الغرض منها تأديب بنى المصطلق سنة ستة من الهجرة ، وكانت القرعة هذه المرة من نصيب السيدة عائشة فصحبها معه ، وبعد أن أدت الحملة مهمتها طلب من أصحابه العودة مسرعا فى الليل . وذهبت عائشة فى الخلاء لتقضى حاجتها فسقط عقد لها (٢) فى الطريق فرجعت إليه تلتمسه ، فأبطأت حتى وجدته . وجاء القوم فحملوا هودجها استعداداً للرحيل دون أن يدرى أحد غيابها (٣) وكانت النساء إذ ذاك خفافا لم يغشيهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام ثم أسرعوا فى السير وخلفوها وراءهم . وعندما رجعت وجدت الركب قد سار فظلت فى حيرة من أمرها ، ولبثت فى مكانها وهى على يقين بأنهم عائدون إليها لا محالة حين يفتقدونها ، ثم غلبها النوم ، فنامت ، وبينما هى كذلك إذ أقبل صفوان بن المعطل السلمى الموكول إليه أمر السفر فى ساقة الجيش ليلتقط ما عسى أن يكونوا خلفوه من متاع أو شئ ، فلما رأى عائشة وهى ملتفة بجلبابها فجعل يسترجع قائلا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فما زال يسترجع حتى استيقظت ، فلما استيقظت قدَّم لها بعيره فركبت وانطلق يقوده بها حتى دخل المدينة فى نحر الظهيرة (٤) .

---

(١) ابن كثير / السيرة ج ١ ص ١١٣

(٢) عقد من جزع ظفار الخرز والجزع هو . وظفار نسبة إلى مدينة باليمن .

(٣) ابن كثير المرجع السابق ص ١١٤

(٤) ابن هشام / السيرة ج ٣ ص ٣٤٩

وصلت السيدة عائشة فى رائعة النهار فلما رآها رأس النفاق ابن سلول تولى الإفك حيث سأل : من هذه ؟ فقيل له عائشة . قال امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها ، فجعل المنافقون يتكلمون فى شأن عائشة وصفوان . وأرجفت المدينة كلها بهذا البهتان (١) وكان لهذه الإشاعة أسوأ الأثر فى نفس رسول الله ﷺ ، فجع لها أعظم فجيعة ، وسار حديثها مضغة فى أفواه الناس ، يا له من موقف صعب وبلية عظمى ابتلى بها رسول الله فأخذت عليه مشاعره ، وهو لا يشك فى طهارة عائشة ولا يصدق أن يصدر منها منكر ، ولكنه أمام شائعة مصدرها جماعة منهم . ولقد زاد الأمر تعقيداً أن عائشة ما كادت تصل إلى المدينة حتى أخذت تشكو ألما بها ، وجاءت أم رومان - أمها - تمرضها فلم تجد من رسول الله ذلك العطف والحنوّ الذى كان يحوطها به ، خصوصا فى ساعة المرض ، بل كان كلما دخل عليها اقتصر على السؤال عن صحتها بقوله « كيف تيكم ؟ » ولا يزيد على ذلك ، فزاد هذا من مرضها وهى لا تعلم شيئاً عما قيل عنها (٢) .

تقول كتب السنن والسير بأن عائشة لما رأت من جفاء النبى استأذنت فى الذهاب إلى بيت أبى بكر لكى تمرضها أمها فأذن لها ، وعندما أعلمتها بنت أبى رهم بما يرجف به المرجفون وأخبرتها بقول أهل الإفك ذهبت إلى أبويها تستيقن الخبر من قبلهما (٣) قالت عائشة فيما يرويه البخارى « فأتيت أبوى قالت وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر فقلت لأمى : ما يتحدث به الناس ؟ فقالت : يا بنيتى هونى على نفسك الشأن (٤) فوالله لقلما كانت

---

(١) المرجع السابق ص ٣٥٠ ، أبى الأعلى المودودى تفسير سورة النور ص ١٨

(٢) ابن حجر شرح صحيح البخارى هامش ص ٩٣ ، ٩٤

(٣) العصامى سمط النجوم العوالى ج ١ ص ١٠١

(٤) أى هونى عليك الأمر .

امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، فقلت: سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟ (قالت) فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ، فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدى ، وبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله فجلس ولم يجلس عندى من يوم قيل فيّ ما قيل قبلها وقد مكث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى شئ (قالت) : فتشهّد ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة سيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى [1] حتى ما أحس منه قطرة وقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال . (قالت) والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت : إنى والله لقد علمت أنكم سمعتم ما تحدث به الناس ووقر فى أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إنى بريئة واللهُ يعلم أنى بريئة لا تصدقونى بذلك ، واللهِ لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . ثم تحولتُ على فراشي وأنا أرجو أن يبرئنى الله ، ولكن ما ظننت أن ينزل فى شأنى وحيا ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها فواللهِ ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله عليه الوحى فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء [2] حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يوم شات [3] فلما سرّى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى : يا عائشة احمدى الله فقد برأك الله ، فقالت لى أمى: قومى إلى رسول الله ﷺ

(١) قلص الدمع : ارتفع وانقطع . (٢) البرحاء : شدة الكرب .

(٣) الجمان : حبات اللؤلؤ كناية عن العرق الذى كان يكسو جبينه ﷺ حين الوحى ، وشات : نسبة إلى الشتاء .

فقلت : لا والله لا أقوم ولا أحمد إلا الله ، فأنزل الله عز وجل ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ (١) إلى آخر الآيات (٢) ثم أمر المصطفى الأكرم ﷺ بعد أن خرج إلى الناس ببراءة عائشة من فوق سبع سماوات وقرأ عليهم آيات التنزيل بأن يؤتى بهؤلاء المرجفين المفتونين المخدوعين بأقاويل المنافقين (٣) فأقيم عليهم حد القذف الذى رموا به أطيب الطيبات وأطهر السيدات وظهر بطلان ما قيل فيها من الظلم وشنيع التهم ، وقد أبت إرادة الله إلا أن تجعل براءة عائشة خالدة يعلمها كل أحد ولا يطعن فيها مكابر وذلك نتيجة إخلاصها فى الاستعانة بالله وحده فلا يعلق بالأذهان شئ عن محمد وآل محمد وتظل سيرة أزواجه أمهات المؤمنين طاهرة مصونة نقية ، كما امتلأت نفس عائشة وأبيها « أبى بكر غبطة بذلك وشكراً للخالق على ما أنعم من إظهار الحق وبشهادته فى القرآن ورجعت عائشة إلى بيتها عالية الرأس موفورة الكرامة . تقول عائشة « لقد نزل عذرى من السماء ولقد خلقتُ طيبة عند طيب ولقد وعدت مغفرة وأجراً عظيما » (٤) وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة حدَّ الله الذين قذفوا عائشة ثمانين ثمانين على رؤوس الخلائق ، فسيستوهب ربى المهاجرين منهم

---

(١) سورة النور الآيات من ١١ - ٢٠

(٢) ابن حجر / المرجع السابق ص ٩٨ ، وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٤٦ - ٣٤٧

(٣) قصدت حمنة بإفصاحها بأمر هذا الظلم خدمة لأختها زينب أم المؤمنين التى كانت أقل منزلة من عائشة ، وهى لم تأمرها بذلك بل إن ذلك من عند نفسها . تقول عائشة : أما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً ، وأما حمنة أختها فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادنى لأختها فشقيت بذلك . أبو الأعلى المودودى مرجع سابق ص ٢١

(٤) العصامى مرجع سابق ج ١ ص ١٠٢

- يطلب إعفاءهم من الجلد - فأستأمرك يا عائشة . فسمعت عائشة الكلام وهى فى البيت فبكت ثم قالت « والذى بعثك بالحق نبياً لسرورك أحب إلىّ من سرورى » فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكا وقال « إنها ابنة أبيها » [١] .

وكان أبو بكر ينفق على قريبه مسطح فقال « والله ما أنفق على مسطح شيئا ولا أنفعه بنفع أبدا بعد الذى قال فى عائشة وأدخل علينا » فأنزل المولى : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ [٢] فقال أبو بكر « بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى » فرجع إلى مسطح بن أثاثة الذى كان يجريه عليه وقال: « لا أنزعها منه أبدا » [٣] .

والحق أنها كانت فرية ساقطة وكذبة لا يقرها عقل ولا دين ولا يقبلها منطق البيئة ولا ظروف المجتمع وإن أقاموا عليها ألف دليل ودليل ، فكيف وليس لها سند ولا شبهة إلا أن عائشة تأخرت فى الطريق هنيهة حين تحرك العسكر على حين فجأة فى رحلة كانت كلها كثيرة المفاجآت فى مواعيد النزول والرحيل ؟ تلك شبهة لا تكفى للشك فى امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد فى حضرة نبى الإسلام ، إذ لو كانت كل امرأة تتأخر فى الطريق تؤخذ بالتهمة فى دينها وعرضها لكانت التهم فى الأعراض أهون شئ يخطر على بال . من أجل هذا لم يكتف القرآن بتكذيب الفرية ونفى التهمة عن عائشة ، بل عالج الموقف من جميع نواحيه علاج الحكمة البالغة التى تصون للأعراض الطاهرة حرمتها وتقطع على الألسنة الكاذبة طريقها حتى لا يؤخذ البرءاء فيها بفرية مفتر أو إرجاف مرجف

---

(١) شرح صحيح البخارى ص ٩٨ ، أبو الأعلى المودودى مرجع سابق ص ٢٨

(٢) سورة النور آية ٢٢ — (٣) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٥٠

وحتى لا تكون أعراض الناس هدفاً لكل رام وعرضة لكل أفاك أثيم [1] ، ولقد تشجع صفوان بن المعطل عندما نزل الوحى ببراءة عائشة فاعترض حسان بن ثابت فلطمه بظهر السيف لما كان يعرِّض به فى شعره . فوثب والده ثابت بن قيس بن شماس على صفوان فجمع يديه إلى عنقه بحبل وجاء به إلى رسول الله ﷺ ، فذكر ذلك له . فقال صفوان : يا رسول الله إنه آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته ، فلم يغضب رسول الله ﷺ على صفوان ولم يحقد على حسان وذكر أنه مستحق لذلك ولم يزد عن قوله لشاعره المستتاب . « أحسن يا حسان فى الذى أصابك » وأعطاه عوضا مما أصابه بير حاء وفيها قصر بنى جديلة بالمدينة . كما أعطاه أمَة قبطية اسمها شيرين أخت مارية المصرية ، فولدت له عبد الرحمن بن حسان [2] .

والعفو من شيم الكرماء ، ولا عجب أن تأتى قصيدة حسان محاولة إزالة ما وقر فى النفوس والمشاعر الإسلامية أثر غضبتهم عليه ونقمتهم منه . فقال معتذراً ومبرئاً ونادما وهى من مطولات الشعر ومنها :

حصـــان رزان مـــا تزن بريبـــــة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

عقـيلةُ حَـىٍّ مِـن لـؤى بن غالب ... كِرام المساعى مجدهم غير ذائل

مهــذَّبة قــد طـيَّبَ اللهُ خيمها ... وطَـهَّرَها مِـنْ كل سوءٍ وباطـل

فإن كنتُ قد قلتُ الذى قد زعمتمُ ... فــلا رفعتْ سوطى إلىَّ أناملى

وكــيف ووُدّى ما حييتُ ونصرتى ... لآلِ رسـولِ اللهِ زينِ المحافل [3]

---

(١) العقاد ، الصديقة بنت الصديق ص ١١٥

(٢) الذهبى / سير أعلام النبلاء ج ٥ ترجمة حسان ص ٤٨

(٣) المحب الطبرى / الرياض النضرة ج ٣ ص ١٠٩

ومن المبشرات الحقة ما قاله ابن عباس بعد وفاة النبى ﷺ فى شأن أم المؤمنين المصونة المبرأة عائشة فيما أخرجه الطبرانى عن ذكوان حاجب عائشة قال : قال ابن عباس لعائشة بعد أن دخل عليها فى حجرتها « أبشرى ما بينك وبين أن تلقى محمداً والأحبة إلا أن تَخرجَ الروح من الجسد . كنتِ أحبَّ نساء رسول الله ﷺ إلى رسول الله ولم يحب رسول الله إلا طيبا . وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات جاء بها الروح الأمين فأصبح وليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه إلا هى تتلى فيه آناء الليل وأطراف النهار . (قالت) دعنى عنك يا ابن عباس فوالذى نفسى بيده لوددتُ أن كنتُ نسياً منسيا وقالت ذلك لخشيتها من ربها ولفراقها أعز عزيز عليها وهو الرسول محمد ﷺ (٢) .

• علمها وفقهها :

وقد اشتهرت السيدة عائشة بكمال التقوى ورجاحة العقل وغزارة العلم وفصاحة اللسان وقوة الحافظة وحسن الكلام (٣) ، ملمة بمكنون أسرار المسلمات ، متفقهة فى مسائلهن الخاصة بهن ، فكانت لهن معلمة ومرشدة حقا وذلك فى عهد النبوة ، وقد ساعدها على ذلك أنها ترعرعت فى مهبط الوحى ونبع العلم تغترف منه ما شاء لها ذكاؤها وعبقريتها ، كما تأثرت بخلائق النبوة وهديها الراشد فاكتسبت ثقافة دينية رائعة وخصلا عظيمة بحسن استعدادها ومواهبها المتقدة . فنشأت فى بيت النبى ﷺ مجتهدة فى دينها وعبادتها ، فكان النبى حفياً بأم المؤمنين عائشة ويعنى بها ، وقد بسطت القول ووضحت المغلق فى مسائل الزواج والطلاق وحسن معاملة الأزواج وطاعة الزوجات وما يجرى على ألسنة النساء من معارف خاصة مما

---

(١) شرح صحيح البخارى ص ٩٩ ، تفسير سورة النور ص ٣٢

(٢) العصامى . سبط النجوم ج ١ ص ١٠٤

لا تحب المرأة أن يطلع عليها إلا مثلها ، فتولت عائشة - فقيهة الإسلام - هذا الجانب بتفوق ونجاح ، وكانت منزلتها أكبر قاطع للشك فى نفوس النساء فى الأمور الدقيقة والشئون الخاصة بأحكام الدين ، فضلا عن اقتناعهن بقيمة تشددها على البعض منهن اللواتى لم يلتزمن الحشمة فى الملبس (١) ولقربها من النبى ﷺ أخذت عنه الفقه فى الدين على العموم وحفظت كثيرا من الأحاديث النبوية ، وروى عنها كثير من الصحابة والتابعين حيث هى من أعظم رواة الأحاديث ومن أكبر المراجع والأصول لسنة النبى ﷺ وأعماله ، وكانت الملجأ القويم فى المسائل الخلافية فى المعاملات الاجتماعية والفروض وسائر العبادات (٢) وكان الناس يرون علم عائشة قد بلغ ذروة الإحاطة والنصح فى كل ما اتصل بتشريع الإسلام ومعارفه « فكانت أحفظ المسلمين للقرآن والسنة وأقدرهم فهماً لحقائق التفسير والفقه وأخبر الناس بتاريخ الدعوة الإسلامية كما كانت أعلم بجاهلية العرب وما حدث فى أيامها (٣) ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه إلا بعد أن خلفها حجةً وثبتاً فى كل تلك الثقافات المتشعبة يلجأ إليها الكبار والصغار رجالا ونساء متعلمين ومستفتين . روى أن عروة (٤) قال لها : يا أماه لا أعجب من فقهك أقول زوجة الرسول ﷺ ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبى بكر ، ولكن أعجب من علمك بالطب ؟ قالت : إن رسول الله ﷺ كان يسقم عندى فى آخر عهده وكانت تقدم عليه وفود العرب فتصف له الوصفات فكنت أعالجها (٥) . وكانت من أكبر فقهاء الصحابة وكان كلهم يرجعون إليها فيما أشكل عليهم بعد وفاة

---

(١) ياسين العمرى ، الروضة الفيحاء فى أخبار النساء ص ٢١٢

(٢) ابن الجوزى . أحكام النساء ص ٩٧

(٣) المرجع السابق ص ٩٧

(٤) ابن الزبير وأسماء بنت أبى بكر .

(٥) الروضة الفيحاء ص ١١٢

النبى ﷺ يستنيرون برأيها ويلجأون إليها عندما يغمض عليهم فهم بعض المسائل فتصحح لهم ما أخطأوه وتبين ما خفى عليهم . يقول صاحب الروضة « صار من شك فى رواية أتى عائشة ليسألها الأحكام ، وإن كان بعيداً عنها كتب إليها لتصحح له ما استمع إليه أو تحقق صحة ما وصل إلى علمهم منها فأصبحت المدينة دار حديث ونبع علم لأهل الأمصار جميعا ، وقد رجع إليها كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وابنه ، وأبى هريرة . فكان عمر يميل إلى رأيها فيما يتعلق بأحكام النساء وأحوال النبى حيث لا يضارعها فى هذا الجانب أحد من النساء على الإطلاق [1] .

وكانت السيدة عائشة شخصية فذة لها وزنها الدينى والعقدى بين الخاصة والعامة حيث طار صيتها فى هذا الاختصاص فاطمأن الخلفاء الراشدون الأربعة إلى فتواها ورأيها وأجمعوا على الثقة بما أحاطت به من غزير المعارف وتعمق المسائل حتى إن العبادلة [2] الأربعة وأبا هريرة وابن الزبير نقلوا عنها وحدها ربع الشريعة .

إن الحجج الظاهرة كشفت خفايا ذلك المقام الرفيع الذى تبوأته السيدة عائشة فى عصرها الزاهر . وأبين ذلك ما نقله الذهبى وابن حزم وابن فضل الله العمرى فى أسفارهم المعتمدة حيث نقلوا إلينا عددا هائلا من المسائل والأحكام الفقهية الاجتهادية والنصية التى رجع فيها كبار الصحابة إليها وجلسوا منها مجلس التلميذ إلى أستاذه ، فعن أبى هريرة قال « قال النبى ﷺ : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قال شريح : فذهبت إلى عائشة فقلت : يا أم المؤمنين سمعت أبا هريرة يذكر عن

---

(١) ابن حزم / أصحاب الفتيا من الصحابة ص ٨٧

(٢) عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر .

رسول الله ﷺ حديثا إن كان كما قال فقد هلكنا ، فقالت : وما ذاك ؟ فقرأت عليها الحديث وقلت لها ليس منا أحد إلا وهو يكره الموت . فقالت قد قال رسول الله ﷺ ولكن ليس بالذى تذهب إليه ، ولكن إذا شخص البصر وحرحر الصدر واقشعر الجلد وتشنجت الأصابع فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه (١) . وعن سعد بن هشام أن عروة بن الزبير لقى ابن عباس وسأله عن عدد ركعات الوتر . فقال ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال اذهب إلى عائشة واسألها ثم ارجع إلىّ فأخبرنى بردِّها عليك ، فذهبت إليها ومعى حكم بن أفلح فسألتها فأخبرتنا (٢) ويروى عن قبيصة بنت دؤيب قالت : كانت عائشة أعلم الناس يسألها أكابر الصحابة . وقال أبو موسى « ما أشكل علينا أصحاب محمد ﷺ حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما » وقال حسان : ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال وحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة(٣) . وعن عبد الله ابن عباس أن معاوية صلى صلاة العصر ثم قام ابن الزبير (٤) فصلى بعدها ركعتين فقال معاوية لابن عباس : ما هاتان الركعتان ؟ قال : بدعة وصاحبهما صاحب بدعة . فلما انتهى ابن الزبير قال لم أبتدع شيئا ولكن حدثتنى خالتى عائشة . فأرسل إليها معاوية ليسألها فقالت : صدق . وعن ابى عطية بن عامر قال : دخلت أنا ومسروق ابن الأجدع على عائشة فقلت لها يا أم المؤمنين رجلان من أصحاب محمد أحدهما يعجل ويعجل الإفطار والآخر يؤخر الصلاة ويؤخر الإفطار ؟ قالت أيهما الذى يعجل ؟ قلت عبد الله . قالت هكذا كان يصنع الرسول ،

---

(١) الذهبى / تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٧
(٢) ابن حزم / المرجع السابق ص ٩٠
(٣) الذهبى / المرجع السابق ص ٢٧
(٤) عبد الله بن الزبير .

والآخر أبو موسى الأشعرى . وعن مكحول « قيل لعائشة إن أبا هريرة يقول الشؤم فى ثلاثة فى الدار والمرأة والفرس ؟ فقالت لم يحفظ أبو هريرة فإنه دخل ورسول الله ﷺ يقول قاتل الله اليهود يقولون الشؤم فى ثلاثة : فى الدار والمرأة والفرس فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله (١) .

● تصدُّقِها وبرِّها :

ورثت الصديقة أعظم الشيم من والدها أبى بكر وزوجها سيد أهل الكمال محمد ﷺ فبرز ذلك فى جليل صفاتها التى من أهمها كرم الأخلاق والتمسك بالدين والعطف على الفقراء والمساكين والصفح الجميل (٢) مما بوأها المكان الحق فى سماء الرفعة كأم للمؤمنين . فهى التى تتفقد شئونهم وتعطى الفقير وتواسى المصاب وتسأل عن المريض وتشارك المسلمين أفراحهم وتجبر قلوبهم ، فقد استأذنت النبى ﷺ فى زيارة أبى بكر وبلال وعامر بن فهيرة حينما علمت بمرضهم فأذن لها فزارتهم ، وقد قالت للرسول : إن لى جاريتين وأريد أن أهدى لواحدة . قال : أقربهما إليكِ بابا (٣) . ومن صور الجود والمواساة ما نقله الثقات عنها أن معاوية بعث إليها مائة وثمانين ألف درهما فجعلت تقسمها بين الناس حتى لم يبق منها شئ فلما أمست قالت : يا جارية هلمى فطورى . فجاءتها بخبز وزيت ، وقالت لها مولاتها : لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحما قالت « إلا ذكَّرْتِينى ؟ » وكانت صائمة ذلك اليوم (٤) . وبلغ من روعة زهدها ونادر سخاءها أنها تبذل كثيرا وهى فى حاجة إلى البعض منه ، ولا تنظر إلى ذلك طالما أن ما

---

(١) العمرى ، الروضة الفيحاء ص ٢١٣

(٢) طيفور مرجع سابق ص ٩٨

(٣) الخزرجى / خلاصة تذهيب الكمال ص ٢١٥

(٤) تذكرة الحفاظ ص ٢٨

تبذله فيه سد عوز مسلم أو فتح باب للفرج على ذوى الحاجات ، فعن عروة ابن الزبير قال إنها كانت لا تمسك شيئا مما جاء من رزق الله تعالى إلا تصدقتْ به ولقد تصدقت بسبعين ألف درهم وهى مع ذلك ترقع درعها [١] وقد ساهمت السيدة عائشة فى تجهيز ربيبة لها تدعى الفارعة بنت سعد وقد حضرت زواجها وسارت معها حتى أوصلتها إلى باب بيت زوجها ، وعند قتل أخيها محمد بن أبى بكر بمصر وله ولدان صغيران فأخذتهما عندها وتولت الإنفاق عليهما وكانت أبرَّ بهما من والدتهما ، ولما كبرا وشبا عن الطوق أرجعتهما إلى عمهما - عبد الرحمن - ليشرف عليهما ويعلمهما [٢] وكانت السيدة عائشة من أكثر الناس عطفا على بقية أمهات المؤمنين حيث كانت تقدرهن ويحظين منها بالحب والثناء الجميل . فقالت وهى الفصيحة المبينة ذات الخلال الرفيعة ، فى سودة بنت زمعة « ما رأيت امرأة أحب إلىّ أن أكونَ فى ملاحها من سودة » فهى تعنى أن تكون مثلها وهذا ثناء عظيم على سودة ، وفى السيدة زينب بنت جحش قالت « لم أر امرأة قط خيرا منها فى الدين وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة » وكانت تساعدهن فى العمل وتزورهن إذا غبن عنها أو مرضن ، وأوصت أن تدفن فى البقيع معهن [٣] فهل تجد مثلها فى كريم خلقها بحسن معاملة ضرائرها بهذا العطف والصلة والتودد ؟ وقيل أن تستجيد مواهب الفراسة عندك فتجيب - قبل ذلك - قل إنه أدب بيت النبوة الراقى الذى اغترفت منه عائشة وتشبعت من رحيق غدائره والتى لا ينضب معين نقلها منه أبداً ، ومن باب مفاخرها على الإطلاق أن فى حجرتها التى مكثت فيها تسع سنوات مع النبى ﷺ كانت آيات التنزيل تهبط فيها بالبينات الساطعات عدة مرات . ولم ينزل الوحى فى لحاف غيرها من زوجات النبى .

---

(١) المحب الطبرى الرياض النضرة ج ٢ ص ١١٧ (٢) المرجع السابق ص ١١٧

● وفاتها :

وقد تزهدت هذه الفاضلة الكريمة فى أخريات أيامها حتى لحقت بالرفيق الأعلى من الجنة سنة ثمان وخمسين من الهجرة وكان لها من العمر ست وستون عاما ودفنت بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة [٢] وقد احتلت أعظم مكانة يمكن أن تنالها امرأة فى تاريخ الإسلام المجيد ، وكانت إسهاماتها من أبرز معالم صفحاته ، فكانت درة من بين نساء الإسلام الخالدات اللواتى اختص بوعيهن ونضجهن رسوخ المبادئ الطيبة فى الحق وللحق ، وصارت سيرة السيدة عائشة أعظم الدروس للنجيبات منهن وللزوجات الصالحات فى بيوتهن ، والموفقة الصائبة من تسير على دربها وتتمثل صورتها كمعنى غال ورمز باق لهن ولكل جيل فى دنيا الناس رضى الله عنها .

(٢) ذات النطاقين : أسماء بنت أبى بكر

ذات النطاقين تلك المرأة العظيمة التى تستحق عن جدارة أن نقدمها على رقعة التشريف التى تتخطى حجب الأزمان فى مساجلات الأيام لما أسهمت به من صفحات مسهبة للبطولة النادرة والفدائية الحقة والشجاعة الفائقة ، ولا عجب فى ذلك فقد انبثقت من بيت العز الرفيع والنخوة الموجهة إلى فعل الخيرات والبذل بكل نفيس فى ساعات العسرة وكل ذلك فى سبيل الدعوة التى آمن أفراده بها من أول وهلة « إنها أسماء بنت أبى بكر التميمية المكية ثم المدنية أخت أم المؤمنين عائشة وأمها قتيلة بنت عبد العزى بن عبس أسعد بن جابر العامرية التى تزوجها الصديق قبل الإسلام

---

(١) الروضة الفيحاء ص ٢١٩

(٢) الذهبى / سير أعلام النبلاء ج ٤ ص ٨٧

فولدت له أسماء وعبد الله » [1] ففى هذا البيت العريق المتألق بأكاليل الفخار نشأت أسماء التى كانت أسن من عائشة بعشر سنوات وقد ولدت بمكة قبل الهجرة بخمس وعشرين سنة على التقريب [2] فتربت فى ظلال المكارم ترفل فى النعيم والغنى الذى كانت أسرتها تعيش فيه من جراء تلك المتاجرات الواسعة التى تدر الأرباح النافقة لأبى بكر « فسعدت بالخيرات التى ينعم بها بقية سراة مكة ، كما تأثرت بأبيها أيما تأثر فغلب عليها الذكاء وحضور البديهة والتدبر المحكم فى مواقف تستلزم حسن التصرف وجلاء الفراسة فضلا عن الشجاعة [3] كما تضرب أسماء المثل الأعلى للمرأة فى الحكمة وضبط النفس فلا تهلع عند الشدة ولا تجزع عند البأس ، وكان لها مواقف جليلة من رباطه الجأش وحضور القلب وحصافة اللب وتصرفات سديدة مضاف إليها فصاحة وفهم دقيق لخبايا المعايش ونظم الشعر [4] .

● زواجها :

تزوجت أسماء الزبير بن العوام بن خويلد ابن أخى السيدة خديجة وأمه السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ فشاركته سراء الحياة وضرائها حلوها ومرها وانتقلت إلى بيته وعاشت يكتنفها عقلها وصبرها وتواضعها وإخلاصها لهذا الزوج حوارى رسول الله ﷺ من السابقين الأولين الداخلين فى الدين الحق المبين تقول السيدة أسماء : « تزوجنى الزبير وما له فى الأرض من مال ولا مملوك ولا شئ غير فرسه فكنت أعلفه وأكفيه مؤونته

---

(1) ابن ظفر أنباء نجباء الأبناء ص ١٩٤

(2) المرجع السابق ص ١٩٤

(3) الذهبى / المرجع السابق ج ١ ص ٤١

(4) المرجع السابق ص ٤١

وأسوسه وأدق النوى له وأستقى الماء وأعجن وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ (١) حتى بعث إلىّ أبو بكر جارية فكفتنى مؤنة الفرس فكأنما أعتقتنى (٢) . ومع هذا التجلد فى متطلبات الحياة الزوجية التى تصرفت فيها أسماء بوعى سليم وقوة إدراك لحسن الطاعة المستوجبة للاستقرار الاجتماعى « إلا أن الزبير كان شديداً عنيفاً معها ، كما تزوج عليها عاتكة أخت سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة وأم خالد بنت خالد بن سعيد ، وأم مصعب الكلبية (٣) وكان لتلك الشدة أثرها فى نفس السيدة أسماء فخافت أن تنقلب إلى جفوة فشكت إلى أبيها أبى بكر بأن الزبير يؤثر ضراتها عليها . يقول القرطبى مبينا ذلك الجانب الذى تغلفه سحابة قاتمة : « روى مالك أن الزبير بن العوام كان كثير الضرب لزوجته أسماء بنت أبى بكر فضربها يوما حين خرجت بغير إذنه بعد أن عقد شعرها بشعر ضرتها - ضرباً شديداً وكانت الضرة أحسن أنفا منها فكان الضرب بأسماء أكثر فشكت إلى أبيها فقال لها : أى بنية اصبرى فإن الزبير رجل صالح ، ولعله أن يكون زوجك فى الجنة (قال) ولقد بلغنى أن الرجل إذا ابتكر بالمرأة تزوجها فى الجنة (٤) .

● علمها :

كانت أسماء ذات فقه وإلمام بحقائق هذا الدين الإسلامى العظيم الذى آمنت به واتبعته ، فوجدت معلم الإنسانية محمد ﷺ يسدى للناس نصحه ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم فيأمرهم بأكمل العادات ويرشدهم إلى

---

(١) الفرسخ ثلاثة أميال .

(٢) الذهبى المرجع السابق ج ١ ص ٤١

(٣) ابن الفلاح بن العماد / شذرات الذهب ج ٣ ص ١٧

(٤) القرطبى ، التذكرة فى حالى الدنيا وأمور الآخرة ص ١٧٩

الصفات الحسنة الجميلة ويهديهم إلى الفضائل الراقية ، فأحبت هذا الدين وملأت شخصيةُ الرسول ﷺ كل جوانب حياتها ما جل منها وعظم أو قل وصغر ، فكانت بهذه الوشيجة الدينية العظيمة - صداقة والدها للنبى - ذات قدم راسخة فى الدين فأصبحت راوية للحديث عالمة بمسائل العبادات والمعاملات الإسلامية الدقيقة ، تمكنت منها براجح عقلها وجرأتها فى الحق وشغفها بالعلم والأدب (١) . ومن يقرأ كتب السنة والسيرة يجد للسيدة أسماء « ستة وخمسين حديثا روتها عن النبى ﷺ انفرد البخارى بأربعة وانفرد مسلم بمثلها واتفقا على أربعة عشر حديثا » (٢) وقد استنبط الفقهاء والعلماء من تلك الأحاديث أحكاما شرعية وحقائق المنافع العامة . فهى إحدى الفضليات اللائى خدمن الدين وروين الحديث ونشرن العلم فى صدر الإسلام ؛ حيث كانت ممن أسهمن بدور إيجابى فى الدأب العلمى فتصدت بكمال وعيها لمسائل العلوم الدينية المتفقة فيه فى المدينة فعلّمت العديد من النساء واستفدن من ثقافتها للوصول إلى أعلى غاية فى ارتقاء درجات العلم فكانت من تلميذاتها : أم الدرداء وفاطمة بنت قيس كما أخذ عنها الحديث ابناها عبد الله وعروة وحفيدها عبد الله بن عروة وابن عباس وأبو واقد الليثى وصفية بنت شيبة ومحمد بن كيسان ووهب بن كيسان وابن أبى مليكة (٣) .

ومن جملة ما روته السيدة أسماء من أحاديث تصدرت صفحات كتب التراث بالحق البين من ذلك :

أ : قالت أسماء « قدمت علىَّ أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله

---

(١) ابن ظفر / المرجع السابق ص ١٩٤

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ٣ ص ٩٨

(٣) رضا كحالة ، أعلام النساء ج ١ ص ٤٨

ﷺ فاستفتيته قلت : إن أمى قدمت علىَّ وهى راغبة أفأصل أمى ؟ قال نعم صلى أمك [١] .

ب : وعنها رضى الله عنها قالت : قال لى النبى ﷺ : لا توكى [٢] فيوكى عليك . أرضخى ما استطعت [٣] .

ج : وعنها فى جلائل الأعمال التى تبلغ حد الكمال الإنسانى أن الرسول الكريم ﷺ قال : قد دنت منى الجنة حتى لو اجترأت عليها لجئتكم بقطاف من قطافها ، ودنت منى النار حتى قلت أى رب وأنا معهم ؟ فإذا امرأة حسبت أنه قال تخدشها هرة ، قلت ما شأن هذه المرأة ؟ قالوا : حبستها حتى ماتت جوعا لا أطعمتها ولا أسلتها تأكل من خشاش الأرض [٤] .

هذا غير ما عرفته عن بعض تفاصيل العديد من المغازى ومعرفة الحقائق بتاريخ الرسول والمسلمين وذلك لقربها من أختها عائشة أم المؤمنين ولجهودها الخاصة الموفقة فقد عايشت الكثير من الأحداث مع زوجها وابنها فخبرت تاريخ الإسلام عن قرب ، والحقيقة أن أسماء كانت قدوة صالحة للمرأة المتدينة الفاهمة المتدبرة ، فكأى مسلمة أدركت الوعى الشامل لأمور دينها كصحابية جليلة فقيهة كريمة وقفت وراء زوجها الزبير فى جميع المواطن تشد من أزره وحملت معه كثيراً من الأعباء وعاشت معه وفيه كل الوفاء من وقت أن تزوجته ، وزادها تشبثا على الحق يوم أن عرف فؤداها معالم الإيمان وآيات التوحيد فصارت مثلا يحتذى للزوجات والأمهات [٥] . وقد

---

(١) النووى ، شرح مسلم ج ٣ ص ١٨٨

(٢) لا تضنى .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ ، ومعنى أرضخى : أعطى .

(٤) ابن حجر ، فتح البارى ص ٢١٨

(٥) راجع ابن ظفر المرجع السابق ص ١٩٥

غرست تلك المرأة - التى حفظ التاريخ لها مواقفها الخالدة فى الشدائد وأوقات العسرة - العديد من السجايا فى ابنيها عبد الله وعروة حيث قدمتهما إلى مجال الرفعة وأورثتهما البطولة فى كل المواقف وأشبعتهما حب العلم وأصقلت فيهما مواهب الجهاد والفداء والشجاعة الفائقة .

• فدائية الإسلام ذات النطاقين (١) :

وها هى ذات النطاقين أسماء التى قدمت صورة رائعة من صور الفدائية الحقة والشجاعة النادرة وقت الهجرة المباركة ، فقد تجهزت لتؤدى المهمة السامية التى كلفها بها أبوها أبو بكر الصديق أثناء وجوده مع النبى ﷺ فى غار ثور بعيدا عن أعين الحانقين من صناديد العناد من قريش ولم تكن مهمة أسماء سوى حمل الزاد للرفيقين يعينهما على مشقات الطريق فعملت ذلك أسماء ثلاث ليال كانت فيها أكمل المثل فى البطولة وطول الصبر (٢) والجدير بالإعجاب حقاً أن تؤدى بنت أبى بكر هذا العمل الشاق وحدها تقطع طريقاً محوطاً بالظلام والأهوال والوحشة - ترتعد له فرائص أقوى الرجال - مع ذلك كانت تقطعه كل ليلة معرضة نفسها للمخاطر ، وكله فى سبيل الله والدين الذى آمنت بتعاليمه فى ساطع النور ، وكان عليها فوق ذلك أن تتكتم الأمر وتحفظ السر وتلزم جانب الحيطة والحذر . تنقل لنا

---

(١) ذات النطاقين : اللقب الذى لقبه النبى ﷺ للسيدة أسماء بنت أبى بكر فور شقها لنطاقها نصفين عندما نسيت أن تجعل لسفرتها عصاما ، فربطت بنصف منها الجراب الموضوع بداخله الطعام وربطت بالنصف الثانى القربة وقال لها أنت ونطاقك فى الجنة . وكان هذا اللقب وساماً متألقاً تتباهى به أسماء طوال حياتها ومجداً لأولادها بعد وفاتها ، وقد سمعت أسماء بأن أتباع بنى أمية يقولون لابنها عبد الله . يا ابن ذات النطاقين ، فقالت له : عيروك ، قال نعم ، قالت فوالله حق ، وقالت للحجاج لما قابلها : وكيف تعير عبد الله بذات النطاقين ؟ أجل قد كان لى نطاق لا بد للنساء منه ونطاق أغطى به طعام رسول الله ﷺ .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٠٠

كتب السيرة فى زهو صوراً بوارق لشدة تمسكها على الرغم مما تتعرض له من الضغط والإيذاء . من ذلك أن قريشاً جاءتها تستطلع أخبار أبيها عقب خروجه مع الرسول مهاجراً فدخلوا بيت أبى بكر فخرجت تلقاهم أسماء وقالوا لها أين أبوك يا ابنة أبى بكر ؟ قالت لا أدرى والله أين يكون . فرفع أبو جهل يده فلطم أسماء لطمة أطارت القرط من أذنها من غيظه وحنقه ، ثم انصرفوا (١) ، ثم أعقبهم جدها أبو قحافة - وقد كف بصره - فجاء يسألها عن أبيها وعن ماله الذى كان يبلغ ستة آلاف درهم والذى انطلق به أبو بكر وهو فى حوذته ، قال أبو قحافة فى صوت يغلفه نبرات الحزن والغضب : لقد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : كلا يا أبت إنه ترك لنا خيراً كثيراً . قالت أسماء فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة فى البيت كان أبى يضع ماله فيها ثم وضعتُ عليها ثوباً ، ثم أخذت بيد جدى فقلت يا أبت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه فقال لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن وفى هذا بلاغ لكم ، تقول أسماء : والله ما ترك أبى شيئا ولكن أردتُ أن أسكن الشيخ بذلك (٢) . إن هذا التصرف المحمود من أسماء ليقدم لنا « طاقة أمل » فيما يمكن أن يحدثه التدبير الموفق من تأثير مباشر فى النفوس ، فإن بصيرتها النافذة جعلت جدها يهدأ خاطره - مع شدة حبه للمال - وما زالت به حتى اقتنع أو تظاهر بالاقتناع . والمهم أن ينصرف وهو راض عن ابنه أبى بكر الذى هاجر دون أولاده كل الرضى .

● جهادها وشجاعتها :

وقد هيأت الأقدار تلك المرأة لتنال شهرة ذائعة فى ضروب البسالة والإقدام وهى فى مقتبل العمر ، وعندما بلغت سن الشيخوخة ، فقد ضربت

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٠

(٢) نفسه ج ١ ص ١٢٤

لنا مثلا رائعا فى العزة والكرامة وقوة الإيمان والشجاعة والتضحية فى سبيل الحق ، وقد بلغت قمة التضحية فى نصحها لابنها عبد الله ، وكان المقام كله والدنيا تسع عماد برهانها وقوام حجتها فوفقت فى ذلك عياناً أبلغ توفيق .

فقد كانت أسماء من أوليات المسلمات المهاجرات من أم القرى - مكة - إلى يثرب حفاظاً على دينهن وابتعاداً عن الأيدى الباطشة التى ازدادت قسوتها على المسلمين . إن ترك الديار والاستقرار وموطن الآباء والأجداد - والوطن العزيز - ليحتاج كل ذلك إلى أنواع من الدروس المستفيضة فى الصبر والتجلد فيما تخبئه الأيام من العوادى والمشقات .

وكانت أسماء مع زوجها الزبير فى الطليعة ، بل تحملت فى الإخلاص للدين والطاعة للزوج فى الانتقال إلى دار الهجرة والموطن الجديد . على الرغم مما يكتنفها من آلام جسدية ونفسية من جراء وطأة الحمل فى أشهره الأخيرة « فقد خرجت أسماء فى هجرتها إلى يثرب وهى حامل فى عبد الله بن الزبير ، فلما بلغت قرية قباء على مقربة من المدينة ولدته وقد عمت البشرى طلائع المسلمين ، فاستقبلوها بالتكبير والشكر لله المنعم المعطى الذى مَنّ عليهم بأول مولود فى دار الهجرة (١) ولا تتعجب من هذا التصرف الجماعى الفريد بعد أن تعرف سبب الفرحة الشاملة . فإن مرد ذلك . اعتبارات سجلتها كتب التاريخ على استحياء . فقد ادعى اليهود أنهم سحروا المسلمين فلن يولد لهم بعد اليوم ولد (٢) فخيب الله رجاءهم ومسعاهم « ولما علم النبى ﷺ بولادة أسماء ذهب إلى الزبير وزوجته فبارك لهما مولودهما ثم أخذه بين يديه وضمه إلى صدره وشمه (٣) ودعا

(١) راجع وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٠٠ .

(٢) ابن عبد البر الاستيعاب جـ ٣ ص ١٠١ .

(٣) الشم هو التقبيل .

له بالبركة وكناه باسم جده أبى بكر وأطلق عليه اسم - عبد الله - وقال لأسماء : أرضعيه ولو بماء عينيك [١] .

وقد شهدت أسماء حرب اليرموك التى جرت أحداثها فى الأيام الأخيرة من خلافة أبيها أبى بكر ، وكان دورها فى تلك المعركة الفاصلة مع بقية نساء الإسلام اللواتى حضرن أحداثها أن يحملن الماء فى قرب على متونهن لإرواء المجاهدين فى ساعات العسرة وأوقات الظمأ . كما كن يداوين الجرحى ممن أصيب فى أثناء المعركة . وقد سجلت أسماء مع الخنساء وهند بنت عتبة وخولة بنت ثعلبة مأثرة من المآثر التى تنسب لتلك الموقعة [٢] وتتشرف بها أسماء فى باب شجاعتها وذادها فى ميادين الكفاح . فقد كانت مع نساء الإسلام عندما يخيم الظلام كن ينزلن إلى الفضاء فمن وجدته من المسلمين يجود بنفسه ساعدته للنهوض أو ما يعينه من تضميد جراحه أو مداواة من احتاج إلى ذلك . وقد قال لهن خالد بعد أن أعطاهن عدداً من السيوف والحجارة والأخشاب : من رأيتموه موليا فاقتلنه [٣] أما إن عثرتن على رجل من المشركين لم يمت بعد أجهزن عليه [٤] وقد جرح الزبير فى معركة اليرموك جرحين بين كتفيه وصارت أسماء تقوم بأمره مع ابنها عبد الله [٥] ومن شجاعتها - رضى الله عنها - أيام

---

(١) ابن خلكان المرجع السابق جـ ٣ ص ١٠١ .

(٢) الصورة الكاملة عن دور أسماء فى حرب اليرموك يرجع إلى ابن الأثير جـ ٢ ص ٤٨ ، وتهذيب ابن عساكر جـ ١ ص ١٢٥ .

(٣) ابن عساكر / تهذيب تاريخ دمشق جـ ١ ص ١٢٥ .

(٤) ابن الأثير / الكامل جـ ٢ ص ١٨٢ ، وفيه أن النساء كن يقلن :

يا هارباً عن نسوة نقيات   فعن قليل ما ترى سبيات لا حظيات ولا رضيات

(٥) الأزدى / فتوح الشام ص ١١٥ .

الفتنة أنها اتخذت خنجراً فوضعته تحت مرفقها ، فقيل لها ما تصنعين بهذا ؟ قالت أسماء : إن دخل عليّ لص بعجت بطنه [1] .

وتتجلى مواقف البطولة التى لم تغفلها لها سطور التشريف المعطرة «بفريد الحديث » الذى يندر تكراره على الإطلاق . وأقصد بذلك يوم أن دخل على أسماء ابنها عبد الله بن الزبير وهو خليفة على بلاد الحجاز ومصر والعراق وخراسان بعد أن انحسرت ممالكه كما سقط صريعاً أخلص أتباعه وساعده الأيمن أخوه القائد « مصعب بن الزبير » وضيق عليه خصومه من بنى أمية كل السبل للقبض عليه والتخلص منه . فأنفذ عبد الملك بن مروان إليه جيشاً جراراً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى الذى استولى على يثرب دون مقاومة ثم زحف نحو مكة وحاصرها ورمى الكعبة بالمنجنيق وألحق بها خسائر فادحة وطوّق الحجاج هذه المدينة المقدسة تطويقاً تاماً حتى تجرع أهلها ألم الجوع وأخذوا ينفضّون من حول ابن الزبير ولم يبق معه إلا نفر قليل من أصحابه [2] قالت أسماء التى كف بصرها آنذاك لابنها عبد الله الذى جاء يستشيرها فى أمره ويودعها ، وصمتت عجلة التاريخ الهادرة لتسمع كلمتها كل البشر : « يا بنى متْ كريماً فإن الموت لا بد منه وأنت أعلم بنفسك . فإن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك ليلعب بها غلمان بنى أمية . وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكتَ نفسك وأهلكتَ مَن قتل معك ، وإن قلتَ كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين . وكم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ، والله لضربة بالسيف فى عز أحب إلىّ من ضربة بسوط فى

---

(١) أعلام النساء / جـ ١ ص ٤٨ .

(٢) الطبرى / تاريخ الأمم جـ ٦ ص ١٧٤ وما بعدها .

ذل . قال : إني أخاف إن قتلوني أن يمثلوا بي . قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها » . فدنا منها يقبل رأسها فسمت على جسمه الدرع . فقالت له : ما هذا صنيع من يريد ما تريد [١] وبعد أن طمأنها ابنها بأنه سيفي بكل ما نصحته به قالت السيدة أسماء في حسم : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتني ، وإن تقدمتُ ففي نفسي جرح حتى أنظر إلام يصير أمرك ؟ [٢] .

وبعد أن أسكبت هذه المجاهدة المخلصة في أذن ابنها عبد الله جرعات العزم التالد وحب المبدأ والدفاع عنه مهما كان الثمن خرج « ابن الزبير » وخلع درعه وانطلق يقاتل قتالاً بطولياً واستمات في أرض المعركة ولم يفكر في الفرار أبداً . ولكن المنية عاجلته فسقط قتيلاً في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ على أرض الشرف والكرامة ليلحق بدار الخلود بعد أن حاصره الحجاج مدة تزيد على الستة أشهر [٣] وقد حمل رأس ابن الزبير إلى الحجاج فسجد شكراً لله ثم أمر بالرأس فحمل إلى عبد الملك بدمشق الذي أمر فبعث به فطيف بالرأس في جميع النواحي . أما جسده فقد أمر الحجاج بصلبه بالقرب من الحرم . وطال صلبه [٤] وأثناء ذلك طلبت أسماء من مرافقيها أن يمروا بها من تحت جثة ابنها عبد الله ولم تزد على أن قالت في إباء وشمم « أما آن لهذا الفارس أن يترجل » [٥] .

ولما قتل الحجاج ابن الزبير دخل بعدها على السيدة أسماء وقال لها « يا أمه إن أمير المؤمنين أوصاني بك فهل لك في حاجة ؟ فقالت : لست

---

(١) اليعقوبي / التاريخ جـ ٣ ص ١٠ - ١١ .

(٢) ابن قتيبة / الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٥ .

(٣) البلاذري / أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣٦٨ .

(٤) المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٦٩ .

(٥) الطبري مرجع سابق جـ ٦ ص ١٩٣ .

لك بأم ولكني أم المصلوب على رأس الثنية [1] وما لى من حاجة . ولكنى أحدثك : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يخرج من ثقيف كذاب ومبير [2] أما الكذاب فقد رأيناه - تعنى المختار [3] أما المبير فلا أظنه إلا أنت فقال الحجاج : إن ابنك ألحد فى هذا البيت وإن الله أذاقه من عذاب أليم وفعل به وفعل . فقالت له : كذبت كان براً بالوالدين صواماً قواماً . فقال الحجاج : كيف رأيتنى صنعت بابنك ؟ قالت : أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك [4] . وقد تماسكت أسماء تلك المرأة التى أوهنتها الشيخوخة والثكل وقد كانت فى ذلك الوقت فى حاجة إلى رعاية عبد الله وكل من رآها وهى تمر من تحت الخشبة التى صلب عليها ابنها ينزلون سخطهم وغضبهم على الحجاج وعبد الملك والدعاء عليهما ، ولم يهمهم الجبروت الذى أحيط بهم وقد سكت صاحب الكلمة الشريفة ، وما زالوا بأسماء حتى أقنعوها بأن ترفع شكواها إلى خليفة دمشق . فطلبت من عبد الملك بأن يتّقى الله فى آل البيت ، فنهى الخليفةُ الحجاجَ وأمره أن ينزل جثة عبد الله ابن الزبير من خشبة الحجون وأمره أن يسلمها إلى أمه [5] فأخذت أسماء جثة عبد الله وهى تقول : « قاتلك الله يا حجاج على ماذا صلبت عبد الله ؟ ثم غسلته وصلت خلف المصلين عليه ثم وارته التراب [6] وقد التأمت بعض

---

(١) ثنية الحجون بالقرب من الحرم .

(٢) المبير : المهلك .

(٣) المختار بن عبيد الله الثقفى الذى كان ناصبيا كان يريد زعامة وقد قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ هـ .

(٤) الذهبى / سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٤٣ .

(٥) المرجع السابق ص ٤٥ .

(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٥ .

جراحات تلك الأم العظيمة المتماسكه فى شموخ الجبال وهدأ بالها ولم تطو السيدة أسماء ذات النطاقين آلامها فهى أم رءوم يختزن قلبها شحنات العطف والرحمة والحب بلا حدود ولكنها كانت صاحبة رسالة وموقف خالد عندما واجهت ابنها عبد الله بالصورة السالفة والموقف النادر المثال فكانت قدوة صالحة للأمهات على مر الأجيال .

وفاتها : توفيت الصحابية المجاهدة القوامة الراشدة وأخت عائشة (٢) أسماء بنت أبى بكر بمكة بعد عمر يناهز المائة سنة قضتها بين درجات الفضائل جرأة فى الحق وعلم بالدين وسخاء يد وقوة إيمان ونفس راضية (٣) فأى قلب وأى إيمان بل أى نفس تلك التى تحملت مثلما تحملت أسماء عندما فجعت بعد صلب ابنها فنشرت عبيرا من نفح الخيرات والثبات والإيمان يضوع على ذلك التاريخ المجيد لا يفنى تأثيره مع تقادم الأزمان فلقيت ربها فى نهاية سنة ٨٧ هـ بعد إنزال ابنها عبد الله من فوق خشبة الثنية بالحجون ودفنه بليال قليلة وقد عمرت دهراً ولم يسقط لها سن ولم ينكر لها عقل وكانت خاتمة المهاجرات وفاء رضى الله عنها وهيأ لنساء المسلمين حسن الاقتداء بها (٤) فما حمد الناس فضيلة للمرأة بيتا وزوجاً ووالده إلا كانت أسماء على أجملها وأسماها وأحقها بالتمجيد والإكبار فهى التى قال عنها المصطفى الأكرم ﷺ فى صدر شبابها مشجعاً ومبشراً

---

(١) ابن عبد البر الاستيعاب جـ ١ ص ٨٧ ، يقول العقاد : فما عسى أن يقول القائل ويثنى المثنى على بيت ينجب هاتين العقيلتين الكريمتين ؟ عائشة وأسماء لقد كان لأبى بكر أبناء من خيرة الرجال ولكن البيت تدل عليه بناته قبل أن يدل عليه أبناؤه لأن الفضل فى نشأتهن كلها للبيت من حيث يحسب لغير البيت الفضل فى نشأة الأبناء . وذلك هو بيت الصديق أكرم به من بيت بين ما حملت الأرض كلها من بيوت . عبقرية الصديق ص ١٨٣ .

(٢) ابن عبد البر المرجع السابق جـ ١ ص ٨٧ .

(٣) الذهبى مرجع سابق جـ ١ ص ٢٠٨ .

« أبدلك الله بنطاقك نطاقين فى الجنة » [١] رحم الله أسماء عبق من نفحات العزة والشجاعة والتضحية ورضى الله عنها لتأخذ مكانها الحق بين الخالدات .

* * *

(٣) صولة الحق البيّن عبد الرحمن بن أبى بكر :

أكبر أبناء أبى بكر النجباء عبد الرحمن . صولة الحق البين المعلن ضد من أرادوا تغيير مفهوم الخلافة الراشدة بجعلها ملكية وراثية . فقد تفتحت عيونه وتربى فى مرابع العزة والأنفة متمتعاً بالفضائل والمكرمات فعاش فى بيت أبى بكر خليل نبى الإسلام الذى تلاقت قلوب جميع المسلمين فى حبه كما أجمعت ألسنة المؤرخين على تعداد مآثره وفضله الذى لا ينكر أبداً . وأم عبد الرحمن هى « أم رومان بنت الحرث الكنانية التى تزوجها أبو بكر قبل الإسلام وهو شقيق عائشة من تلك الأم التى كانت من السابقات من النساء الداخلات فى الإسلام [٢] فورث عن أبيه الشجاعة والبذل وعن أمه تدبير الأمور والنظر الدقيق إلى العواقب [٣] وقد تأخر عبد الرحمن فى دخوله إلى الإسلام مع كرم محتده وانبثاق ذلك الشبل من عرين الإيمان والتوحيد فيقول ابن عبد البر أن عبد الرحمن بن أبى بكر أسلم بعد غزوة أحد . وقد شهد بدراً وأحداً مع قومه من قريش كافراً بل دعا إلى البراز فقام إليه أبوه ليبارزه فذكر أن رسول الله ﷺ قال له : لم سيفك ولا تفجعنا بنفسك [٤] ثم أسلم عبد الرحمن وتشبع بنور اليقين وحسن إسلامه وكان اسمه عبد الكعبة فغيره النبى ﷺ وسماه عبد الرحمن والذى به اشتهر [٥]

---

(١) النووى رياض الصالحين ص ١٨٧ .

(٢) ابن حجر الإصابة جـ ٤ ص ٤٠٧ .

(٣) الاستيعاب جـ ٤ ص ٣٩٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٩٩ .

(٥) الاستيعاب جـ ٤ ص ٤٠٠

أما ابن حجر فيرى تأخر عبد الرحمن فى الدخول فى الدين إلى أيام الهدنة فلم يهاجر مع أبيه أبى بكر وخرج قبل الفتح مع فتية من قريش منهم معاوية بن أبى سفيان إلى المدينة فأسلموا (١) وهذا التردد فى الرواية عن وقت إسلامه يرجع إلى أنه لم يدخل فى الإسلام مع سائر أهل بيت الصديق. فاجتهد المجتهدون وتأول المتأولون لكن الأرجح أن عبد الرحمن نال الهداية بعد غزوة أحد مباشرة بعد اقتناعه ونزول طاقات النور والإيمان على صدره فبدى منشرحاً فاستجاب وأصاب وتخلق بأخلاق القرآن واتبع مناهج الصالحين .

مواقفه : كان عبد الرحمن من أصحاب الهمم الوثابة والمصابرة الغلابة متعه الله بسطة فى الجسم وجرأة فائقة فى الحق وشجاعة وعزيمة صلبة ساعدته فى منازلة خصوم الإسلام وإلحاق الهزائم بالمتجرئين . فعن أم جدعان أن عبد الرحمن بن أبى بكر كان أشجع رجال قريش وأرماهم بسهم ، حضر اليمامة مع خالد بن الوليد فقتل سبعة من كبار المرتدين من بنى حنيفة شهد له بذلك جماعة عند خالد بن الوليد (٢) وعبد الرحمن هو الذى قتل محكم اليمامة ابن طفيل رماه بسهم فى نحره (٣) فقتله . وكان محكم اليمامة هذا سد ثلمة من الحصن فدخل المسلمون من تلك الثلمة وكانت فى الحصن منيته (٤) كما شهد عبد الرحمن موقعة الجمل مع أخته أم المؤمنين عائشة وزوج أخته أسماء الزبير بن العوام (٥) وحضر مع النبى ﷺ الكثير من

---

(١) الإصابة جـ ٤ ص ٤٠٧ . (٢) ابن ظفر . أنباء نجباء الأبناء ص ٢١٦ .

(٣) رمى عبد الرحمن المحكم بن الطفيل يوم اليمامة بسهم - كما يقول الطبرى - وهو يخطب وكان يقول فى خطبته « يا معشر بنى حنيفة الآن والله تستحقب الكرائم غير رضيات وينكحن غير حظيات فما عندكم من حسب فأخرجوه » فقاتل قتالاً شديداً حتى رماه عبد الرحمن بسهم فنحره . تاريخ الأمم جـ ٢ ص ٣٢٣ . (٤) ابن عبد البر مرجع سابق جـ ٤ ص ٤٠٠ .

(٥) المرجع نفسه ص ٤٠٠ .

الغزوات كما صحبه فى هدنة الحديبية وظل مخلصاً لرسول الله ملبياً لداعى الجهاد ثابتاً على عقيدته قوياً فى عزمه وأرادته شديد الشغف بمتابعة أحداث الإسلام وانتصاراته بل وفى أوقات الشدائد . وهل هناك أشد على النفوس قسوة من مرض الحبيب المجتبى ﷺ تجمع الروايات بأن عبد الرحمن كان أقرب إلى الإقامة فى حجرة أخته عائشة فى الساعات التى سبقت وفاة النبى ﷺ . فكان يساهم فى تمريضه مع أخته أم المؤمنين وعندما وجد الرسول أبا بكر وعائشة وعبد الرحمن مع الفضل بن عباس وعلى وفاطمة أثناء مرضه فقال لمن حوله « سدوا الأبواب اللافظة إلى المسجد إلا بيت أبى بكر فإنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده (١) ولما اشتد بالنبى ﷺ المرض جاءوا له بشئ من العود الهندى والزيت فلدوه به (٢) وهو يشير ألا يلدوه ولكنهم قالوا إن هذا كراهية المريض للدواء . ولما أن أفاق قال : ألم أنهكم أن تلدونى قالوا وفيهم عبد الرحمن : قلنا كراهية المريض للدواء . وكان فى يد عبد الرحمن جريدة رطبة فنظر إليه النبى ﷺ فعرفت عائشة أنه يريد السواك . فقال آخذها لك ؟ فأشار برأسه نعم فتناونها من عبد الرحمن فمضغت رأسها ونفضتها فدفعتها إلى رسول الله ﷺ فاستاك بها كأحسن ما كان استاك ثم أعادها إليها فسقطت من يده (٣) .

وقد اتسعت صفحات تاريخ الإسلام التالد لتبرز مواقفه المحددة والمشددة ضد كل التجاوزات السياسية التى شهدها فى حياته - خاصة أيام الفتنة - فقام واستنصر مَن نادى بالقبض على العبيد والأعراب والغوغاء الذين

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٣٢٨ . (٢) فلدوه أى أدخلوه فى أحد جوانب فمه .

(٣) ابن كثير السيرة النبوية جـ ٤ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

اشتركوا فى قتل الخليفة عثمان ورأى مع أخته عائشة أنه قتل مظلوماً وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام [١] وبعد موقعة صفين قتل محمد بن أبى بكر على يد أنصار معاوية وفى مقدمتهم معاوية بن خديج . يقول ابن الأثير إن عبد الرحمن بن أبى بكر تقابل مع ابن خديج وهو على ولاية مصر فقال له ابن الصديق « يا معاوية قد أخذت جزاءك من معاوية ؟ وقد قتلت أخى محمد بن أبى بكر لتلى مصر فقد وليتها . فقال : ما قتلت محمداً إلا بما صنع بعثمان . فقال عبد الرحمن : لو كنت إنما تطلب بدم عثمان ما شاركت معاوية فيما صنع ، حيث عمل عمرو بن العاص بالأشعرى ما عمل فوثبت أول الناس فبايعته »[٢] .

كما تصدى عبد الرحمن للحكم الأموى ونظامه الذى أراد تغيير مسار الراشدين خاصة فى زمن معاوية بن أبى سفيان ، فقد واجه معاوية وواليه على الحجاز مروان بن الحكم فى إباء وشموخ وظهرت « صولة الحق البين » فى تلك المواقف يشهد بذلك ما أخرجه البخارى عن طريق يوسف بن ماهك بأن مروان والى الحجاز الذى استعمله معاوية خطب فذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن شيئاً فقال خذوه فدخل بيت عائشة فقال مروان : هذا الذى أنزل اللّه فيه « والذى قال لوالديه أف لكما » فأنكرت عائشة ذلك من وراء حجاب [٣] . وفى رواية أخرى أن عبد الرحمن قال محتجاً على تلك البدعة السياسية قائلا « سنة قيصر وهرقل لا سنة أبى بكر وعمر » وفيها أن عائشة قالت لمروان « واللّه ما هو به ولو شئتَ أن أسميه لسميته » [٤] .

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٤٤٩ .

(٢) تاريخ الكامل جـ ٣ ص ١٨١ .

(٣) ابن حجر فتح البارى ص ٣١٨ .

(٤) ابن حجر الإصابة جـ ٤ ص ٤٠٧ .

وعندما شدد معاوية على الأعلام من أبناء الصحابة فى أخذ البيعة لابنه يزيد سنة ٥٦ هـ ودعا بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد إن حدث به حدث الموت وأراد أن ينالها فى حياته قسرا وتحت أسنة سيوفه وعسكره إلا أن عبد الرحمن بن أبى بكر وعبد الله بن الزبير والحسين بن على شكل ثلاثتهم جبهة متماسكة لرفض تلك الخطوه التى لا عهد لدولة الإسلام بها من قبل. فعن عبد الله بن نافع (قال) خطب معاوية فدعا الناس إلى بيعة يزيد وكلمه الحسين وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر فقال له عبد الرحمن « أهرقلية كلما مات قيصر كان قيصر مكانه والله لا نفعل ذلك ابداً فما الخيار أردتم لأمة محمد » وأراد معاوية أن يستميل عبد الرحمن فبعث إليه سنة ٦٠ هـ بمائة ألف ، فردَّها وقال : لا أبيع دينى بدنياى . وخرج إلى مكة ومكث بها بقية حياته (١) .

أهم سجايا عبد الرحمن : قد ظهر عبد الرحمن بسجايا الكمال والخلق الراقى والخصال الحميدة . فكان عاقلاً رزيناً شجاعاً غير هياب صادق القول عفيفاً . قال عنه الزبير بن بكار : كان عبد الرحمن رجلاً صالحاً لم يجرب عليه كذبة قط ، وكانت فيه دعابة مستحسنة أشد استحسان (٢) وقد نفله (٣) عمر بن الخطاب ليلى ابنة الجودى وكان أبوها عربياً من غسان أمير دمشق وكان عبد الرحمن قد رآها قبل فتح المدينة فأحبها وشبب بها بعد أن أعجب بها وقال فيها أشعاراً عقب مشاهدته إياها وحولها ولائد ومنها :

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠٨ . وقد قيل إن معاوية أوصى يزيداً خيراً بالحسين وعبد الرحمن : أما حسيناً إن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له حقاً عظيماً أما ابن أبى بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم فلا تتعرض له . طبرى جـ ٥ ص ٣٢٢ .

(٢) ابن خلكن وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٠٣ .

(٣) أعطاه من الأنفال - الغنائم - (٨) .

تذكر ليلى والسماوة بيننا　　فما لابنة الجودى ليلى وما ليا

وإنى تلاقيها بلى ولعلها　　إن الناس حجوا قائلاً إن توافيا

فلما سمع عمر هذا الشعر ، قال لأمير الجيش : إن ظفرت بليلى فادفعها لعبد الرحمن . ولما وقعت فى أيدى الجند بعد فتح دمشق فسلموها لابن أبى بكر [١] وقد قيل إن عبد الرحمن قد آثرها على زوجاته مما أثار غيرتهن ، فشكينه إلى أخته عائشة فلامته وطلبت منه أن يعدل بينهن فلم يفد ذلك بل زاد من شغفه بها [٢] وتشاء الأقدار أن تخمد جذوة تلك العاطفة المشبوبة فجاءت ليلى الدمشقية إلى أم المؤمنين عائشة تشكو جفاء عبد الرحمن لها فقالت عائشة قولتها المشهورة لأخيها : « أفرطت فى الأمرين » [٣] .

وفاته : وقد توفى أكبر أبناء الصديق الذكور عبد الرحمن سنة ثلاث وستين من الهجرة حيث مات فجأة بموضع يقال له الحبشى - على نحو عشرة أميال من مكة وحمل إليها حيث دفن بها [٤] وفى رواية « أنه مات بعد نومة نامها ولما اتصل خبر وفاته إلى أخته السيدة عائشة ظعنت من المدينة وخرجت حاجّة فوقفت على قبره فبكت عليه وأنشدت أبيات متمم بن نويرة فى أخيه مالك وتمثلت قوله :

وكنا كندمانَىْ جزيمة حقبةً　　من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تحرقنا كأنى ومالكا　　لطول اجتماع لم نبت ليلةً معا

ثم قالت : أنا واللّه لو حضرتُك لدفنتك حيث متَّ مكانك ولما بكيتك [٥] .

---

(١) ابن خلكان / المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٤ .

(٣) الاستيعاب جـ ٤ ص ٤٠١ .

(٤) ابن عبد البر المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٠١ .

(٥) ابن سعد / الطبقات جـ ٤ ص ٨٧

وهكذا انطوت صفحة ثبت جليل من عصر زاهر مجيد . ملئت بشمائل موروثة وخصال طبعت مع الإسلام فى سجل أيامه ، فرسخت فى سجاياه التى تمتع بها فى حياته . ونقشت بالفضائل التى لم تنكرها له أسفار التاريخ . وشأن كل ما عمل فى دنيا الناس يلقاه يوم العرض والحساب عندما يقدم كل مسلم ديوانه الذى يلقاه منشوراً .

* * *

(٤) عبد الله . كاتم سر والده أبى بكر :

زينة البيت البكرى العريق فى تاريخ الإسلام وواسطة عقده وأثير حب والده الصديق وكاتم أسراره على كل حال عبد الله بن أبى بكر . فارس أيام الهجرة ونجمها المجلى حيث كان « صاحب الرسائل المكتومة » التى كان يحتفظ بها عبد الله ويظل صامتا حتى يأتى أباه ومعه النبى ﷺ فى الغار [١] وأمه وأم أسماء واحدة هى السيدة قتيلة بنت عبد العزى من بنى عامر بن لؤى وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام ولم يسمع له بمشهد إلا بشهود الفتح وحنيناً والطائف [٢] . وكانت فيه شجاعة وأدب ورقة وله شعر حسن يروى بعضه فى زوجته المطلقة « عاتكة بنت زيد » وقصته معها من أدلّ أخبار هذه الأسرة على شعور أبى بكر بالأبوة والزوجية والواجب فى وقت واحد وأن المغالبة بين الرحمة والواجب فى نفسه كانت مغالبةً سجال [٣] . وكانت عاتكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والفطنة وكان عبد الله بها معجبا فشغلته عن أموره . فقال له أبوه أبو بكر : « طلقها » فطلقها . ثم ندم على فراقها وكان من شعره فيها :

أعاتِكُ لا أنساكِ ما ذرَّ شارق ... وما لاحَ نجم فى السماء مُحَلِّقُ
أعاتك قلبى كل يوم وليلة ... لديكِ بما تُخْفِى النفوسُ معلّقُ

---

(١) للمزيد من موقف عبد الله يوم الهجرة راجع سيرة بن هشام جـ ١ ص ١٠٠ .

(٢) الاستيعاب جـ ٢ ص ٢٥٨ . (٣) العقاد . عبقرية الصديق ص ١٧٧ .

لها خلــق جــزل ورأى ومنصبٌ وخلــق سوى فى الحياء مصدّقُ
ولم أر مثلى طَلّقَ اليــوم مثلها ولا مثلها فــى غير شئ تُطَلّقُ

فرقّ له أبو بكر فأمره بمراجعتها فراجعها ومات وهى عنده (١) . وهكذا تكون رحمة الأبوه وحدب الأصفياء الذين لا تغلبهم القسوة عن النظر إلى شئون أبنائهم الخاصة . وصدق من قال فى هذا الموقف الدقيق « كان أبو بكر نموذجاً مقابلاً لنموذج عمر فى هذه الناحية من الخلائق والوشائج القلبية كما كان نموذجاً مقابلاً له فى خلائل شتى ووشائج أخرى ؛ إذ كان عمر ينعى على ولده أنه عجز عن فراق امرأته » (٢) .

● خدمته لثانى اثنين فى الغار :

وقد كان عبد الله صاحب المهمة الرائعة التى كلفه بها أبوه الصديق حينما أعد الأمر لخروج النبى ﷺ إلى يثرب المدينة فى ليالى الهجرة المباركة . وقد وقع اختيار أبى بكر على ابنه عبد الله لمعرفته بتلك السجايا والمواهب التى أودعها الله فيه حيث أبصر أبو بكر فى ابنه « الفطنة والكياسة والاتزان والتعقل فأبلغه بما يقوم به وحرصه على التكتم والخفاء وذكره بالحديث « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » فكان عبد الله على بصيرة ووعى ومعرفة بما سيقوم به وما كلف أداؤه مع أخته أسماء وعامر بن فهيرة (٣) وكان ثلاثتهم خير عون وسند لنجاح الخطة التى دبرت بإحكام وفق دراسة متأنية من أبى بكر . فلما مضى من صفر ثلاثة أيام سنة ثلاث عشر من البعثة خرج النبى ﷺ فى يوم الاثنين ليلاً حتى أتى أبا بكر ومضيا حتى دخلا غار ثور – وهو جبل بأسفل مكة – وكانت هناك ترتيبات موفقه ، من ذلك :

---

(١) ابن حجر الإصابة جـ ٢ ص ٢٨٣ .
(٢) عبقرية الصديق ص ١٧٨ .
(٣) ابن الأثير أسد الغابة جـ ٣ ص ٣٠٠ .

(١) خرج أمر إلى الدليل أن ينتظر النبى وصاحبه بعيداً عن الغار .

(٢) أمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس من نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر . كما كانت أسماء تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما . وأخذ عامر بن فهيره بريح غنمه عند الغار إذا أمسى فيشربان من لبنها بعد أن تكون أسماء قد أتت بالطعام ثم إذا أصبح يتبع أثر عبد الله وأسماء بالغنم يعفى عليه . وكان عبد الله يأتى النبى وأباه بأخبار قريش إذ هما فى الغار كل ليلة فيبيت عندها وهو شاب فيخرج من عند قريش فى السحر فيصبح مع قومه فلا يسمع أمرا يُكادان به حتى يأتيهما بخبر ذلك إذا اختلط الظلام [1] كانت هذه المهمة السامية التى قام بها عبد الله بن أبى بكر تحتاج إلى شجاعة وصبر وقوة جنان وهى من مفاخره حيث كان السر بحدوده وأعماقه ونتائجه كامنا فى حنايا صدر ابن أبى بكر لا يبوح به لأحد قط فكأن ذلك الشاب الموفق السديد قد استحضر قول القائل :

لا يكتـم السـر إلا كل ذى ثقة والسر عنـد خيار الناس مكتوم

فالسر عنـدى فـى بيت له غلق ضاعت مفاتيحـه والباب مختـوم

وكان عبد الله يقوم بأمر بيت أبى بكر فى غيابه أثناء مراحل الهجرة إلى المدينة فتولى رعاية زوجة أبيه أم رومان وأخته عائشة . يقول الطبرى إن ابن أريقط الدئلى - الذى كان دليل النبى ﷺ لما رجع بعد أن أوصل النبى وصحبه إلى المدينة جاء إلى مكة وأخبر عبد الله بن أبى بكر بوصول أبيه وأنه يطلبه . فخرج عبد الله بعيال أبى بكر وصحبهم فى انتقالهم إلى دار الهجرة طلحة بن عبيد الله حتى قدموا المدينة [2] .

---

(١) ابن الأثير المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ١ ص ١١٧ .

وفاته : وقد شهد عبد الله مع النبى ﷺ حصار مدينة الطائف عام ثمانية من الهجرة [1] حيث احتمى فى حصونها رجال ثقيف الأحياء خوفاً من متابعة القوات الإسلامية التى كانت تطادرهم أنى ذهبوا حتى قتل من قتل وأسر من أسر وفر من فر إلى تلك الحصون العالية ، وغلقت ثقيف أبواب تلك الحصون بعد أن تزودت بكل ما تستطيع من مؤنة وسلاح وأخذت أهبتها لحصار طويل [2] وكان رجال ثقيف ذوى خبرة بقتال الحصون فأجمعواأمرهم على الدفاع عن حصونهم بكل قواهم . وعندما انتهى الرسول ﷺ إلى الطائف حاصرهم بضعاً وعشرين ليلة وقاتلهم قتالاً شديداً وتراموا بالنبل واشتد الحصار وقد أمطر الرماة من ثقيف المسلمين وابلا من السهام فقتلت طائفة من المسلمين منهم عبد الله بن أبى بكر [3] إذ رماه أبو محجن الثقفى بسهم فى تلك الواقعة فأصابه فتوفى متأثرا بجراحه عام إحدى عشر من الهجرة / ٦٣٢ م [4] . وقيل إن عبد الله قد حمل من أرض ثقيف بعد إصابته فدمل جرحه ثم انتفض فمات فى خلافة أبيه فى شوال من السنة الحادية عشر من الهجرة . وذكر الحاكم بسنده أن أبا بكر قال لعائشة : أتخافون أن تكونوا دفنتم عبد الله بن أبى بكر وهو حى فاسترجعت (*) ، فقالت : أستعيذ بالله . ثم قدم وفد ثقيف فسألهم أبو بكر : هل فيكم من يعرف هذا السهم ؟ قال سعيد بن عبيد : أنا بريته ورشته وأنا رميت به . ومات عبد الله بعد رسول الله ﷺ بأربعين يوماً [5] أما وصيته قبيل موته فقد أعلنها عندما شعر بتأثير تلك الجراحة السارية قال لزوجته عاتكة بنت زيد بن عمر أخت سعيد بن زيد : لك حائطى[6]

(١) الموافق سنة ٦٣٠ م .

(٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٨٢ .

(٣) ابن كثير السيرة جـ ٤ ص ٥٠١ .

(*) قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية جـ ١ ص ٥٩٧ .

(٥) ابن عبد البر الاستيعاب جـ ٢ ص ٢٥٨ .

(٦) الحائط هو البستان .

ولا تتزوجي بعدى ، فأجابته إلى ذلك . فلما انقضت عدتها خطبها عمر فعاتبه فى ذلك على بن أبى طالب [1] وكان عبد الله قد ابتاع الحلة التى أرادوا دفن الرسول ﷺ فيها بتسعة دنانير ليكفَّن بها وكانت بردة حبره فأمسكها عبد الله ليكفن هو فيها : فلما حضرته الوفاة قال : لا تكفنونى فيها فلو كان فيها خير لكفن فيها رسول الله ﷺ وما كنت لأمسك شيئاً منع الله رسوله منه . فتصدق بها [2] وقد استشهد عبد الله فى أول خلافة أبيه - كما يقول ابن الأثير « ودفن بعد الظهر وصلى عليه أبوه ونزل فى قبره عمر وطلحة بن عبيد الله وأخوه عبد الرحمن بن أبى بكر . فكان رحمه الله من شهداء الطائف (قال) المرزبانى إن عبد الله أصابه حجر فى حصار الطائف فمات شهيداً [3] وهكذا طويت صفحة ذلك الرجل البار الذى نال الحظوة الإلهية فسقط صريعاً فى ساحة من معارك الكرامة . فشرفت صفحات الجهاد فى سبيل الله أن تضم اسمه فى سجلات الإعزاز والمفاخر الخالدة لدولة الإسلام وفى غضون عصر النبوة الزاهر الذى لا ينفد أريجه أبداً .

(٥) والى الخليفة الرابع على مصر : محمد بن أبى بكر :

آخر أبناء أبى بكر الذكور ولده والذى نشأ صالحاً ذاكراً طيب المعشر حلو الحديث مؤثراً حياة العلماء وملازمتهم فى بداية حياته فى خلافتى أبى بكر وعمر فنال لقب « عابد قريش » [4] ولم يدخل محمد فى ضروب السياسة ودهاليز الإمارة إلا فى عصرى عثمان وعلى وقد برز اسمه وتناقلت صفحات التاريخ تلك الأحداث الدموية التى كان محمد بن الخليفة الأول طرفاً فيها . وقد جلل السواد - ويالأسف - موقفه من أحداث الفتنة الكبرى التى راح ضحيتها الخليفة الثالث اللين الطيب عثمان بن عفان .

---

(١) ابن حجر / الإصابة جـ ٢ ص ٢٨٤ . (٢) المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(٣) أسد الغابة جـ ٣ ص ٣٠٠ . (٤) المسعودى / مروج الذهب جـ ١ ص ٢٤٨

نشأته الأولى : أمه السيدة أسماء بنت عميس والتى اشتركت بجهودها المشكورة فى الأعمال الاجتماعية البارزة والتى لها خبرة مميزه فى بعض الأمور التى تحجم النسوة فى عصرها عن المساهمة فيها مثل مساعدة المرأة التى تعانى آلام المخاض أثناء ولادتها ، أو تجهيز أخرى فى يوم عرسها ، فضلا عن الثواب الأوفى المكتسب من قدرتها على الفهم الدينى فى تغسيل النسوة المتوفيات فى هذا الدور الإنسانى العظيم الذى لا ينكر لتلك المرأة التى تزوجها الصديق أبو بكر بعد أن ترملت عن زوجها الشهيد جعفر بن أبى طالب وهى التى بايعت النبى ﷺ على الإسلام وهو لم يزل فى دار الأرقم بن أبى الأرقم بمكة . وقد سبق لها الهجرة مع زوجها الأول إلى الحبشة وضربت المثل الرائع على الصبر والتجلد بعد استشهاده فى غزوة مؤتة (١) وبعد أن تزوجها الصديق أنجبت له محمداً فى حجة الوداع وقت الإحرام حيث ولد بين المدينة ومكة ونفست فيه بذى الحليفة فأمرها أبو بكر أن تغتسل ثم تهل بالحج (٢) وقد اهتمت السيدة أسماء بابنها محمد بن أبى بكر وقد آثرته بالرعاية وكامل الإعزاز فعنيت بسلوكياته وانصتفت له كثيراً عندما تحتدم الخلافات بينه وبين أخوته من أمه الذين كانوا يقولون له « أبونا أفضل من أبيك » فكانت تصدهم وتسترضيه (٣) وقد اكتسب محمد من أبى بكر ومنها المرءوة والنبل والقوة والكرم والعديد من الصفات الجليلة ثم تركاه مع خضم الأيام - خاصه بعد

---

(١) ياسين بن فضل الله العمرى . الروضة الفيحاء بتصرف من ١٨٢ - ١٨٥ .

(٢) ابن سعد / الطبقات جـ ٥ ص ٢٨٢ .

(٣) المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٨٣ ، وقيل إنه بعد وفاة أبى بكر تزوجها على بن أبى طالب وتفاخر ابناها محمد بن أبى بكر ومحمد بن جعفر فقال كل منهما أنا أكرم منك وأبى أكرم من أبيك فقال لها على : اقضى بينهما قالت ما رأيت شابا من العرب خيراً من جعفر ولا رأيت كهلاً خيراً من أبى بكر . فقال على : ما تركت لنا شيئاً ولو قلتِ غير هذا لمقتك . الذهبى / سير أعلام النبلاء جـ ٨ ص١٨٥ .

موت أبى بكر - حبله على غاربه . وقد تباهى محمد « أن النبى ﷺ قد حمله بين يديه وهو لم يزل صغيراً فكان يقول لأسامة بن زيد : « حملنى رسول الله ﷺ بين يديه وحملك أنت وراءه » (١) .

● مع أحداث الفتنة فى عصر عثمان :

وعندما شب محمد بن أبى بكر عن الطوق ولاَّه عثمان بن عفان أمر مصر ثم خرج عليه عندما أقنعه بعض الانتهازيين بما تراءى لهم من تجاوز الخليفة فى بعض الأحكام والاجتهادات الإسلامية مخالفاً بذلك ما كانت عليه مناهج العصرين السابقين فى أيام أبى بكر وعمر . وظهرت تلك المثالب على عثمان فى موقعة ذات الصوارى سنة ٣١ هـ وكان أول ما تكلم به محمد بن أبى بكر منضماً إلى ربيب عثمان محمد بن حذافة الذى أظهر الحقد على الخليفة الذى لم يعينه فى منصب الإمارة فتغير عليه (٢) وجعل ابن أبى بكر وابن حذافة يقولان « استعمل عبدَ الله بن سعد رجلاً كان رسول الله ﷺ قد أباح دمه ونزل القرآن بكفره ونزع أصحاب رسول الله ﷺ واستعمل سعيد بن العاص وابن عامر ، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد بن أبى سرح فقال « لا تركبا معنا » فركبا فى مركب ما فيه أحد من المسلمين ولقوا العدو وكانا أنكل المسلمين قتالاً . فقيل لهما فى ذلك ؟ فقالا : كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد ؟ استعمله عثمان ، وعثمان فعل كذا وكذا ؟! فأرسل إليهما عبد الله ينهاهما أشد النهى وقال : والله إنى لو أدرى ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما (٣) . وقيل فى سبب بغض محمد بن أبى بكر وهو الأثير عند عثمان تجاه الفئة الضالة فى إحفاظه وخروجه على سلطان عثمان وتوالت الأنباء على تأليب ابن أبى بكر العامة فى مصر ضد

---

(١) الروضة الفيحاء ص ٣٨٦ .
(٢) تهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ٤٣٣ .
(٣) الطبرى / جـ ٣ ص ٣٤١ ، ٣٤٢ .

الخليفة فألزمه حق وأخذ ابن أبى بكر من ظهره ولم يدهن فعزله وعين بدلاً منه عبد الله بن سعد . فقامت فى نفس محمد بن أبى بكر عوامل الغائلة والنقمة على عثمان فاجتمع مع محمد بن أبى حذيفة الذى ألفت بينهما الكراهية للخليفة عثمان فأظهرا العيوب والعورات (١) وعندما رجع ابن أى السرح من حرب الروم ثار ابن أبى حذيفة بن عتبة وسرب المصريين إلى عثمان فحصروه (٢) منتهزاً فرصة استدعاء عبد الله إلى المدينة لمواجهة عثمان . وعندما ثارت الفتنة الكبرى واتسّع الخرق على الراتق وعاث بعض الولاة الذين عينهم الخليفة عثمان على الأقاليم وكثرت المظالم واجتمعت كلمة الثوار على الخروج إلى المدينة فى غيبة عمالها ولكن ذلك لم يتهيأ لهم فأظهروا نيتهم فى الحج . فانسل جم من مصر والكوفة والبصرة بين الستمائة والألف رجل جمعهم هدف واحد هو الإصلاح ولا بديل عندهم عن عزل هؤلاء الولاة الذين عينهم عثمان على أقاليمهم وإلا فعزله هو ومن تبعه . وتوافوا خارج المدينة ودار الحديث بينهم فيمن يخلف عثمان من الصحابة ؟ فاختلفوا : فكان هوى أهل البصرة فى طلحه بن عبيد الله ، ومال أهل مصر وعلى رأسهم محمد بن أبى بكر فى على بن أبى طالب الذى حدب عليه بعد أن تزوج أمه أسماء بعد وفاة أبيه (٣) ولما علم عثمان بأمر تلك الجماعات التى دخلت المدينه ومطالبها خطبهم فى اقتضاب وأظهر لهم النزوع إلى ما يشتهون والرجوع . فارتاح الناس وهمّوا إلى الرجوع لأمصارهم ، ولكن مروان بن الحكم دس كتاباً على لسان عثمان وبخاتمه إلى والى مصر يأمره بالقبض على هؤلاء النفر وحبسهم ثم قتلهم بعد ذلك ولاحظ أهل مصر ومعهم ابن أبى بكر بهجين سريع فلحقوا به فوجدوا

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ٦٩ .

(٢) ابن عساكر جـ ٧ ص ٤٣٣ .

(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٥٥٨ .

وانصرف بريد العراق فى الوقت الذى دارت فيه مراسلات بين معاوية ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن خديج الكندى الذين نزلا أرض مصر بعد أن خالفا عليا وغضبا لله وطالبا بدم عثمان . فنجح والى الشام معاويه فى ضمهما إلى صفوفه بعد أن استمالهما بأمور دينية واعتبارات دنيوية ذكرها لهما [١] وسار عمرو بن العاص إلى مصر « مطمحه الثمين » فى ستة آلاف نفر حتى نزل أدانى أرض مصر فاجتمعت إليه العثمانية وكان ابن خديج على الخارجة فأحاطوا بأصحاب محمد بن أبى بكر بالفسطاط [٢] فبعث عمرو إلى والى مصر ابن أبى بكر بكتاب قال فيه « أما بعد فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر ، إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك . وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها يا ابن أبى بكر فانى لك من الناصحين » [٣] وقد تزامن وصول تلك الرسالة إلى والى مصر محمد بن أبى بكر مع ما بعثه معاوية من كتاب من الشام ضمنه اتهاماته إياه فى حق عثمان . ومما قاله « أما بعد فإن غب البغى والظلم عظيم الوبال وإن سفك الدم الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة فى الدنيا ومن التبعه الموبقة فى الآخره . وإنا لا نعلم أحدا كان أعظم على عثمان بغيا ولا أسوأ له عيبا ولا أشد خلافا منك : سعيت إليه فى الساعين . ثم انت تظن إني عنك نائم حتى تاتى فتأمر على بلاد أنت فيها جارى وجل أهلها أنصارى يرقبون قولى ويستصرخون عليك . وقد بعثت إليك قوما حناقا سيستقون دمك ويتقربون إلى الله بجهادك وقد أعطوا الله عهداً ليمثلن بك » [٤] .

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٣ ص ٥٦٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٣ .
(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٥٦٠ .
(٤) المسعودى مروج الذهب جـ ٢ ص ٧ ، ٨ .

ولما تتابعت الرسائل على دار الامارة بمصر أسرع محمد بن أبى بكر بإرسال تلك الرقاع إلى الامام على بالكوفة ويطلب منه الإسراع بأن يمده بجند الخلافة ليواجه بهم قوات عمرو الزاحفه نحو الفسطاط من أرض الشام [١] .

● مقتل محمد بن أبى بكر :

ولما استبطأ محمد المدد أعد قوة مصرية قوامها ألفين من الرجال يتقدمهم كنانة بن بشر « وخرج بهم ابن أبى بكر لصد جيش الشام واقتتلوا قتالا شديدا فى مكان يسمى « المسناه » [٢] وقدّم ابن بشر من ضروب الإقدام والدفاع حتى ظفرت به جند عمرو بعد قتال عنيف [٣] وعند ذلك تفرق أصحاب محمد عنه وخلفوه وحده واضطر إلى الفرار بعد ان انهزم اهل مصر ، وذخل عمرو الفسطاط يبحث له عن مكان يأوى إليه حتى انتهى ابن أبى بكر إلى خربة واستتر بها وذلك فى شهر ربيع الأول سنه ٣٨ هـ[٤] وخرج ابن خديج فى طلب محمد حتى عثر عليه بعد أن دلت عليه امرأة قبطية وقبض عليه ابن خديج وجاء به إلى عمرو بن العاص بعد أن أخرجه وقد كاد محمد أن يموت من العطش [٥] وقام عبد الرحمن ابن أبى بكر وقال أتقتلون أخى ؟ كما طلب منهم أن يبقوا عليه إلا ان العثمانيه رفضوا طلبه جزاء بما فعل بعثمان من قبل . وقال محمد لابن خديج السكونى « احفظونى فى أبى بكر » إلا أن معاوية المذكور قال « قتلت ثمانين فى دم الشهيد عثمان وأتركك وأنت صاحبه ؟! » فقتله ودسه فى بطن حمار ميت وأحرقه[٦]

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٩ .

(٢) بريف مصر .

(٣) الكندى مرجع سابق ص ٢٩ .

(٤) الذهبى . أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٤٨٢ .

(٥) المرجع السابق ص ٤٨٣ .

(٦) ابن تغرى بردى / النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١١١ .

وقيل إنه اتى بمحمد أسيراً إلى عمرو بن العاص بالفسطاط فقتله به ، يعنى بعثمان [١] ، فلما رأته نائلة امرأة عثمان تهللت وقالت « أدركت ثأرى من ابن الخثعمية » تعنى محمد بن أبى بكر [٢] ثم قطع رأسه وأرسله إلى معاويه ابن أبى سفيان بدمشق وطيف به وهو أول راس طيف به فى الاسلام [٣]. أما الكندى فيورد لنا رواية مؤداها ان محمد بن أبى بكر قتل ولم يحرق ودفنت جثته مع رأسه فى مسجد يعرف بمسجد « زمام » خارج مدينه الفسطاط . قال ابن سعيد : وقد زرت قبره فى الفسطاط [٤] . ولما علمت أم المؤمنين عائشه بتلك الأخبار التى انتهت بمقتل أخيها محمد على يد عسكر معاويه وعمرو قنتت عليهما دبركل صلاة وضمت عيال محمد إليها حيث كان له ولدان صغيران فتكفلت برعايتهما حتى كبر ابنه القاسم وشب وأصبح من فقهاء المدينة فى عصره [٥] .

أما على فلم يوفق لإخراج الجنود لإغاثه محمد بن أبى بكر إلا بعد شدة وقد انتدب له القان ولم يسيروا قليلا حتى جاء الخبر بمقتل واليه محمد ووقوع مصر فى يد معاوية فارسل إلى القوم مَن ردّهم من الطريق وحزن على ربيبه ابن أبى بكر حزنا كبيرا ولم يجد عليا ما صاغ من الخطب وصنف من القول فى الاستنهاض أفعلمن اغاثه محمد [٦] رحمه الله ابن أبى بكر الأصغر الذى رمى بنفسه وروحه إلى أبعد مدى فى تيارات السياسه التى لم يكن ملما بأغوارها غير مطلع على خبايا نتائج الطموحات المتباعدة التى تردى إلى المهالك . ودفع محمد الثمن حياته وهى أغلى ما يمكن أن يقدمه إنسان لا يدرك - من وراء اغترازه بالمعايش والأمانى - إلا موضع قدمه .

---

(١) أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٤٨٣ .

(٢) الولاة والقضاة ص ٣٠ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١١١ .

(٤) الولاة والقضاة ص ٣١ .

(٥) ابن ظفر / أنباء نجباء الأبناء ٢٥٨ .

(٦) النجار . الخلفاء الراشدون ص ٤٥١ .

(٦) ابنة الصديق التى لم يرها . أم كلثوم :

شاءت الأقدار أن لا يرى أبو بكر الصديق تلك البضعة الطيبة من نسله والتى ولدتها امها حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبى زهير سنه ١٣ هـ بعد وفاته . وكان رحمه الله قد تزوجها فى الاسلام بالمدينه من قومها من بنى الحارث من جماعة الخزرج أنصار الرسول ﷺ وهى آخر نسائه بعد قتيلة وأم رومان وأسماء بنت عميس رضى الله عنهن جميعا [١] .

وقد أوصى الخليفه أبو بكر أم كلثوم خيراً وهى لم تزل جنينا فى بطن أمها - عند أخواتها الثلاثه عبد الرحمن وعائشة وأسماء ، وخص ام المؤمنين عائشة بتنفيذ وصية خاصة بما أقطعها من أرض بالعالية من أموال بنى النضير وكان فيها بئر حجر كان النبى ﷺ قد أعطاها لأبى بكر . فأصلح أبو بكر تلك الأرض وغرس فيه وديا ثم نحلها لعائشة . وعندما قرب الاجل طلب منها ان تردها على أخوتها حتى تكون داخلة فى قسمة الميراث [٢] بل وجعل لأم كلثوم نصيبا مفروضا فيها يعطى لها بعد ولادتها . اخرج مالك عن عائشه « أن أبا بكر نحلها جدار عشرين وسقا من ماله بالعاليه » . فلما حضرته الوفاة قال « يا بنية والله ما من الناس أحد أحب إلىّ غنى منك ولا أعز علىّ نفراً بعدى منك ، وإنى كنت نحلتك جدار عشرين وسقا فلو كنت جددته واحترزته كان لك . وإنما هذا اليوم مال وارث وإنما هو أخواك وأختاك فاقسموه على كتاب الله » فقالت « يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته إنما هى أسماء فمن الأخرى ؟ » قال « ذو بطن ابنة خارجة [٣] فقد ألقى فى روعى أنها جارية ، فاستوصى بها خيرا » [٤] .

---

(١) الطبرى / مرجع سابق جـ ٣ ص ٤٤٤ . (٢) طبقات ابن سعد / جـ ٣ ص ١٩٥ .

(٣) يريد ما فى بطن امرأته ابنة خارجة فولدت أم كلثوم المترجم لها .

(٤) ابن سعد / طبقات جـ ٣ ص ١٩٦ .

وقد سميت ابنة أبى بكر الصغرى بأم كلثوم تيمنا بهذاالاسم الكريم الغالى « أم كلثوم » ابنة المصطفى الاكرم ﷺ والتى توفيت فى حياة أبيها سنة ٩ هـ وكانت عند عثمان ذى النورين بالمدينة .

علمها : وقد كانت السيدة عائشة أم المؤمنين توالى أختها الصغرى أم كلثوم بالرعاية المستوجبة وتقدم لها أعظم المواساة والبر وحسن التلطف والتثقيف الملائم لمواهبها التى أودعها الخالق فى مكنون نفسها « فبرزت أم كلثوم بنت أبى بكر فى دقائق الفقه ورواية الحديث حتى تفوقت فى تتبع الروايات وقد مكنتها قوة الحافظة من أن تبز كل من كان فى سنها وكانت مأمونة ثقة حجة فى علمها تحلت بحلة التقوى كما اتصفت بكريم الصفات وجميل الشمائل (١) فقد روت أم كلثوم العديد من الأحاديث الصحيحة والتى حفظتها ونقلتها عن أختها ومعلمتها أم المؤمنين عائشه «كما روى عنها ابنها ابراهيم بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبى ربيعه وجابر بن عبد الله الانصارى وطلحة بن يحيى بن طلحه والمغيرة بن حكيم الصنعانى ولوط بن يحيى وجبير بن حبيب وعبد الله بن عبيد بن عمير وروى لها مسلم والترمذى فى صحيحيهما (٢) وكانت أم كلثوم تأتنس فى مجالسة فقيهات عصر الاسلام الزاهر - سوى عائشة - ممن لهن شهرة فى العلوم وتفرد فى سجايا العقل والفطنة والرأى والتجربة والحكمة فى مقدمتهن أسماء بنت أبى بكر وأم سلمة وحفصة بنت عمر وفاطمه بنت قيس وأم سليم وأم عطيه وأم شريك (٣) وغيرهن ممن قامت الحجة بتعلمهن وثبت موفور علمهن .

---

(١) ابن الربيع الشيبانى / تيسير الوصول ص ٣١٧ .

(٢) ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ١٨٥ .

(٣) الشيبانى / المرجع السابق ص ٣١٧ .

• حياتها :

ومما ينقل واشتهر أمره أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أراد خطبه أم كلثوم بنت أبى بكر إلا إن تلك الزيجه لم تتم لأن السيدة عائشه تراءى لها أن شده عمر وميله إلى التبسط فى المعايش مما لا يقنع بنتا صغيرة فى مقتبل آمال الحياة مثل أم كلثوم . فعدل الفاروق عن خطبته لابنة أبى بكر الصغرى . وتفصيل ذلك ما نقله ابن حجر فى موسوعته الإصابة « وذلك أن رجلا من قريش قال لعمر بن الخطاب : ألا تتزوج أم كلثوم بنت أبى بكر فتحفظه بعد وفاته وتخلفه فى أهله ؟ قال عمر : بلى إنى لأحب ذاك فاذهب إلى عائشه فاذكر لها ذلك وعد إليَّ بجوابها . فمضى الرسول إلى عائشه فأخبرها بما قال عمر فأجابته إلى ذلك وقالت له حبا وكرامه . ودخل عليها بعقب ذلك المغيره بن شعبه [1] فرآها مهمومة فقال لها : مالك يا أم المؤمنين ؟ فأخبرته برسالة عمر وقالت : إن هذه جاريه حدثة وأردت لها ألين عيشا من عمر . فقال لها المغيره : عليَّ أن أكفيك » وخرج من عندها فدخل على عمر فقال : بالرفاء والبنين قد بلغنى ما أتيته من صلة أبى بكر فى أهله وخطبتك أم كلثوم . فقال عمر : قد كان ذاك . فبادره المغيره قائلا « إلا انك يا أمير المؤمنين رجل شديد الخلق على أهلك وهذه صبية حديثة السن فلا تزال تنكر عليها الشئ فتضربها فتصبح فيغمك ذلك فتألم له عائشة ويذكرون أبا بكر فيبكون عليه فتجدد لهم المصيبة مع قرب عهدها فى كل يوم . فقال له عمر : متى كنت عند عائشة واصدقنى ؟ فقال : آنفا. فقال عمر اشهد أنهم كرهونى فتضمنتَ لهم أن تصرفنى عما طلبت وقد أعفيتهم[2]

---

(١) المغيرة أحد دهاة العرب المعدودين .

(٢) وفى رواية ينقلها ابن الأثير عن طريق آخر أن عمر خطب أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق إلى عائشة . فقالت أم كلثوم ، لاحاجة لى فيه ؛ إنه خشن العيش شديد على النساء . فأرسلت =

فعاد المغيرة إلى عائشه فأخبرها بالخبر وأمسك عمر عن معاودة خطبة أم كلثوم (١) .

وبرزت السيده أم كلثوم التى كانت من فضليات عصرها فى العديد من الاسهامات الاجتماعية . فضلا عن الادلاء بالآراء الاجتهادية الموثوق بصحتها وذلك فى مدينه رسول الله ﷺ « فكان بيتها مقصد النساء من عصر التابعين ممن وجدن غايتهن فى الانصات لعلمها وفقهها وفتاويها فتمتعن بفيوض زادها العلمى ومنحتهن برحيق روضها الرائق فى مقدمتهن حبيبة بنت ميسرة وهند الفراسيه والرباب وفاطمة بنت المنذر وغيرهن من الرضيات الموقنات (٢) وقد عاشت أم كلثوم بنت أبى بكر موفوره الكرامة دينة مقدرة لدى الخلفاء فى الاعصر المتتابعه لايام عمر وعثمان وعلى وما تلى ذلك من متابعة أحداث بنى أمية فى الحجاز . « كانت أم كلثوم بارة بأهلها خاصة أحفاد أبى بكر مظهرة لهم جميعاً كريم نجدتها ومروءتها وصدق مواساتها وإشفاقها على من تدهمه الأيام بعواديها (٣) .

= عائشة إلى عمرو بن العاص وشكت له . فقال أنا أكفيك هذا الأمر فأتى عمر فقال : بلغنى خبرا أعينك الله منه . قال : ما هو ؟ قال أخطبت أم كلثوم بنت أبى بكر ؟ قال نعم أفرغبت بى عنها . أم رغبت بها عنى ؟ قال ولا واحدة . ولكنها حدثة نشأت فى كنف خليفة رسول الله فى لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما تقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك فى شئ فسطوت بها ؟ قد خالفت أبى بكر فى ولده بغير ما يحق عليك . قال عمر : فكيف بعائشة وقد كلمتها ؟ قال عمرو بعد أن أحكم أمره : أنا لك بها . فتراجع عمر وأمسك عن مخاطبة عائشة فى شأن أم كلثوم . الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(١) الإصابة جـ ٤ ص ٣١٧ .

(٢) ابن قتيبه / المعارف جـ ٢ ص . ١٥٠ .

(٣) راجع تيسير الوصول ص ٣١٨ .

● وفاتها :

وظلت أم كلثوم فاضلة زمانها ، تصل رحمها برباط مودتها مسدية النصح منشغلة بشئونهم إلى أن لقيت ربها - راضية مرضية - فى الثامن عشر من شهر رجب الفرد من العام التاسع والتسعين من الهجرة أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز فدفنت بالبقيع بعد أن صلى عليها والى المدينه عدي بن أبى أرطاة [1] وقد اهتمت أم كلثوم فى حياتها بالصالحات من الاعمال التى أهّلتها بحق للخلود فى أعلى الجنان والفوز بمنن الرحمن فرضى الله عنها ورحمها وأمدها بجزيل الأجر جزاء ما قدمت فى دنيا الناس .

* * *

(تم بحمد الله)

---

(١) ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ١٨٥ .

المصادر

١ - ابن الأثير (١٢٣٨/٦٣٠) على بن أحمد بن أبى الكرم . **الكامل فى التاريخ** - ١٢ جزءاً ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

أسد الغابة فى معرفة الصحابة . ط طهران ١٣٧٧ هـ .

تجريد أسماء الصحابة . ط دار المعارف النظامية حيدرآباد الهند ١٣١٥ هـ .

٢ - ابن أعثم الكوفى (١٣٤٥/٧٨١ م) محمد بن أحمد بن أعثم **الفتوح** . ط دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

٢ - البلاذرى (٨٩٢/٢٧٩) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى ، **فتوح البلدان** . ط السعادة مصر ١٩٥٩ م .

٤ - البخارى (٢٥٦ هـ) محمد بن إسماعيل البخارى الجعفى **الصحيح** ط صبيح القاهرة ١٩٥٩ م ، **التاريخ الكبير** ط حيدرآباد ١٣٢٥ هـ .

٥ - ابن حجر . شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن على الكنانى العسقلانى **الإصابة فى تمييز الصحابة** . ط السعادة ١٣٢٣ هـ . **فتح البارى فى شرح صحيح البخارى** ط بولاق القاهرة ١-١٣ هـ ، **تهذيب التهذيب** ط حيدرآباد الدكن ١٣٥٥ هـ .

٦ - ابن حزم (١٠٦٤/١٤٥٦ م (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد ابن حزم الأندلسى **جوامع السيرة** ، ط المعارف مصر ١٩٥٩ م ، **أصحاب الفتية من الصحابة على مراتبهم** ملحق بجوامع السيرة ، أسماء الصحابة الرواة ط المعارف مصر ملحق بجوامع السيرة ، جمهرة أنساب العرب ط دار المعارف مصر ١٩٤٨ م .

٧ - ابن الحنبيلى (١٠٨٩/١٦٨٧) عبد الحى بن محمد الحنبلى . شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ط القاهرة . ١٣٥ هـ .

٨ - ابن الجوزى (٥٩٧/١٢٠٠) عبد الرحمن بن على . أحكام النساء ط القاهرة ١٩٣٤ م .

٩ - جعفر الطبرى (٧٨٧ هـ) جعفر بن أحمد الشهير بالمحب الطبرى الرياض النضرة فى مناقب العشرة ط دار التأليف مصر ١٣٧٣ .

١٠ - ابن أبى الحديد (١٣٠٣/٤٠٤) الشريف الرضى محمد بن أحمد الحسنى **نهج البلاغة** ٤ مجلدات . ط القاهرة ١٣٢٩ هـ .

١١ - ابن خلدون (١٤٠٥/٨٠٨) عبد الرحمن بن محمد « المقدمة » ط بولاق مصر ١٢٨٤ هـ

١٢ - ابن خلكان (١٢٧١/٦٨١) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي وفيات الأعيان ط السعادة مصر ١٣٦٧ هـ .

١٣ - الخزرجي . أحمد بن عبد الله الخزرجي خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال ط الخيرية مصر ١٣٢٢ هـ .

١٤ - الديار بكرى . حسين بن محمد بن الحسن الديار بكرى تاريخ الخميس ط عثمان عبد الرازق مصر ١٣٠٢ هـ .

١٥ - الدينورى (٢٨٢/٨٩٥) حمد بن داوود أبو حنيفة . الأخبار الطوال ط لندن ١٨٨٨ م .

١٦ - ابن دحلان السيد أحمد بن زينى دحلان . الفتوحات الإسلامية ط مصطفى محمد مصر ١٣٥٤ هـ .

١٧ - الذهبى (١٢٤٨/٧٤٨) محمد بن أحمد شمس الدين . تاريخ الإسلام ط القاهرة ١٣٦٧ هـ . سير أعلام النبلاء دار المعارف مصر ١٩٦٢ م ، العبر فى أخبار من غبر ط حكومة الكويت ، تذكرة الحفاظ ط القدس سنة ١٩٣٨ م جزءان .

١٨ - الزيجانى أبى عبد الله محمد الزيجانى تاريخ القرآن ط إحياء الكتب العربية مصر .

١٩ - الأزدى أبى إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدى البصرى فتوح الشام ط دار العهد الجديد ١٣٧٣ هـ .

٢٠ - السجستانى . داود بن سليمان بن الأشعث كتاب المصاحف ط الرحمانية مصر ١٣٥٥ هـ .

٢١ - ابن سعد (٢٣٠/٨٤٥) محمد بن سعد ضبيع الزهرى الطبقات الكبرى دار صادر بيروت ١٩٥٧ م .

٢٢ - السيوطى (٩١١/١٦٠٥) عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ط المنيرية مصر ١٣٥١ هـ .

٢٣ - الشيبانى . ابن الديبع عبد الرحمن . تيسير الوصول إلى جامع الأصول ط السلفية مصر ١٣٤٦ هـ .

٢٤ - الشافعى . على الحلبى الشافعى . السيرة الحلبية ط مصطفى محمد مصر ١٣٨٤ هـ .

٢٥ - الطبرى (٣١٠/٩٢٢) أبو جعفر محمد بن جرير تاريخ الأمم والملوك - الاستقامة مصر ١٩٤٧ م - ذيل المذيل ط الحسينة على هامش التاريخ ١٣١٥ هـ .

٢٦ - طيفور (٢٨٠/٨٩٣) أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر بلاغات النساء ط العلم للملايين ١٩٥٨ .

٢٧ - العصامى : عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل ط القاهرة ١٣٧٩ هـ .

٢٨ - ابن عساكر (١١٧٦/٥٧١) على بن الحسن تهذيب التاريخ الكبير ط العربية دمشق ١٣٣٠ هـ .

٢٩ - ابن عبد البر . أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر الاستيعاب فى أسماء الأصحاب ط نهضة مصر .

٣٠ - ابن قتيبه (٨٨٩/٢٧٦) محمد عبد الله بن مسلم الإمامة والسياسة ط القاهرة ١٣٢٥ الحلبى ، المعارف ط . القاهرة دار الكتب ١٩٦٠ م .

٣١ - ابن القيم الجوزيه (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر زاد المعاد فى خير هدى خير العباد ط الحلبى ١٣٦٩ هـ . روضة المحبين . ذات التحرير مصر ١٣٠٥ هـ .

٣٢ - القلقشندى (١٤١٨/٨٢١) أبو العباس أحمد عبد الله نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ط الشركة العربية للطباعة .

٣٣ - الكندى (٩٦١/٣٥٠) أبو عمر محمد بن يوسف كتاب الولاة والقضاة ط الآباء اليسوعيين بيروت ١٣٥٧ هـ .

٣٤ - الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج النيسابورى (ت ٢١١ هـ) صحيح مسلم ط حجازى مصر ١٣١٣ هـ .

٣٥ - المسعودى (٩٥٦/٣٤٦) أبو الحسن على مروج الذهب ومعادن الجوهر ط ذات التحرير مصر ١٣٠٣ هـ .

٣٦ - أبى المحاسن (١٤٦٩/٨٧٤) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ط ١٩٣٠ دار الكتب المصرية .

٣٧ - المقريزى (١٤٤١/٨٤٥) تقى الدين أحمد بن على - إمتاع الأسماع ط الحسينية مصر ١٣٢٥ هـ .

٣٨ - أبى الفدا . ابن كثير عماد الدين إسماعيل بن عمر الدمشقى البداية والنهاية ط السعادة القاهرة ١٣٣٥ ، السيرة النبوية ط المنيرية مصر ١٩١٩ م .

٣٩ - ابن ظفر تاريخ أنباء نجباء الأبناء ط الآباء اليسوعيين بيروت ١٣٥٩ هـ .

٤٠ - الإمام النووى محيى الدين بن شرف الدين ، شرح صحيح مسلم ط الكستليه مصر ١٣٨٣ هـ ، تهذيب الأسماء واللغات ط المنيرية القاهرة ١٩٠٨ م ، رياض الصالحين ط الحلبى ١٣٧٥ هـ .

٤١ - ابن هشام . أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المصرى السيرة النبوية ط حجازى

١٣٥٦ هـ .

٤٢ - الهرثمى . محمد إبراهيم الشهير بصاحب المأمون مختصر سياسة الحروب مطبعة مصر القاهرة ١٩٦٤ م .

٤٣ - الواقدى . (٨٦٩/٢٥٦) محمد بن عمر فتوح الشام دار العهد الجديد مصر ١٣٧٣ هـ .

٤٤ - اليعقوبى (٨٩٧/٢٨٤) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب تاريخ اليعقوبى ط الغرى النجف ١٣٥٨ هـ .

٤٥ - ياقوت . شهاب الدين أبو عبد الله الحموى معجم البلدان ط بيروت ١٩٦٠ م .

٤٦ - ياسين ابن فضل الله العمرى الشامى الرياض الفيحاء فى أخبار النساء ط المنار ودار صادر ١٣٧٦ هـ .

* * *

المراجع

١ - أحمد فريد الرفاعي . الشخصيات البارزة التاريخية ط المعارف ١٣٥٢ هـ .

٢ - أمين الخولى /الجندية واقع ومثال ط دار المعرفة مصر ١٩٦٠ م .

٣ - أبو الأعلى المودودى / نظرية الإسلام وهديه في السياسة والدستور ط الهاشمية ١٣٧١ هـ ، تفسير سورة النور ط دار الفكر دمشق ١٣٧٩ هـ ، مبادئ الإسلام المطبعة الهاشمية دمشق ١٣٧٤ هـ .

٤ - الألوسي . أبو الثناء شهاب الدين الألوسي . سفرة الزاد لشفرة الجهاد ط دار السلام ١٣٣٣ هـ .

٥ - جمال الدين عياد « تنظيم الحرب في الإسلام » ط القاهرة ١٤٠٤ هـ .

٦ - جوستاف جرونيباوم / حضارة الإسلام القاهرة مطبعة مصر ١٩٥٦م .

٧ - حسين إبراهيم حسن / زعماء الإسلام ط النموذجية القاهرة ١٩٥٣ م .

٨ - الخضرى « محمد بك » إتمام الوفا بأخبار الخلفا . ط البابى الحلبى ١٣٧٩ هـ .

٩ - ضياء الدين الريس / النظريات السياسية الإسلامية . ط لجنة البيان مصر ١٩٥٢ م .

١٠ - عباس محمود العقاد « عبقرية الصديق » دارالمعارف مصر ١٩٤٣ م .

١١ - عبد المتعال الصعيدى « شباب قريش في بدء الإسلام » القاهرة الخانجي ١٩٥٢ م .

١٢ - عبد الوهاب النجار « الخلفاء الراشدون » ط العلم دمشق ١٣٨٢ هـ

١٣ - طه حسين « الشيخان » . ط دار المعارف مصر ١٩٦٠ م .

١٤ - محمد عبد الجواد الدومى « المثنى بن حارثة الشيبانى » ط الاعتماد مصر ١٩٦٩ م .

١٥ - محمد مصطفى زيادة . الدولة الإسلامية تاريخها وفنونها . ط المصرى تحت الحراسة القاهرة ١٩٥٤ م .

١٦ - المبارك « الحسين بن المبارك » التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ط الحلبى ١٣٤٧ هـ .

١٧ - محمد فرج « السلام والحرب في الإسلام » ط دار الشعب مصر ١٩٥٥ م .

١٨ - محمد أسد « منهاج الحكم في الإسلام » ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٠ م .

١٩ - محمود شلتوت (الإمام) الإسلام عقيدة وشريعة . ط الأزهر مصر ١٣٨٤ هـ . ومن توجيهات الإسلام ط دار القلم القاهرة ١٣٨٣ هـ .

٢٠ – المتقى . على بن علاء الدين المتقى « كنز العمال » ط دار العلم بيروت ١٩٥٢ م .
٢١ – محمد رضا كحالة « إعلام النساء » دار صادر بيروت .١٩٦٠ م
٢٢ – الندوى « أبى الحسن على الحسنى الندوى الهندى « السيرة النبوية » ط بيروت ١٣٨٥ هـ .
٢٣ – ناظم صالح – دليل الحيران فى الكشف عن آى القرآن المطبعة الحميدية مصر ١٣٢٢ هـ .
٢٤ – هيكل « محمد حسين هيكل – الصديق أبو بكر » . ط مصر ١٣٧٧ هـ .

* * *

الصفحة

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب : ٩٤٢٥ / ١٩٩١

الترقيم الدولى : 6 - 048 - 241 - 977

الثمن ٦٥٠ ص